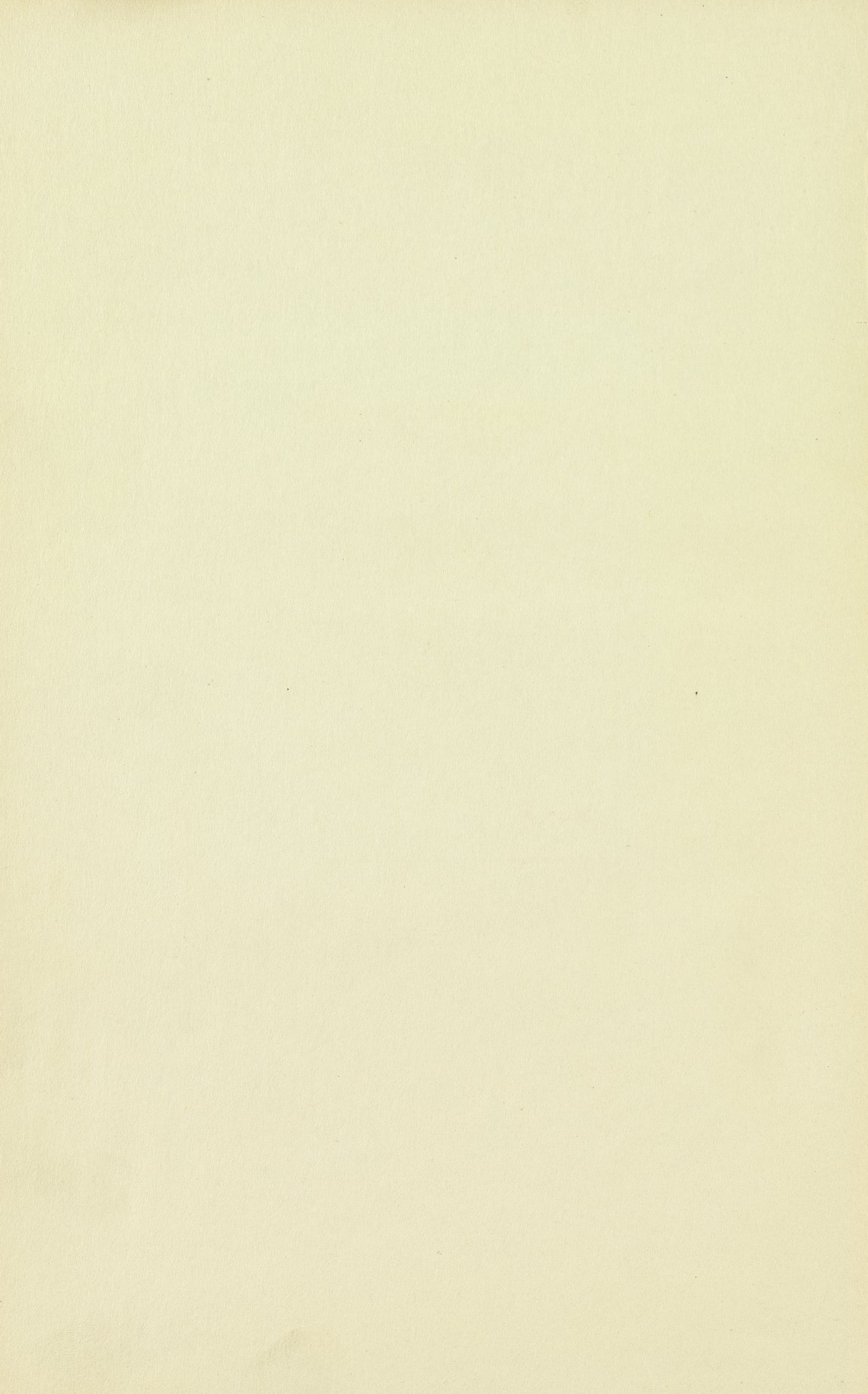
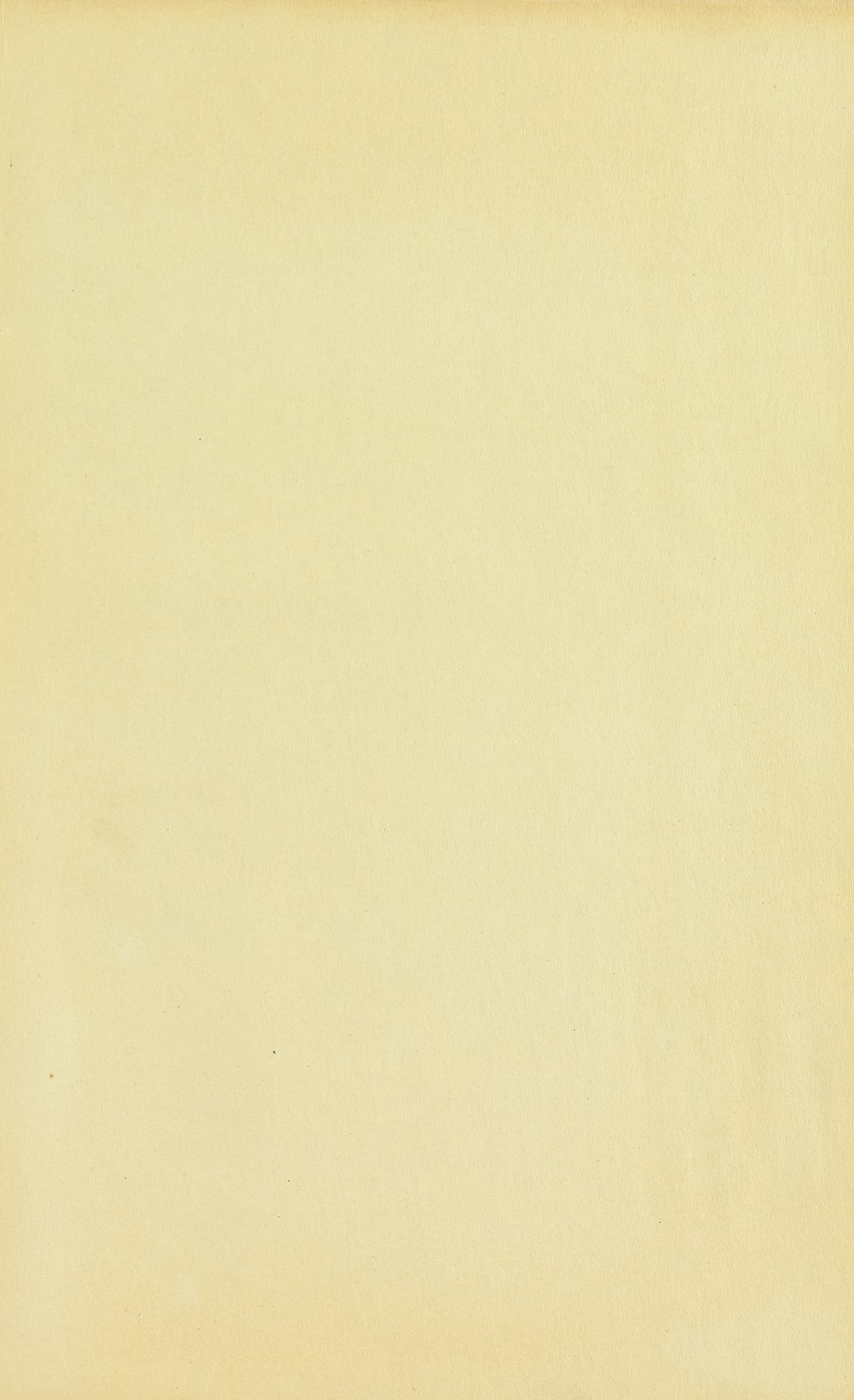






جامعة الدول العربية

معهد الدراسات العربية العالية

الصحافة والأدب في مصر

محاضرات

ألقاها

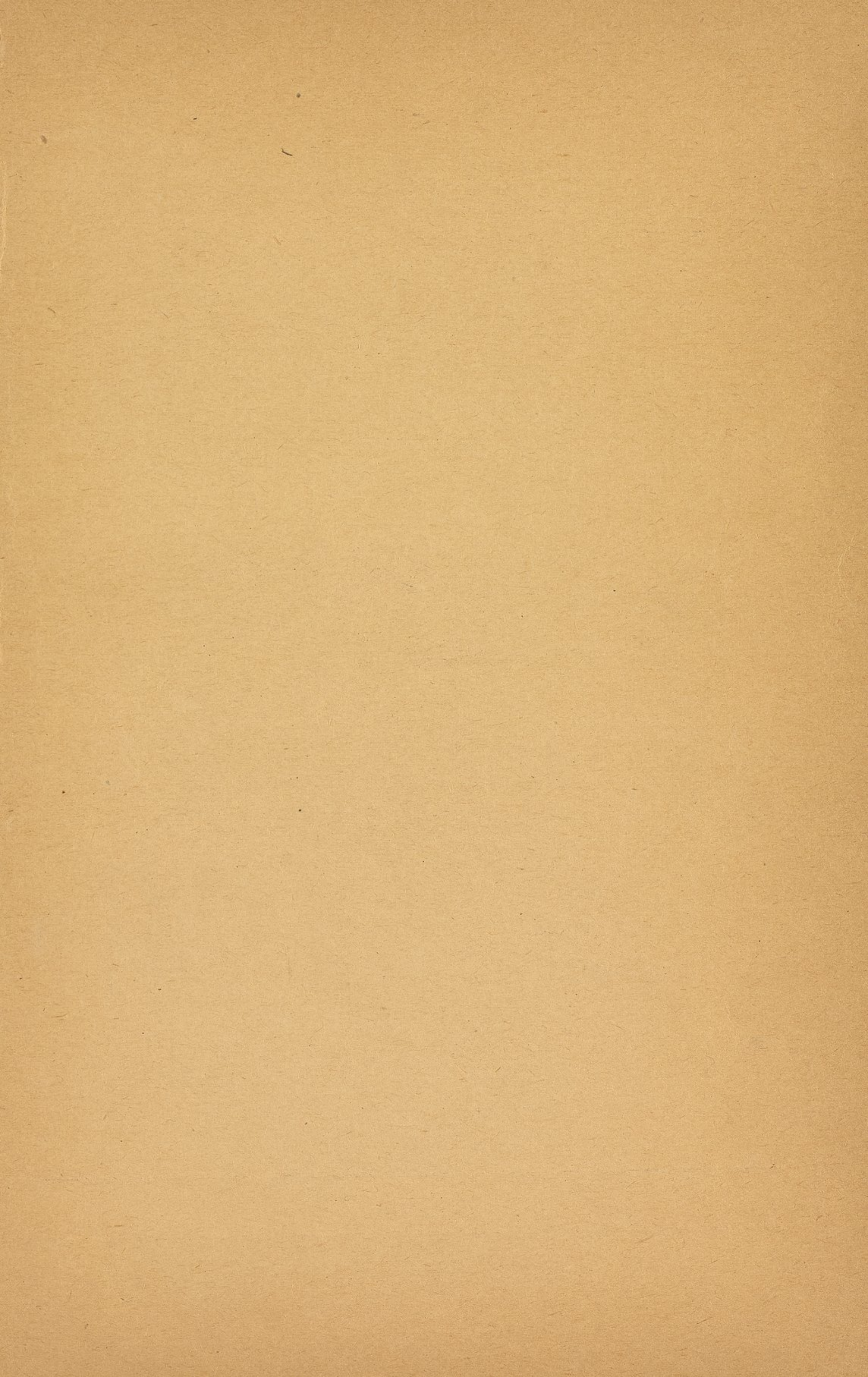
الدكتور

عبد اللطيف حمزه

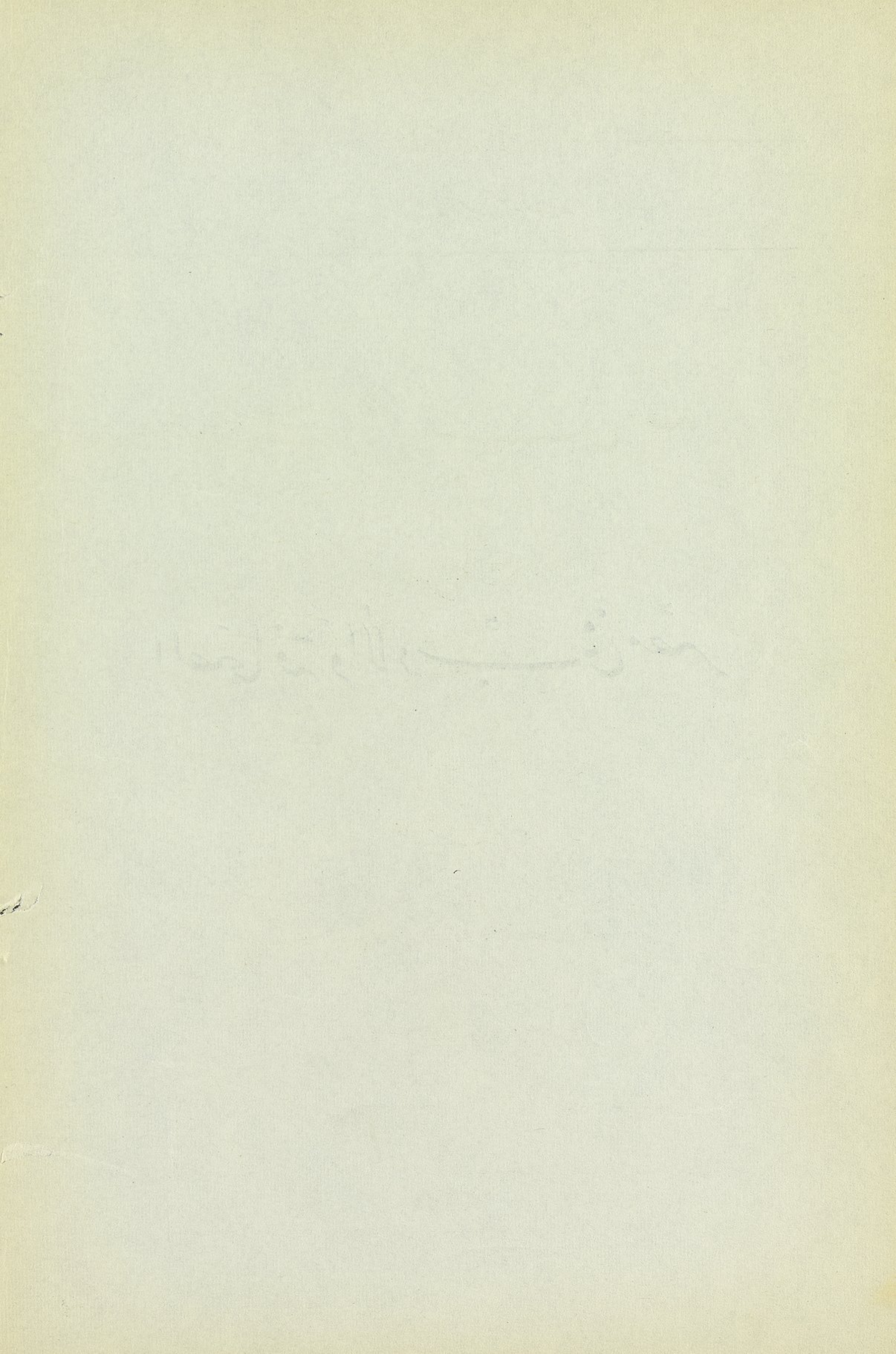
[على طلبة قسم الدراسات الأدبية واللغوية]

١٩٥٤ - ١٩٥٥

١٩٥٥



الصحافة والأدب في مصر



جامعة الدول العربية

معهد الدراسات العربية العالية

الصحافة والأدب في مصر

محاضرات

ألقاها

الدكتور

عبد اللطيف حمزه

[على طلبة قسم الدراسات الأدبية واللغوية]

١٩٥٤ - ١٩٥٥

١٩٥٥

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

فى مدى الخمسة الأعوام الماضية كنت أشتغل بوضع كتاب فى ستة أجزاء إلى الآن ، موضوعه « أدب المقالة الصحفية فى مصر ». وقداضطرنى هذا البحث أن أقصر فيه عنايتى على « فن المقال الصحفى » من حيث هو ، كما اضطرنى هذا البحث أن أمس به الاجواء الفكرية والسياسية والاجتماعية التى عاشت فيها المقالة الصحفية فى جميع الاطوار التى خضعت لها .

وكنت فى أثناء هذا كله أجد الصلة قوية كل القوة بين الصحافة من جهة والأدب الخالص - شعره ونثره — من جهة ثانية . غير أنى كنت أخشى دائما إن أنا تعرضت لشىء من هذا الأدب الخالص أن أدخل بالقارىء فى استطراد يفوت على الغاية من كتابى السابق . وهى هنا العناية التامة بالفن الصحفى للمقال المصرى منذ نشأته .

فحين طلب الى معهدالدراسات العالية بالجامعة العربية أن ألقى عددا من المحاضرات على طلابه فى موضوع الصلة بين الصحافة والأدب ، وتأثير كل منهما فى الآخر ، رحبت بذلك كل الترحيب ، ووجدت فيه الفرصة التى كنت أصبو إليها والعمل الذى أتربص به .

وقد تأملت هذه الصلة بين الصحافة والأدب تأملا جيداً فراعنى حقاً ، وأدهشنى صدقا أن يكون الأدب المصرى الحديث مدينا بحياته ونمائه ، بنشأته وذيوعه للصحافة المصرية . واستحوذت هذه الفكرة على نفسى حتى وددت أن أجعل موضوع محاضراتى هذه على النحو الآتى :

« الصحافة المصرية صانعة الادب المصرى الحديث »

غير أن الأستاذ ساطع الحصرى مدير المعهد رأى فى هذا العنوان أنه أخلق برسالة جامعية منه بمحاضـــرات عامة فوافقته على ذلك ،

وسيرى الذين يقرأون هذه المحاضرات أننى لم أكن مبالغا فى دعواى من أن الصحافة المصرية صانعة الأدب المصرى الحديث . فهم يعلمون أن أهم فنون الأدب فى وقتنا هذا ثلاثة : القصة ، والقصيدة ، والمقالة .

وسينظرون معى فى (القصة المصرية) أولا فيرونها نشأت فى أحضان الصحافة واتخذت لنفسها الوجهة التى اختارتها لها الصحافة . فاذ أثبت هذا البحث صحة هذه النتيجة نكون قد ربحنا من القضية الأدبية التاريخية التى نحن بصددها مقدار الثلث فقط . ثم اذا أثبت البحث صحة هذه النتيجة نفسها بالقياس إلى (القصيدة الشعرية) نكون قد ربحنا مقدار الثلث الثانى . ثم إذا برهن البحث على صدق النتيجة عينها بالقياس إلى (المقالة) — ولا شك أن هذا الجزء هو أيسر أجزاء الدفاع كله — نكون قد ربحنا الثلث الأخير من هذه القضية ذات الشأن الكبير فى تاريخ الأدب الحديث .

وحين رجعت إلى بعض الآداب الاوروبية الحديثة لمست بنفسى صدق هذه النتيجة التى ذهبت اليها . ورأيت القوم هناك وصلوا إلى الغاء المسافة بين الأدب والصحافة ، وأصبحوا لايرون بين هذين الفنين أكثر من خيط رفيع يوشك أن ينقطع فى النهاية .

ولكن — هل فى هذا نفع يعود على الأدب ؟ أم فى هذا ضرر يحيق بمستقبل الأدب ؟ ذلك ما جعلنى أختم كلامى بمحاضرة موضوعها (مستقبل الادب فى ظل الصحافة) — عالجت فيها هذا الموضوع معالجة عاجلة وأظنها عادلة . ووقفت عند هذا الحد .

تلك هى خطتى فى المحاضرات التى ألقيتها على طلبة الدراسات العالية بمعهد الجامعة العربية . والله أدعو دائماً أن يجعلنى خادما لوطنى الأصغر - وهو مصر - وخادما لوطنى الاكبر — وهو العالم العربى والله ولى التوفيق ؟

القاهرة فى يناير ١٩٥٥ م

عبد اللطيف حمزه

١

بين الأدب والصحافة

الصحافة أدب غير خالد

تخيل أحد الأدباء الفرنسيين حوارا لطيفا بين كتاب وجريدة قال فيه الكتاب للجريدة :

إنك تنعمين بمائة ألف قارئ . ولكنك لا تمكثين إلا ساعة أو بعض ساعة فى يد القارىء . ثم لا تلبثين أن تتعرضى للتمزيق أو التلف . وإذ ذاك يلقى بك فى سلة المهملات ، أو يتخذ منك الناس غلافا لبعض حاجاتهم . وهكذا تولدين سريعا وتموتين سريعا دون أن تتركى أثرا ما فى نفوس القراء .

فأجابت الجريدة بقولها :

نعم أيها الكتاب انك لتفضلنى بطول العمر وبسطة الأجل . ولكن لا تنسى أنك تعيش أعمارا طويلة فى عالم الظلام ودنيا النسيان : وعندى أن حياة يوم واحد بالمعنى الصحيح أفضل باشراقها وحركتها وجلالها من حياة مائة عام تقضيها أنت مجهولا من أكثر الناس ، مهملا منهم فوق الرفوف التى يعلوها التراب . آ هـ

ليس وراء هذا الحوار وأمثاله غير معنى واحد ، هو أن الصحافة أدب غير خالد ، وهذا صحيح فى جملته وتفصيله . فإن عمل الأدب فى كل زمان ومكان إنما هو تصوير النفس البشرية بوجداناتها الكثيرة ، وخواطرها التى لا حصر لها . وعمل الصحافة فى جوهرها هو الاهتمام بالجماعات البشرية ، وتناقل أخبارها ، ووصف نشاطها ، ثم توجيه هذه الجماعات إلى ما فيه خيرها ومنفعتها ، ثم تسليتها ، وتزجية أوقات فراغها آخر الأمر .

فإذا ذكرنا أن النفس البشرية باقية بقاء البشر ، وأن حوادث الجماعات الانسانية متغيرة بتغير أحوالها دائما عرفنا كيف أن الأدب الذى هـو

منوط بالنفس خالد بخلودها ، وان الصحافة التى هى منوطة بالجماعات على اختلافها لا يمكن أن يكون لها حظ من الخلود .

ومن هنا نستطيع أن نلمح أول فرق من الفروق بين الأديب والصحافى:

(فالأول) - وهو الأديب - رجل ذاتى يعنى بنفسه وحدها ، فيصف لنا مايجول بها ، أويتردد فى جنباتها ، ويسجل حركاتها وسكناتها ويتأمل هذه الحركات والسكنات . وهو فى هذا الصنيع إنما يصف النفس البشرية كلها ، ويتعمق أسرارها . ويكشف عن حسناتها وسوآتها ، ويكون لأوصافه صدى فى نفوس القراء من كل جنس ، وفى كل عصر ، مادامو قادرين على قراءته وفهمه ، والاستفادة منه . ومن ثم كان الأدباء من أوسع الناس حرية فى الواقع . منهم من ينشئون فى الجد ، ومنهم من ينشئون فى الهزل . والقراء أنفسهم أحرار فى أن يختاروا ما يقرأون من نتاج هؤلاء وهؤلاء . فمن كان من القراء يؤثر الفضائل العامة ، وينشد المثل الأعلى ولى وجهه شطر الأديب الجاد ، والكاتب المتأمل ، والشاعر الذى يسن للناس خلال الخير ، ويرسم لهم طريق الكمال . ومن كان من القراء يجنح الى اللذة الحسية ، ويميل إلى التساهل الخلقى ولى وجهه شطر الأدبب الهازل ، أوالشاعر الماجن ، أو الكاتب الهدام . ولا يكون للدولة فى الأعم الأغلب سلطان على الأديب إلا فى حالة واحدة تقريبا ؛ هى الحالة التى يتعرض فيها الأديب للنظام القائم .

(أما الثانى) - وهو الصحافى - فرجل غير ذاتى - لايستطيع العناية بنفسه ، لأنه مسئول عن العناية بالمجتمع من حوله ، فتراه يسجل حركات هذا المجتمع وسكناته يوما بيوم ، وينهى أخباره إلى القراء فى داخل البلدوخارجه . ذلك أن الصحافة فى ذاتها عمل اجتماعى بحت يقوم على تنوير الأذهان، وعلى الاتصال بالرأى العام . ومن ثم كان على الصحافى أن يتأمل الأخبار والأحداث ، وأن يعقب عليها ويفسرها ، وأن يقصد من هذا العرض والتعقيب إلى الارشاد والتوجيه . ولكن عليه دائما ألا يفكر فى مصلحته

الذاتية ، أو منفعته الخاصة . وإنما يفكر فى مصلحة المجتمع ، ومستقبل المجتمع .
وعلى هذا فالصحافة مرآة تنعكس عليها مشاعر الجماعة وآراؤها وخواطرها . أما الادب فمرآة تنعكس عليها مشاعر الأديب وآراؤه وخواطره . فبينما الصحافى مقيد بهذا القيد الذى هو مصلحة هذا المجموع . إذ بالأديب طليق من كل قيد ، لأنه ليس مسؤلا فى كل وقت عن مصلحة هذا المجموع . ومن ثم وجب على الدوله دائما أن تراقب الصحافى مراقبة جيدة . وفى أثناء الحروب والمحن السياسية - بوجه خاص - يكون من حق الدوله أن تسلط على الصحافة ذلك السيف الرهيب الذى هو « قانون المطبوعات »

وفى حرية الأديب وتقيد الصحافى ، يقول الأستاذ عبد القادر حمزه فى وصف الأخير :

« يجب أن يكون الصحفى حاضر البديهة ، حاضر الجواب على كل مايدعى لان يكتب فيه . وهو فى كل ذلك لا يختار - كما يفعل الاديب - بل الحوادث هى التى تختار له كل يوم ألوانا جديدة ، وتدعوه الى أن يتجه اليها ، وينتهى به الامر الى أن يتسع أفق الادب والعلم والخبرة عنده فيصبح وكأنه الموسوعة بينما يكون الاديب بجانبه وكأنه كتاب فى فن معين [1] » .

هل احتاجت العصور المتقدمة الى الصحافة ؟

يحدثنا التاريخ أن الصحافة ثمرة من ثمرات « المطبعة » وحسنة من حسناتها وهى كذلك فى الحقيقة [2] . فلولا ظهور المطبعة لما ظهرت الصحافة ، ولما استطاعت الصحيفة أن تصل الى آلاف القراء فى وقت معين ، وعلى نمط معين . ولكن هل معنى ذلك أن الناس فى العصور التى سبقت ظهور المطبعه لم يعرفوا لونا من الادب يشبه الصحافة ؟

كلا - فإن الناس فى كل زمان ومكان يحتاجون الى تناقل الاخبار ، والى

---

(١) مختار الوكيل - محاضرة عنوانها (بين الأدب والصحافه) ص ١٣

(٢) لولا أن الصحافة الحقيقية ظهرت فى أوروبا بعد ظهور المطبعة بنحو قرنين من الزمان لأن الصحافة ترتبط بنشأة الطبقة المتوسطة فى المجتمع ، وهى الطبقه التى تؤثر فى وجود الرأى العام ومن ثم كانت الصحافه فى أكثر الأمم رسميه فى أول أمرها ثم أصبحت شعبيه بعد ذلك والأخيرة هى الصحافه بالمعنى الصحيح .

التعقيب على هذه الاخبار . وهم بحاجة أيضا إلى المادة التى يقرأونها لكى يتسلوا بها ، ويزجوا أوقات الفراغ . وهل ننكر أنه كان لكل بيئة متحضرة من بيئات العالم القديم ما يسمى « بالرأى العام » ؟ وهل ننكر أن الادباء فى تلك البيئات المتحضرة هم الذين كانوا يتولون التعبير عن هذا الرأى العام ؟ هكذا كان الحال عند الامم القديمه كمصر واليونان والرومان . وهكذا كان الحال فى العصور الوسطى الاسلاميه كعصر الخلافة العباسية بوجه خاص . وهل نستطيع أن نتصور أن عصرا كهذا الاخير تعرض لكثير من ألوان الصراع السياسى ، والصراع المذهبى ، والصراع العقلى ، والصراع الأدبى قد خلا من الادباء الذين تأثروا بهذا الصراع أو ذاك ، أو كانوا سببا من أسباب حدوثه آنذاك ؟ .

« وفى الادب العربى بنوع خاص وجدنا أن اقناع الرأى العام كان يسلك فى البيئات العباسية وغيرها من البيئات الاسلامية المتحضرة طريقة واحدة ، هى طريقة (الرسائل الحرة) يكتبها أدباء وعلماء لهم فى تاريخ الادب العربى شهرة واسعة . وكانوا بشهرتهم هذه مصدر خطر على الدولة حينا ، ومصدر أمن وصيانة لها حينا آخر . وهذه الرسائل التى كتبها أولئك الكتاب فى موضوعات السياسة والدين والادب والاجتماع هى — مع التجوز القليل — صحافة كاملة بالنسبة للعصور التى ظهرت فيها .

« ولك أن تتصور معى رجلا من كتاب القرن الثالث الهجرى كالجاحظ — ما أجدره أن يكون أول صحفى ممتاز لو عاش فى عصر كالذى نعيش فيه ؟ بل إننى ذهبت إلى إنه كان بالفعل ذلك الصحفى الناجح الذى لم ينقصه يومئذ غير الاسم . كما نظرت الى الادب الجاحظى كله على أنه صحافة كاملة لذلك العصر » (١)

وإذا سمحتم لى فانى استطرد قليلا فى وصف تلك البيئة العباسية

---

(١) أدب المقالة الصحفيه فى مصر للمؤلف ج ١ ص ٦ و٧

الزاهرة فى القرن الثالث . فأقول إننا نجد فيها أدباء ذوى أمزجه مختلفة ، ونجد لكل واحد منهم كذلك (أصالته) التى يتميز بها . كما نجد مثل هذا تماما فى العصر الذى نعيش فيه الآن .

ففى تلك البيئة العباسية الحية نجد من الادباء من كان ذا مزاج أدبى خالص (كابن المقفع) صاحب كليلة ودمنة . ومنهم من كان ذا مزاج علمى خالص (كابن قتيبة) صاحب كتاب الشعر والشعراء ، وكتاب أدب الكاتب. ومنهم من كان ذا مزاج صحفى خالص (كالجاحظ) . وشتان بين هؤلاء الثلاثة الذين ذكرنا .

(فابن المقفع) أديب : وأدبه خلاصة مطالعاته ، وتجاربه وتجاريب آبائه وأسلافه من الفرس أصحاب الحضارة الفارسية القديمة . وهو يسلك فى كتابة أدبه طرقا فنية خالصة : كأن يتحدث على ألسنة الحيوان ، وكأن يعتمد أحيانا على الصور البيانية الرائعة ، ونحو ذلك .

(والجاحظ) رجل شديد الانغماس فى المجتمع . وهو فى الوقت نفسه غزير النتاج الى درجة تلفت النظر . ونتاجه هذا شديد الصلة بالافكار الشائعة فى عصره . بل هو صورة دقيقة لما يحيط به فى تلك البيئه العباسية من دين ، وسياسة ، وثقافة ، وأدب ، وعادات ، وتقاليد اجتماعية راقية بكل مافى هذه الكلمة الاخيرة من معنى .

(وابن قتيبه) رجل عالم فى اللغة ، وعالم فى النقد ، وعالم فى الحديث والتفسير ، وغيرهما من العلوم التى جعلت منه (خطيب أهل السنة) . ولكنه رجل حبس نفسه على العلم . ولم يشأ أن يزج بنفسه فى المجتمع ، كما فعل الجاحظ من قبل . ولم تكن لابن قتيبة موهبة الأدب الخالص كابن المقفع . ومن ثم لم يكن (أديبا) من طرازه . ولا كان صحفيا من طراز (الجاحظ) بالمعنى الذى نفهمه من كلمة الصحافه عند إطلاقها فى الوقت الحاضر . وهكذا تحتاج العصور الزاهية من عصور

الانسانية فى أية بيئة من البيئات الحضرية إلى رجال ذوى مواهب مختلفة ، وأمزجة متباينة ، حتى فى الفن الواحد فقط كفن الأدب ، أو الموسيقى ، أو التصوير ، أو الحرفة العملية ، أو العلم النظرى . غاية ما هنالك أن المخترعات الحديثة التى منها (المطبعة) يكون لها أثر واضح فى تغيير أساليب الحياة نفسها ، ولكنها لا تستطيع مطلقا أن تغير من طبائع الناس ذاتها ، ولا أن تؤثر فى أمزجتهم التى يولدون بها ، ولا أن تعبث بمواهبهم التى فطروا عليها .

بل إنى لأذهب إلى أبعد من هذا فأقول أن البيئات المتخلفة لا غنى لها - هى الأخرى - عن نشاط فكرى أو أدبى يشبه النشاط الصحفى فى مجموعه . فمصر فى العصر العثمانى - وهو الذى تواضع المؤرخون على تسميته بعصر الانحطاط - نجد فيها طائفة من الرسائل الحرة التى يتبادلها العلماء المصريون فى مسائل هامة كانت تشغل بال الرأى العام المصرى إذذاك ، كمسألة الأضرحة والأولياء ، هل هى حرام أم حلال ؟ وكشرب القهوة ، هل هى حلال أم حرام ؟ ونحو ذلك . فاذا عرفنا أن كل رسالة من تلك الرسائل كانت لا تتجاوز عشرين صفحة ، وأن كل واحدة منها كانت ردا على رسالة أخرى سبقتها استطعنا أن نسمى ذلك نشاطا صحفيا ، طريقته الرسالة الصغيرة التى قامت قبل ظهور (المطبعة) مقام المجلة أو الجريدة . وفى هذه الأخبار وأمثالها ما يدل دلالة صريحة على أن العصور الانسانية على اختلافها لا غنى لها عن النشاط الفكرى أو الأدبى الذى لا فرق بينه وبين النشاط الصحافى الا وجود (المطبعة) وما تؤدى اليه من انتشار الصحف على أوسع نطاق يمكن تصوره .

فنون الادب وفنون الصحافة وتأثر بعضها بالآخر

كان القدماء يقولون : - « من أراد أن يكون عالما فليطلب فنا واحدا ومن أراد أن يكون أديبا فليتسع فى العلوم » ومن ثم توسعوا فى مدلول الأدب حتى جعلوه مشتملا على أمور كثيرة ، عبر عنها أحدهم بقوله . « الأدب هو الأخذ من كل شىء بطرف » ، وهذا هو الأدب (بالمعنى العام) . أما

الأدب (بالمعنى الخاص) فهو التعبير عن النفس البشرية وما يصدر عنها من فكرة أو عاطفة . بشرط أن يكون التعبير فى ذاته جميلا ، وله حظ ما من التفكير الانسانى على أية صورة من الصور . ومتى اتفقنا على هذه الأسس المتقدمة جاز لنا أن نحصر الأدب فى فنونه التالية ، وهى : فن الشعر ، وفن الخطابة ، وفن الكتابة . ولهذا الفن الأخير ضروب كثيرة منهـــا :ـ

فن الرسالة ، وفن القصة ، وفن المقالة ، وفن التاريخ ، وفن النقد .

أما (الصحافة) فيمكن أن نحصر فنونها عن طريق فهمنا لأغراضها وأهدافها . وللصحافة فيما نعلم أهداف رئيسية ثلاثة وهى :ـ

هدف الإخبار والاعلام ، وهدف التعقيب أو الارشاد ، وهدف التسلية .

وعلى هذا فينبغى أن يكون للصحافة فنون كثيره أهمها اثنان ، هما فن الخبر أو الإعلام ، وفن المقال .

ثم أن المقال الصحفى نفسه أنواع كثيرة منها :

المقال العرضى (بسكون الراء) . وهو الذى يهدف فيه الكاتب إلى عرض فكرة معينه أو مشكلة محدده .

والمقال النقدى ـ وهو الذى يهدف فيه الكاتب الى نقد الفكرة أو المشكلة .

والمقال النزالى ـ وهو الذى يهدف فيه الكاتب الى مساجلة كاتب آخر حول مذهب سياسى ، أو اجتماعى ، أو علمى ، أو أدبى الخ .

ولا شك أن هناك فنونا صحفيه أخرى ؛ كفن التقرير الصحفى ، وفن التحقيق الصحفى ، وفن الحديث الصحفى . ولنشر اشارة عابرة إلى تأثير كل فن من هذه الفنون الصحفيه فى الأدب .

(فالخبر) ـ من هذه الفنون ـ كان معروفا قبل الصحافة . ولكن الادباء لم يعنوا بغير الأخبار الهامة النادرة . وكانوا إذا وصفوا واحدا منها عمدوا فى ذلك على التهويل والمبالغة . ثم ظهرت الصحافة ، وساد المجتمعات روح

الاهتمام بالواقع من حيث هو . وأصبح الخبر يكتب بطريقة سهلة لا تكلف فيها إلا من حيث الفن الصحفي فى ذاته . ولم يصبح من الضرورى أن يكون هذا الخبر الذى تنشره الصحيفه زلزالا فى مكان ما، أو معركة حربيه دامية فى مكان آخر، أو صاعقه من صواعق السماء ، ونحو ذلك : بل أخذت الاخبار العادية اليومية تحتل مكانها فى الصحف ، وتغدو موضعا لعناية الصحفيين على اختلاف آرائهم ونزعاتهم .

وهكذا أصبحت الصحافة قائمه على الحقائق الثابتة ، والوقائع المشاهدة . وتخلصت نهائيا من المبالغات التى أتسم بها الادب القديم ، والتهاويل التى اتصف بها . ثم تأثر الادب الحديث بذلك ، فبدا للناس أدبا واقعيا لا خياليا فى أكثره كما كان من قبل .

(والمقال) - كفن من الفنون الصحفيه التى أشرنا اليها - كان يكتب قبل ظهور الصحافه بلغة فيها كثير من الوقار والتكلف ، ثم أصبح بعد ظهور الصحافة يكتب بلغة فيها قدر كبير من الإيناس والحيوية والتظرف . وسنتحدث عن الفروق بين لغة الادب ولغة الصحافة فى محاضرة أخرى .

وأما موضوع المقال الصحفي فقد أصبح مخالفا كل المخالفه لموضوع المقال الأدبى . كان موضوع الادب فى العصور القديمة يمتاز بالفخامة، ويدور حول أشخاص الملوك والامراء والساده ، فأصبح موضوع المقال الصحفى يمتاز بالوضوح والبساطه ، ويشترط فيه أن يكون لصيقا بالمجتمع ذاته . بل غدا كل شىء — مهما كان تافها فى هذا المجتمع — يصلح لأن يكون موضوعا للكتابة فى الصحف .

(والتحقيق الصحفى) - وهو فن يعتمد اعتمادا كاملا على الدقة التامة وعلى وصف الواقع الملموس، وعلى ايراد الشواهد التى يشتقها الكاتب من الحوادث التى أمامه ، وعلى ربط هذه الشواهد كلها بحياة الأفراد فى المجتمع الذى ينتظر قراءة هذه المادة ، وبفهمها فهما جيدا - هـذا التحقيق الصحفى كان ذا أثر بالغ فى الاتجاه بالأدب وجهة موضوعية من جانب، واقعيه من جانب

آخر . وأكبر الظن أن هذه المادة الصحفية كانت أساسا صالحا لنشأة القصة الاجتماعية فى جميع الآداب العالمية التى نعرفها اليوم ، كما سنوضح ذلك بعد.

(والحديث الصحفى) - وهو مظهر من مظاهر الفردية البارزة فى المجتمع الديموقراطى - تعنى فيه الصحيفة بالنابهين فى هذا المجتمع أو البارزين فيه ؛ حتى فى النواحى السيئة غير الصالحة ، وتحاول الصحيفة أن تنقل آراءهم للجمهور . وفى ذلك ما يدنو بالصحافة من دائرة الواقع الملموس ، ويمعن بها إمعانا فى هذه الدائرة . وفى ذلك أيضا ماينأى بالأدب الصحفى عن الملك الذى دار فيه الأدب القديم ؛ وهو الأدب الذى كان يأنف من الاهتمام بالافراد ، مالم يكونوا حكاما أو سادة - كما قلنا .

(والتقرير الصحفى) - وهو أكثر موضوعية من جميع الفنون الصحفية - كان هوالآخر تجربة من التجارب التى مر بها الأدب الحديث ، وفتحت أمامه آفاقا جديدة ، حلت فيها الموضوعات الاجتماعية محل الموضوعات الكلامية ، أو اللغوية ، أو الفلسفية أو البلاغية ، أو الدينيه .

والخلاصة أن الأدب الحديث بعد مروره بتلك التجارب الصحفية التى سبق ذكرها - اكتسب لنفسه شكلا جديدا ، وقوة جديدة ، ونزعة جديدة :

أكتسب لنفسه أسلوباً مخالفاً لأسلوب القدماء ، واكتسب لنفسه حيوية جعلته محببا لاكبر عدد ممكن من القراء ، واكتسب نزعة لها خطرها وفائدتها فى العصر الحديث . وهذه النزعة هى الديموقراطية بدلا من الارستقراطية مما سنوضحه بأكثر من ذلك فى بعض المحاضرات القادمة إن شاء الله ؟

٣

لغة الأدب ولغة الصحافة

اللغة التى يتكلمها البشر لغتان ـ لغة التخاطب اليومية ، وهى ما اصطلحنا على تسميته (بالعامية) ، ولغة الكتب أو الصحف ، وهى ما اصطلحنا على تسميته (با لفصحى) .

واذا أنعمنا النظر فى هذه الأخيرة وجدنا لها مستويات ثلاثة وهى : ـ

المستوى الأدبى ، والمستوى العلمى ، والمستوى العملى أو الاجتماعى : فى الأول من هذه المستويات يقف (الأديب) بطالعنا بإحساساته وتأملاته ، وموافقة الانسانية ، وتجاربه النفسية معبرا عن كل ذلك تعبيرا أساسه الجمال ، وتعبيرا فيه كثير من الذاتيه أو الأنانية . والأنانية هنا معناها عناية الاديب بنفسه ، وبما يدور فيها من أحاسيس ، وما يجول فيها من خواطر ، بحيث يخرج لنا من كل ذلك بقصيدة رائعة ، أو قصة جميلة ، أو مقال أدبى ، أو رواية تمثيلية . ونجد نحن فى ذلك كله صدى لنفوسنا ، ومرآة لانسانيتنا . وفى (الثانى) من تلك المستويات الثلاثة نرى (العالم) وبيده أجهزه مخالفة كل المخالفه . لأجهزة الأول ، بها يستطيع أن يقوم بالتجارب ، ويفرض الفروض ، ويقيم الموازنات : ويخرج لنا من كل هذا بنتيجه علمية ،أو بنظرية من النظريات التى يمكن أن تكون أساسا يبنى عليه العلم .

وفى (الثالث) من تلك المستويات يقف (الصحافى) لينظر الى الأحداث والوقائع نظرة غيرية لاذاتية . وهى فى الوقت نفسه مخالفه لنظرة الاديب ونظرة العالم كل المخالفة . ذلك أن نظرة الصحافى إلى الأشياء قائمة على المنفعه التى تعود على المجتمع .وتعبيره عنها لا يشترط فيه جمال الادب الخالص، ولا دقة العلم الخالص . لأنه إنما يعبر بلغة الحياة اليومية بكل ما فى هذه اللغة من ألفة ، وبساطة ، ووضوح ، وحيوية . ومن هنا كان الصحافى من أقدر الناس على إفهام الجماهير على أوسع نطاق مستطاع .

وفى ذلك يقول الكاتب الانجليزى (ديفو) - وهو من أشهر كتاب المقال فى القرن الثامن عشر :

« إذا سألنى سائل عن الأسلوب الذى أكتب به قلت إنه الذى إذا تحدثت به إلى خمسة آلاف شخص ممن يختلفون اختلافا عظيما فى قواهم العقلية — عدا البله والمجانين — فإنهم جميعا يفهمون ما أقول »

* * *

مهما يكن من شىء فالذى يعنينا فى هذا الفصل إنما هو معرفة الفرق بين أسلوب الأديب ، وأسلوب الصحفى . أو بعبارة أخرى معرفة الوسائل التى يعتمد عليها الأول ، والوسائل التى يعتمد عليها الثانى (١)

فأما الوسائل التى يعتمد عليها الأديب فكثيرة يمكن ان يقع الكثير منها تحت عنوان واحد ، هو (الخيال والصورة) ، فالأديب هو وحده تقريبا صاحب الحق فى ان يعتمد على التشبيه ، والاستعاره ، والمجاز ، والكناية ، وعلى ما يسمى عند النقاد المحدثين (بتجسيم المعانى) ، وما يسمى عندهم كذلك (بتشخيص الجماد) والأديب هو وحده تقريبا صاحب الحق فى ان يعتمد على الخرافات ، وفى ان يتحدث على ألسنة الحيوان والطير ، وفى أن يصل بخياله الى حد الوهم أحيانا . فينقلنا - إن أراد - إلى عوالم أخرى ، ويسبح بنا فيما شاء من أجواء ، ورسم لنا من عوالم .

أما الصحفى فوسيلته فى التعبير اللغوى واحدة ، قلما يستطيع أن يعدوها الى غيرها من الوسائل الأخرى . وهذه الوسيلة هى - كما قلنا - لغة الحياة الواقعة يتخذها أساسا للتعبير والابانة ، ويعتمد عليها فى كتابة الأعمدة الكثيرة فى الجريدة . والحياة الواقعة غنية دائما بالألفاظ الكثيرة التى تظهر فيها بين حين وآخر ، وتتخذ لها معانى خاصة ، وتصبح أقدر على التعبير عن هذه

---

(١) سبق أن عالجت هذا الموضوع فى كتابي (أدب المقالة الصحفيه فى مصر) فى أجزائه السته . وللقارىء أن ترجع بنوع خاص إلى الصفحات ٢٤٢ — ٢٥٠ من (الجزء الاول) والصفحات ٢١٦ — ٢١٩ من (الجزء الثاني) والصفحه ٢١٠ من (الجزء الرابع) والصفحه ٢٣٣ من (الجزء الخامس) والصفحات ٢٨٢ — ٢٨٦ من (الجزء السادس)

المعانى من الألفاظ القديمة أو الموروثة . وهذه الالفاظ التى تظهر فى الحياة الواقعة تكون عامية حينا ، وأجنبية حينا ،ومنحوته نحتا جديدا حينا ثالثا وهكذا .

فألفاظ : — الديموقراطية ، والدكتاتورية ، والأرستقراطية ، والاستراتيجية ، والدبلوماسية . والفاظ : الحرب الباردة ، والتكتيك الحربى ، والتكتيك السياسى الخ كلها جائزة الاستعمال فى الصحافة . بل أن كاتب الخبر أو المقال فى الصحيفة لاغنى له مطلقا عن هذه الالفاظ التى أصبح لها مدلول خاص فى حياتنا اليومية ، كما أصبح لها كذلك وحى خاص توحى به إلينا ، بحيث اذا ذهبت تنحت لهذه المعانى ألفاظا عربيه سليمة فانك تفقدها مدلولها من جهة ، وتسلبها القدرة على الإيحاء المطلوب من جهة ثانية .

على أنه من الجائز أن يصطنع الصحفى لغة الأدب الخالص احيانا، ولكن ليس له أن يسرف إسراف الأديب فى ذلك . فاذا جاز لهذا الأخير أن يستخدم الأصباغ الفنية الكثيرة فى الكتابة ؛ من سجع وجناس وتشبيه واستعاره وكناية ، فانه لا يجوز للأول أن يفعل فعله الا فى القليل النادر .

وإذا أردنا أن نحدد الفرق بين الأديب والصحفى فى استخدام الأصباغ الفنية المعروفة ، فسنرى أنه كالفرق بين الصورة ذات الألوان الكثيرة، من أحمر ، وأصفر ، وأزرق ، وبنفسجى الخ وتلك صورة الأدب — والصورة ذات اللونين الأبيض والأسود فقط — وهذه صورة الصحافة .

وقد سبق لى أن ضربت لكم مثلا يوضح الفرق بينهما فى ذلك . ضربت لكم هذا المثل من أدبنا العربى القديم لا الحديث . لتعلموا إن هذه الفروق موجودة بين الناس منذ القدم ، وأن الكتاب انقسموا من أجلها هذين القسمين الواضحين ؛ وهما كتاب الأدب الخالص ، وكتاب الصحف التى ليست من الأدب الخالص . الاولون يمثلهم ابن المقفع ، والآخرون يمثلهم الجاحظ .

* * *

الخبر والمقال

سبق لى أن ذكرت لكم أن من أهم فنون الصحافة فنين وهما — فن الخبر وفن المقال .

« أما الخبر » فيعتمد فى كتابته على طريقة خاصة تبعد به عن طريقة المقال .

ذ الخبر عبارة عن حقيقة من الحقائق الواقعة، أو حادثة من الحوادث اليومية ينقلها الكاتب إلى القراء، ويتوخى فيها نوعا من الجذب عند العرض. كأن يكتب العنوان على نحو خاص، ويكتب تحت هذا العنوان عنوانات أخرى توضحه وتكتسبه قدرا آخر من التشويق والاثارة، وهكذا.

ثم إنه عند كتابة الخبر ذاته، يتوخى الكاتب كذلك أن يكتبه على دفعتين، وبصورتين مختلفتين. أولاهما أدنى إلى الايجاز والاختصار. والثانية أدنى إلى الاسهاب والاطالة التي يراد بها شرح ما سبق أن أوجزه الكاتب في صورته الأولى.

والخبر الصحفي - بوجه عام - يجب أن يكون في صورته الأولى هذه جوابا عن أسئلة خاصة تقدر الجريدة أنها في ذهن القارىء عند القراءة. وهذه الاسئلة هي (متى)، و(أين)، و(من)، و(كيف): فمتى حدث الحادث؟ وأين وقع؟ ومن الذي اشترك في إحداثه؟ وكيف كانت طريقة الحدوث؟ الخ. حتى إذا فرغت الجريدة من الاجابة عن هذه الأسئلة بطريقة سريعة وموجزة أصبح لها بعد ذلك أن تعمد إلى تفصيل ما أوجزت، وشرح ما أجملت.

وعلى هذا فكتابة الخبر الصحفي بعيدة في طريقتها عن كتابة المقال. ولا غرابة في ذلك فالخبر - كما قلنا - حقيقة واقعة، وحادثة مشاهدة تتوخى الصحف أن تنقلها الى القراء كما هي، وأن اختلفت هذه الصحف بعد ذلك في طرائق العرض من حيث هي.

و (أما المقال) فهو فن التعليق على هذه الأخبار، سياسية كانت أو اجتماعية، أو علمية، أو أدبية. ثم هو فن التوجيه والارشاد توجيها لا يكون بطريقة الوعاظ والخطباء، ولا بطريقة المعلمين والآباء، ولكنه بطريقة الحديث الذي يكون عادة بين الاصدقاء والخلطاء، لا يستعلى احدهم على الآخر، ولا يفهمه أنه يعظه أو يعلمه، أو يجره جرا الى رأي معين، أو فكرة معينة.

ذلك أن الفرق كبير بين الكتاب والجريدة . فأنت مع الاول أمام معلم يعلمك مالم تكن تعلم ، أو يثبت فى ذهنك بعض ما كنت تعلم . ولكنك مع الثانية أمام صديق ينهى إليك أنباء المجتمع الذى نعيش فيه ، كما ينهى اليك أخبار المجتمعات الاخرى ، ولا يقف بك عند هذا الحد ، حتى يثير فى ذهنك أسئلة كثيرة يساعدك على فهمها ، وعلى الاجابة عنها ، متوخيا فى ذلك كله أن يكون معبرا بوضوح عما يسمى « بالرأى العام » ، أو محاولا — جهد المستطاع — التأثير فى هذا الرأى العام .

ومع هذا وذلك فلا يزدهر المقال الا فى عصور التقدم العقلى على أية صورة من صوره . فحيثما وجدت عناية تامة بالمقال فاحكم بأن هناك نشاطا فكريا فى السياسة . أو العلم ، أو الادب ونحو ذلك . ومن أجل هذا لم تشهد انجلترا نشاطا فى كتابة المقال كما شهدته فى القرن الثامن عشر ، على أيدى كتاب من أمثال . — ستيل ، وأديسون ، وديفو ، ومن اليهم . كما شهدت مصر نشاطا فى هذا الباب فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، على أيدى رجال من أمثال : الشيخ محمد عبده ، والسيد عبد الله النديم ، والسيد على يوسف ، ومن نهج منهجهم ، وسار على طريقتهم ، وشغل بافكاره الناس والحكومات .

ثم إن المقال الصحفى كان يهدف من قبل الى مجرد التأثير فى المجتمع الذى تعيش فيه الجريده ، فأصبح يهدف فى وقتنا هذا الى التأثير فى دول العالم المتحضر كله متى أمكن ذلك . ومن ثم أصبح للمال أهميته البالغة فى الدعاوة السياسية لرأى معين ، أو فكرة خاصة يقصد بها منفعة قطر بعينه ، أو منفعة العالم كله . فى بعض الأحيان .

* * *

تعريف المقال :

ولكن ما هو المقال الصحفى ؟ وما السبيل الى كتابته ؟

سبق لى كذلك أن تعرضت لهذا الموضوع ، فقلت عن المقال الصحفى إنه ليس موضوعا انشائيا ، ولا مقامة من المقامات المعروفة فى

الادب العربى ، ولا قصة ، ولا حكاية ، ولا فصلا من فصول كتاب أدبى أو علمى ، ولا محاضرة من المحاضرات العلمية أو الأدبية ، ولا ضربا من هذه الاضرب الادنيه المعروفة لها. انما المقالة الصحفية عبارة عن فكرة يتلقفها الكاتب من البيئة المحيطة به ، ويتأثر بها . وفى هذا الجو الوجدانى للتلقف، يعبر الكاتب عن هذه الفكرة بطريقة ، حظها من النظام قليل، وحاجتها الى الترتيب والتمحيص والتدقيق والبحث العلمى العميق أقل . فانما المقالة حديث يوشك أن يكون عاديا ، يعرضه الكاتب على قرائه كما يعرض لموضوع من الموضوعات التى يزجى بها وقت الفراغ مع بعض الجلساء . وحسب المحرر الصحفى أن يتحدث الى قرائه فى الامور الخاصة والعامة حديثا فيه سخرية حينا ، وفيه تفكير حينا ، وفيه استطراد حينا ، وفيه مراعاة لمزاج القارىء وحاجاته آخر الامر ، (١)

والانجليز يطلقون على المقال كلمة (Essay) . ومعناها (محاولة) أى أنها شىء غير مكتمل ، شىء يشبه المذكرات الخاصة والخواطر المتناثرة . وعلى القارىء دائما أن يكمل ما بالمقالة الصحفيه من نقص ، كما يكون على سامع القصيدة الغنائية أن يفعل مثل ذلك عند سماعه بيتا من الأبيات التى تتألف منها (٢) ،

وانظر الى تعريف معجم (لاروس) للمقال :

« هو اسم يطلق على الكتابات التى لا يدعى أصحابها التعمق فى بحثها ، أو الإحاطة التامه فى معالجة موضوعاتها . وكلمة مقال تعنى محاولة أو خبرة أو تطبيقا مبدئيا أو تجربة أولية »

وانظر الى قاموس أوكسفورد كيف وصف المقال فقال : —

« هو انشاء كتابى معتدل الطول فى أى موضوع من الموضوعات ، أو فرع من فروع المعرفة. وهو دائما ينقصه الصقل. ولذلك يبدو غير مهضوم ولا منظم الخ»

ثم انظر الى دائرة المعارف البريطانيه كيف تقول : —

---

(١) أدب المقالة الصحفيه فى مصر (للمؤلف) الجزء الثانى ص ٢١٦

(٢) نفس المصدر المتقدم — الجزء السادس ص ١٨٤

« المقال – كفن أدبى – هو الانشاء المتوسط الطول، يكتب بالنثر عادة ، ويعالج موضوعا بعينه بطريقة مبسطة وموجزة ؛ على أن يلتزم الكاتب حدود هذا الموضوع، ويكتب عنه من وجهة نظره هو . والمقال – كفن صحفى – يهتم بالتفاصيل على حين يهتم المقال كفن أدبى بمجرد القيم »

ويقول الكاتب الانجليزى جونسون فى وصف المقال : –

« ولا ينبغى أن يكون له ضابط من نظام ، بل هو قطعة لا تجرى على نسق معين ، ولم يتم هضمها فى نفس كاتبها » الخ

مما تقدم نستطيع أن نستخلص الخصائص الهامة للمقال الصحفى فى أغلب الاحيان . وهى خصائص يمكن أن نجمعها كلها صفة (العادية) فى التعبير و(العادية) فى التنظيم والتصميم ، و (العادية) فى التفكير . ومن هنا وصلت الصحيفة الى كل يد ، ودخلت كل بيت ، ووضعت على كل مائدة . وذلك بخلاف الكتاب الذى احتفظ لنفسه بصفة التميز والاختصاص فى جميع الظروف والاحوال.

ومن ثم كانت الصحافة نعمة على الجماهير وسواد الناس، ولكنها أوشكت أن تكون فى الوقت نفسه نقمة على الأدب الخالص ، والعلم الخالص ، والفن فى عليا مراتبه (١)

بم تقدم النثر القديم وبم تقدم النثر الحديث ؟

نحن نعرف من تاريخ الادب العربى أن النثر الفنى القديم إنما ولد ونما

---

(١) يعجبنى فى هذا الباب كتاب ألفه الاستاذ موريس هيولت (Maurice Hewlett) تحدث فيه عن فن المقالة فى الادب الانجليزى فاتخذ لكتابه عنوانا فى غاية الدلالة وهو (The May pole and The Collumn) والترجمة الحرفيه لهذا العنوان يصح أن تكون هكذا : « سارية الربيع والعمود » . وبهذا العنوان فرق الكاتب تفرقة واضحة بين المقالة الادبيه والمقالة الصحفيه . فشبه الاولى بسارية الربيع ، وهى ذلك العمود الكبير الذى يتخذه الإنجليز رمزاً لعيد الربيع ، يزينونه بالزهور البديعه من كل صبغ ، والورود الجميلة من كل لون ، فتبدو السارية وكأنها العروس فى جلوتها . ثم شبه المقالة الصحفيه بالعمود العارى من جميع هذه الزينه . وتأمل معى أيها القارئ لفظ « عمود » وقد استعاره الكاتب هنا للمقالة الصحفية على سبيل التورية . فلهذا اللفظ معنيان « أولهما » العمود بالمعنى المادى المعروف « وثانيهما » العمود بمعنى النهر الذى يكتب فى صحيفة من الصحف .

فى أحضان الخلفاء والامراء والوزراء ، وعنيت به الحكومات الاسلامية منذ بداية أمرها عناية تامة . فابتنت له دورا وقصورا عرفت باسم «الدواوين» وسمى واحدها حينا باسم «ديوان الرسائل» وحينا آخر باسم «ديوان الانشاء» وحينا ثالثا باسماء اخرى .

وكان يتولى الكتابة فى تلك الدور أو القصور صفوة من الناس لا يرقون إلى مرتبة الكتابة الا بعد أن يؤخذوا أنفسهم بثقافة واسعة ، ورياضة بالغة يصبح بها رئيس طبقة الكتاب – وهو الوزير فى العادة – عنوان أمته فى العلم والثقافة ، كما هو عنوان امته فى الادب والكتابة .

ومعنى ذلك باختصار أن النثر الفنى العربى انما نشا نشأة ارستقراطية لاريب فيها ، وان الحكومات الاسلامية فى تلك العصور كانت تتولى حماية هذا الفن الادبى منذ نشأته ، وتبذل كل ماتستطيع فى سبيل حمايته .

– ذلك كله فى العصور الاولى للأدب العربى . أما فى العصر الحديث – وهو العصر الذى قال فيه شوقى :–

لكل زمان مضى آية وآية هذا الزمان الصحف

– فقد ظهرت الصحافة . والصحافة فى ذاتها أداة شعبية ديمقراطية أكثر منها أداة رسمية ديوانية . وإذا كان لديوان الانشاء أكبر الفضل فى تقدم الكتابة العربية فى العصور التى تشير اليها ، فقد أصبح للصحافة أكبر الفضل فى تقدم النثر الفنى الصحفى فى العصر الذى نعيش فيه . وان كان الفرق عظيما بين الحالتين :–

(الحالة الاولى) حين كان النثر الفنى ارستقراطيا يرى نفسه وقفا على خدمة الملوك والامراء والوزراء ، أو يوشك أن يرى نفسه وقفا عليهم دون غيرهم من أفراد المجتمع .

(والحالة الثانية) وفيها أصبح النثر الصحفى ديمقراطيا يجد نفسه وقفا على خدمة الشعب . ومن ثم أصبحت الصحافة فى عصرنا هذا سجلا لكل مايدور بيننا ، ومرآة تنعكس عليها آراؤنا وأفكارنا ، وحركاتنا وسكناتنا

وكتابا تقرأ فيه أخبارنا ، وتعرف به آثارنا .

وفى اعتقادى أن هذه الحقيقه الأخيرة فوق انها تصف لنا نشأة النثر الفنى ، وتفرق لنا تفرقة واضحة بينه وبين النثر الصحفى ، فانها ستوضح لنا بجلاء صورة الادب الحديث بموضوعاته المختلفه، وأنماطه المتباينة، كما ستثبت لنا كذلك صدق هذه الدعوى التى سنحاول البرهنة عليها فى بحثنا هذا ؛ من أوله إلى آخره ؛ وهى قولنا : (الصحافة المصرية صانعة الادب المصرى الحديث) .

.. .. ..

(وبعد) فاذا كانت « العادية » هى الصفة الغالبة على المقال الصحفى من حيث التفكير ومن حيث التعبير ، وإذا كان من أهم أغراض الجريدة — أيا كان منزعها — هو التوجيه السليم والارشاد القويم ، وإذا كانت الصحافة بهذا الاعتبار الاخير « جامعة كبرى » تهدى الشعوب والحكومات سواء السبيل . نقول إذا صح كل ذلك فان أيسر ماينجم عنـــه ان تلتفت الصحف الكبرى فى مصر وغير مصر إلى أن عليها دائما أن تستعين بالعلماء والخبراء فى كل علم من العلوم وفن من الفنون ، متى اتصل هذا الفن بحياة المجتمع ، وكان له أثر فى تقدمه وتطوره . فهؤلاء العلمــــاء والخبراء هم الذين يجدون من أوقاتهم متسعا للتفكير فى المشروعات العامه ، وهم الذين يجدون من أعمالهم وتجاربهم وخبراتهم ما يمكن أن يهتدى به فى تلك المشروعات العامة . أما الصحفيون فليس أمامهم من الوقت متسع لشىء من ذلك بحال ما .

ولكن — حين يكتب العلماء والخبراء لجريدة من الجرائد يتوخون طريقة التبسيط فى الكتابة . وبدون ذلك لايظفرون بالقارىء الذى يستطيع أن يتابع أقوالهم وأبحاثهم ، أو ينتفع بتوجيههم وارشادهم . وذلك فى ذاته هو آخر دليل نقدمه على عظم الفرق بين المقال الصحفى من ناحية ، والمقال الأدبى أو العلمى من ناحية ثانية ؟

٣
بيئة الأدب والصحافة

تطلق كلمة «الادب الحديث» على الآثار الأدبية التى اقترنت بظهور النهضة المصرية أو النهضات الشرقية. فمتى حدثت هذه النهضات؟ وما الدافع إليها؟ وماهى أهم الاتجاهات التى اتخذتها؟.

أما مصر فقد بدأت نهضتها فى أوائل القرن التاسع عشر. وهو القرن الذى شهد أحداثا هامة. منها حادث الحملة الفرنسيه التى قادها الجنرال بونابرت إلى الديار المصرية. ومنها حادث ظهور محمد على ومحاولة الاستقلال عن الدولة العثمانية وانشغاله باصلاح مصر على النظام الذى رآه فى الاستانه قبل مجيئه إليها، إلى غير ذلك من الاحداث السياسية والفكرية والاجتماعية التى ستشير هنا إلى بعضها. ومهما يكن من شىء فان اليقظة المصرية بدأت فعلا برغبة مصر فى الانفصال عن الدوله العثمانية، وشعور المصريين يومئذ بحاجتهم القصوى الى تأييد اللغه القومية، وهى اللغة العربيه. وفى سبيل هذه الأمنية جاهد المصريون نوابا، وحكاما، وأدباء وصحافيين، وعلماء ومفكرين. وانتهت المعركة بانتصار العربية التى أصبحت لغة الحكومة، والكتابه، والعلم، والصحافة. وهذا النصر العظيم هو الذى حقق للبلاد قوميتها من جهة، ودفع بها إلى الامام فى طريق النهضة الصحيحه من جهة ثانية.

الحملة الفرنسية :

نعم — كانت «الحمله الفرنسيه» نوعا من اللقاء، بين الشرق والغرب، وذلك عن طريق مصر ذات الموقع الجغرافى العظيم الشأن، وهو الموقع الذى يعينها دائما على أن تقوم بدور الوسيط الثقافى بين الأمم. لكن من الحق هنا أن يقال إن هذا اللقاء بين الشرق والغرب كان يحدث دائما على صور عدة: منها صورة الجاليات الاجنبيه التى اختارت المقام بالديار المصريه وغيرها من الاقطار العربية.

ومنها صورة البعثات التبشيريه التى استقر أكثرها فى جبل لبنان خاصة. ومنها صورة سياسية كالتى حدثت فى تاريخ (على بك الكبير) . فقد استقل هذا الأخير بمصر سنة ١٧٧٧ وفتح اليمن والحجاز ، وأصبح يلقب (بسلطان مصر وخاقان البحرين) . » وأوفد مندوبين من قبله لمفاوضة البندقة وروسيا بغية عقد محالفات تضمن مصالح الطرفين . وقد حدث كل ذلك قبل مجىء الحملة الفرنسية إلى مصر بمدة تزيد على ربع قرن »[1] وهكذا .

والحملة الفرنسيه هى التى أتت إلى مصر بالمطبعة العربيه . والكثيرون من المؤرخين ينظرون إلى هذا الحادث على أنه عظيم الأثر فى حياة مصر الثقافية. ولكن هذه الدعوى تفقد شيئا من الأهمية حين نعرف أن الحملة الفرنسيه عندما باءت بالفشل عادت إلى بلادها ومعها كل عقادها . ومن بينه المطبعة .

على أن للحملة الفرنسيه فضلا لاسبيل الى انكاره مع ذلك . وهو هذا الكتاب الضخم المشهور «بوصف مصر».وهو كتاب يقع فى تسع مجلدات، معها صوروخرائط ولوحات تقع فى أربعة عشر مجلدا أخرى .

غير أن مصر لم تنتفع بهذا الاثر العظيم إلا بعد موت العلماء الفرنسيين الذى قاموا بوضعه - لا خدمة للمصريين أنفسهم - ولكن خدمة للاستعمار الفرنسى كما نعرف .

وإذن فمبلغ القول فى الحملة الفرنسيه - من الناحية الثقافية - أنها كانت بمثابة هزة قوية شرع المصريون بعدها يعملون ويفكرون ، ويفركون أجفانهم بعد نوم طويل . ومن هذه الناحية الاخيرة حق لبعض المؤرخين المحدثين أن ينظروا إلى هذه الحمله على أنها سبب من أسباب انتشار الثقافة الفرنسية بالديار المصرية .

ذلك أن الحمله وفدت على مصر بصورة فريده من نوعها وحيدة فى بابها - صورة حرص فيها الجنرال بونابرت على أن يكون العلماء الفرنسيون جزءا من الجيش الذى أتى لمحاربة المصريين . وذلك بصرف النظر هنا عن أعمال

---

(١) آراء وأحاديث فى التاريخ والاجتماع للأستاذ ساطع المصرى ص٨١

الوحشية التى اقترفها أولئك الجند ، وهى أعمال أظهر الجبرتى اشمئزازه منها، وشدد النكير عليها (١)

ومع هذا وذاك فنحن مع القائلين بأن تأثر المصريين بالفرنسيين لم يكن سريعا كل السرعة، وبأن النهضة المصرية بدأت بشعور من جانب الأهلين بهذه الهزة التى صحبت الحملة . كما نقول عن النهضة أيضا إنها بدأت بداية صحيحة بانفصال الديار المصرية عن الدولة العثمانية، وشعورها يومئذ بمعنى جديد هو معنى (القومية). وقد غذى الأدب والعلم والصحافة فيما بعد هذا الشعور الأخير حتى بلغ غايته، وأتى ثمرته فيما بعد .

ظهور محمد على

حدثنا التاريخ أن العلماء والأعيان اجتمعوا بمصر فى هيئة مؤتمر وطنى ؛ وذلك فى الثالث عشر من شهر مايو سنة ١٨٠٥ وقرروا خلع الوالى القديم « وخورشيد باشا » وتعيين محمد على باشا واليا عليهم . وذهب وفد منهم إلى منزله ، وأبلغوه القرار ، وصاحوا جميعا بصوت واحد :

« لا نرضى الا بك، وتكون واليا علينا بشروطنا » .

ثم ألبسه السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى شارة الحكم ، ونودى به واليا على مصر .

منذ ذلك الوقت فكر محمد على فى أمر يهمه أولا ، وهو « اصلاح الجيش » . وكان هذا الاصلاح نواة لجميع الاصلاحات الأخرى فيما بعد . ومنها اصلاح التعليم ، واصلاح الزراعة ، واصلاح الصناعة ، واصلاح التجارة الخ .

والمهم أن محمد على أصبح يعتمد فى اصلاحاته كلها على الفلاح المصرى : فخلق منه الجندى ، والضابط ، والطبيب ، والمهندس ، والحاكم ، والعالم ، والصحفى ، والأديب الخ

ولا يعنينا نحن من هذه الاصلاحات غير ما يتصل بالتعليم : فقد أراد محمد على أن يظفر لنفسه بجيش مصرى قوى . ففكر فى امداده بالضباط، والمهندسين ، والأطباء ، والمدرسين والاداريين والصناع الفنيين الخ .

وأدرك الرجل يومئذ أن من العبث أن يفتقد هؤلاء وهؤلاء فى أروقة الأزهر

---

(١) الجبرتي ج ٣ ص ١٠، ٢١، ٣٠، ٣٤، ٣٥، ١٠١، ١٤٣، ١٤٦، ١٦٢، ١٦٨، ٢١٤

فاتجه تفكيره إذذاك الى إنشاء (المدارس الحديثة) وتنظيم (البعثات العلمية إلى أوربا)، والاعتماد على (حركة الترجمة)

وتلك هى الأسس الثلاثه للنهضه الثقافيه التى شملت مصر منذذلك الوقت

على أن المدارس الحديثة إنما استمدت تلاميذها أول الأمر من الازهر. فمنه أخذت مدرسة الطب معظم تلاميذ الدفعة الاولى. ومنه أوفد محمد على ثلاثة رجال فى بعثة إلى أوربا سنة ١٨٢٦. لم ينجح منهم غير فتى له شأن أى شأن؛ هو (رفاعة الطهطاوى). ومن الازهر استمدت المدارس الحديثة مدرسين للغة العربية. ومنه استمدت حركة الترجمة شيوخا لتصحيح الكتب المترجمة الخ (١)

« من أجل ذلك نعمت مصر فى أيام محمد على بنهضة علمية مباركة التقى فيها التياران الشرقى والغربى. ومن التقائهما معا نشأ الأدب المصرى الحديث والصحافة المصرية الحديثة فى القرن التاسع عشر. كان التيار الشرقى يتمثل فى العلوم النقلية، وفى تعليم اللغة العربية، وفى بعض الكتب الأدبية القديمه، من نحو مقامات الحريرى، وبديع الزمان، ودواوين الشعراء الفحول كالفرزدق وجرير والمتنبى وأبى تمام وأبى العلاء. ومن نحو ديوان الحماسة لأبى تمام الخ.

وكان التيار الأوروبى يتمثل فى ترجمة كثير من الكتب التى احتاج اليها التعليم الحديث، وقام بتصحيحها الازهريون. كما ظهر التيار الاوربى كذلك فى ترجمة بعض الكتب الادبية الاوربية الى اللغه العربية. وكانت هذه الترجمات ذات صبغة علمية فى أكثرها أيام محمد على، لحاجة المدارس الحديثة ذلك، ثم أصبحت ذات صبغة أدبية فى أكثرها أيام اسماعيل. (٢)

. . . . .

السوريون فى مصر

وفى بيان حركة التنوير التى انتفع بها المصريون فى ذلك الحين لا ينبغى للباحث المنصف أن يغفل الاشارة إلى (السوريين) الذين نزحوا الى الديار

---

(١) راجع كتاب تاريخ التعليم فى عصر محمد على: للدكتور أحمد عزت عبد الكريم ص ٥٧٨

(٢) آداب المقالة الصحفيه فى مصر ج ١ ص ٦٦ — ٦٧

المصرية ليتمتعوا فيها بحرية نسبية كانوا محرومين منها فى بلادهم الأصلية وفى مصر أعان السوريون على ظهور (الصحافة) واتخذوا منها ومن جهودهم الادبية الأخرى أداة لنشر الثقافة الاوربية التى تعلموها فى بلادهم . وكانت هذه الثقافة الاجنبية فرنسية الطابع فى أكثرها .

وان تنس مصر لا تنس لأولئك السوريين اهتمامهم فوق هذا كله بالقصة وبالمسرح ، وذلك على النحو الذى ستشير اليه عند الكلام عن (الصحافة والقصة فى مصر) .

ظهور السيد جمال الدين الافغانى

بين مارس سنة ١٨٧١ وأغسطس سنة ١٨٧٩ ظهر فى مصر فيلسوف الشرق جمال الدين الافغانى . وقضى بها ثمان سنين ، كانت من خير السنين بركة على مصر وعلى العالم الشرقى . « لا بما أفاد من جمال مظهرها وحسن رونقها وسعادة أهلها . ولكن لأنه فيها كان يدفن فى الأرض بذورا تتهيأ فى الخفاء للنماء ، وتستعد للظهور ثم الازدهار . فما أتى بعدها من تعشق للحرية ، وجهاد فى سبيلها فهذا أصلها . وإن وجدت بجانبها عوامل أخرى ساعدت عليها وزادت فى نموها »[1]

فى هذه الفترة التى قضاها جمال الدين فى مصر أنشىء صندوق الدين سنة ١٨٧٦ ، وانشىء نظام الرقابة الثنائية فى نفس السنة . وأفضت الرقابة الثنائية إلى تأليف وزارة مختلطة برياسة نوبار . وقد حفزت هذه الظروف وأشباهها همة المصريين ، وعلمتهم الاشتغال بالسياسه منذ ذلك الحين .

جاء السيد جمال الدين - وكان من طبعه الانغماس فى السياسة - فزاد المصريين اهتماما بشؤون بلادهم ، وتفكيرا فى التخلص من النفوذ الاجنبى .

وبقى الافغانى يلقى دروسه على طلبته فى الأزهر وعلى أصدقائه فى منزله ومنازل الكبراء والفضلاء فى عصره ، حتى نبغ على يديه طائفة من شباب

---

(١) زعماء الإصلاح للأستاذ أحمد أمين ص ٦٠ — ٦١

مصر كانوا أعمدة نهضتها الفكرية والسياسية فيما بعد . ومن هؤلاء على سبيل المثال : محمد عبده ، وعبد الكريم سلمان ، وسعدزغلول، وابراهيم الهلباوى وأديب اسحق ، ويعقوب بن صنوع ، وغيرهم .

قرأ السيد مع تلاميذه كتبا فى المنطق والفلسفة والتصوف والهيئة الخ . « ويظهر أن هذه الكتب لم تكن لها قيمة فى ذاتها ... إنما قيمتها فى أن كل فصل من فصولها ، أو جملة من جملها كانت تكأة يستند عليها الشيخ فى شرح أفكاره وآرائه، ونظرته إلى العالم كوحدة . فهذه الكتب التى قرأها انما قيمتها فى نفس جمال الدين . والدنيا تتلون بلون منظار الرائى . والطبيعة كلها مفتوحة أمام أعين الناس كلهم . ولكن لايفهمها الا القليل » . (١)

الحق أنه بالتقاء التيار الاوربى بالتيار الشرقى بالتيار السورى ، بالتيار الذى أتى به السيد جمال الدين الافغانى نشأ العقل المصرى الحديث،والادب المصرى الحديث .

الصحافة المصرية

ونحن نعرف أن الصحافة نشأت فى مصر على يدالحملة الفرنسية . ولكن ما يقال فى المطبعة العربية التى أتت بها الحملة الى مصر ،ثم جلت عنها بجلاء هذه الحمله يقال مثله فى الصحافة أيضا . فقد كانت هذه الصحافة فرنسية خالصه لا يقصد بها الا الفرنسيون المقيمون بمصر وحدهم . أما المصريون أنفسهم فلم يكن لهم علم بها ، ولا كانت لهم قدرة على فهمها . ولعله من أجل ذلك فكر القائد (مينو) فى إصدار صحيفة باللغة العربية ، وعهد إلى الشيخ الخشاب فى الأزهر أن يتولى تحريرها بنفسه . ولكن هذه الصحيفة بقيت جنينا فى بطن الحملة الفرنسية لم يقدر له الخروج منها .

وما إن استقر لمحمد على الامر فى مصر حتى أخذ يفكر فى انشاء (جورنال الخديو) على غرار الصحف الفرنسية التى صدرت من قبل ،ومن هذه الصحف (بريد مصر)

---

(١) المصدر المتقدم ص ٦٣ ـ ٦٤

وصحيفة العشريات Les Decades. ثم ما لبث (جورنال الخديو) أن تحول على يد محمد على إلى جريدة (الوقائع المصرية) وكان ذلك سنة ١٨٢٨ ميلاديه.

وبقيت الصحافة المصرية رسمية على هذا النحو إلى أن ظهرت الصحافة الأهلية أو الشعبية. وكانت هذه – فى أول الأمر – صورة من الصحافة الرسمية. ثم استقلت بعد شيئا فشيئا بشخصيتها. وكانت جريدة وادى النيل لعبد الله أبى السعود أولى الجرائد الشعبية ظهورا فى مصر سنة ١٨٦٦، وهى السنة التى شهدت (مجلس شورى النواب) الذى انشاه اسمعيل. وعلى هذا المجلس الأخير، وعلى الصحافة الشعبية التى شجعها اسمعيل اعتمد الرجل فى محاربة التدخل الاجنبى ومحاربة الدولة العثمانية

وتوالت بعد ذلك الصحف الأهلية المصريه، وتبع بعضها بعضا فى الظهور فكان منها على سبيل المثال:

جريدة نزهة الافكار لعثمان جلال وابراهيم المويلحى سنة ١٨٦٩

وجريدة الوطن لميخائيل عبد السيد

وجريدة الاهرام لبشاره تقلا سنة ١٨٧٥

وجريدة روضة الاخبار لمحمد انسى ابن عبد الله أبى السعود سنة ١٨٧٥

وجريدة مصر لأديب اسحق (بوحى من جمال الدين الافغانى) سنة ١٨٧٧

وجريدة التجارة لاديب اسحق وسليم النقاش فى سنة ١٨٧٨

وجريدة التنكيت والتبكيت للسيد عبد الله النديم سنة ١٨٨١

وجريدة الطائف للنديم كذلك سنة ١٨٨٢

وجريدة الاستاذ للنديم أيضا سنة ١٨٩٢

ثم ظهرت جرائد مصباح الشرق لابراهيم المويلحى، والمؤيد للسيد على يوسف، واللواء لمصطفى كامل، والجريدة لاحمد لطفى السيد، والاخبار لأمين الرافعى والبلاغ لعبد القادر حمزه الخ.

وفى أحضان الصحافة الشعبية المصرية نشأ الادب المصرى الحديث على النحو الذى ستشرحه المحاضرات القادمه بمشيئة الله تعالى

حقيقة كان هناك أدب مصرى لا يمت للصحافة بصلة. ومنه الرسائل

الاخوانية التى كانت تكتب بلغة أدبيه فيها كثير من الزينة اللفظية والمعنوية. ومنه بعض الكتب ، العلمية أو الادبية التى كتبها أمثال رفاعه الطهطاوى ، وعلى مبارك ، وعبد الله فكرى ، وحفنى ناصف ومن اليهم .

غير أن هذه الكتب الاخيره — فضلا عن قلتها إلى درجة كبيرة — كتبت بلغة قديمة ،و أساليب غريبة حتى على المثقفين أنفسهم .ومن ثم لم يكن لها من الاثر فى عقول المصريين ما يستحق الذكر . تستثنى من ذلك كتابا واحدا افقط ؛ هو (رحلة الطهطاوى الى باريس) وستأتى الاشارة اليها.

تلك بعض سمات البيئة الفكرية التى نشأ فيها الادب الحديث والصحافة المصرية.

بقى أن نضرب المثل على هذه البيئة بشيخ الادب والصحافة ، ورائدهما الحقيقى فى النصف الاول من القرن التاسع عشر ، و نعنى به رفاعه الطهطاوى. ثم نضرب المثل بشيخ الادب والصحافة وزعيمها الحقيقى فى النصف الثانى من ذلك القرن . ونعنى به السيد عبد الله النديم . ولا يتسع المجال لان نضرب أمثلة أخرى .

رفاعة الطهطاوى ١٨٠١ — ١٨٧٣

ولد رفاعه بمدينة طهطا من مدن الصعيد . وذلك فى السنة الاولى من سنى القرن التاسع عشر ، فكأن ميلاده كان إيذانا بأن هذا القرن سيشهد نهضة قوية ، هى تلك النهضه التى رفع الرجل لواءها ، وكان البطل الاول لها .

وكان من حسن حظ رفاعه أنه تلمذ فى الازهر للشيخ حسن العطار ، وكان العطار شيخا طلعة ، رأى بعينى رأسه آثار الحملة الفرنسية ، ودهش لها ، وأحس فى أعماق نفسه كأن هاتفا يقول له : لابد أن تتغير بلادنا ، ويتجدد لها من المعارف ما ليس لها . وكان الشيخ العطار كلفا بعلم الجغرافيا وعلم التاريخ . فطبع ذلك فى نفس تلميذه رفاعه . وحين طلب الى هذا التلميذ أن يكون اماما لاول بعثة علميه إلى باريس،وذلك فى ١٤ ابريل سنة ١٨٢٦ أوصاه أستاذه بتسجيل كل ما تقع عليه عينه فى تلك المدينة ، وأطاع التلميذ نصيحة أستاذه وطفق يسجل كل مشاهداته ، حتى تألف له منها الكتاب المعروف باسم

تخليص الابريز فى تلخيص باريز . أو « رحلة رفاعة » التى أشرنا اليها.

وصف الطهطاوى فى كتابه هذا المجامع العلمية الخمسة وهى : أكاديمية اللغة الفرنسية . وأكاديمية العلوم الادبية، وأكاديمية العلوم الطبيعيه والهندسيه وأكاديمية الصنائع الطريفه ، وأكاديمية الفلسفه . كما وصف فى كتابه دور الكتب والمتاحف العامه ، ومعاهد العلم ، والمعالم الهامه بالمدينة بوجه عام الخ.

وكان الطهطاوى فى أثناء وجوده بباريس حريصا على ملازمة العلماء . وكان أدناهم إلى نفسه وأعلقهم بقلبه رجلين ، هما مسيو شومار ، ومسيو شواليه . فعول عليهما ، والانتفاع الكامل بهما ، وقرأ مع الأخير منهما أكثر من ثلاثة وثلاثين كتابا فى التاريخ ، والجغرافيا ، والهندسة، والرياضة والمنطق ، والفلسفة ، والاجتماع، والأدب ، والقانون ، والفنون الحربية الخ.

وأكثر من هذا وذاك أن رأينا رفاعه الطهطاوى - وهو فى باريس - يشهد ثورة من ثورات فرنسا الهامة ، هى الثورة المعروفة فى التاريخ الفرنسى (بالايام الثلاثة المجيدة) . وفيها ثار الشعب الفرنسى على الملك (شارل العاشر) ووزيره (بولنياك). وكان هذان الرجلان ينزعان فى فرنسا - مهد الثورة - الى الملك الاستبدادى، ويهدفان من وراء ذلك الى قتل بذور الثورة الفرنسية. ولكن الشعب الفرنسى لم يمكنهما من ذلك ، بل أطاح بعرش الملك شارل وأقام مكانه الملك لويس فيليب .

ولم يفت الطهطاوى أن يصف هذه الثورة فى كتابه هذا فجاء كتابا مملوءا بالمشاهدات العجيبة ، والفوائد الجليلة ، والآراء الخطيرة : حتى « لننظر نحن إلى هذا الكتاب على أنه من خير الكتب التى كان لها أثر كبير فى تكوين العقل المصرى الحديث . بما اشتمل عليه من أفكار لا عهد للمصريين بها ، ومبادىء سياسية واجتماعية لا يعرفونها »(١)

وعاد الطهطاوى الى بلاده ليقود بنفسه (جيش الثقافة) . وكان هذا الجيش يتألف يومئذ من المترجمين، والعلماء ، والادباء ، ورجال الصحافة ، واشترك

---

(١) أدب المقاله الصحفية ج ١ ص ٥٥ - ٥٦

الطهطاوى اشتراكا فعليا ورئيسيا فى جريدتين رسميتين ، هما جريدة (الوقائع المصرية) ومجلة تدعى (روضة المدارس) . والاخيرة أشبه ما تكون بمجلة جامعية تعنى بنشر الفصول الادبية والعلمية ، يكتبها الصفوة المهدية من رجال العلوم والآداب ، وتتألف من كل مجموعة منسقة من هذه الفصول كتب يختص بعضها بالطب ، وبعضها بالهندسة ، وبعضها بالطبيعة ، وبعضها بالتاريخ وبعضها بالعقائد ، وبعضها بالآثار وهكذا . ويطول بنا القول لو أردنا أن نصف جهد الطهطاوى فى النواحى الثلاث : بوصفه أول رائد للنهضة الحديثة ، أول رائد للترجمة ، وأول رائد للصحافة .

. . . .

السيد عبد الله النديم ١٨٤٣ - ١٨٩٣

هو ابن نجار أو خباز اسمه (مصباح) قيل أن نسبه ينتهى إلى ادريس الأكبر من أسباط الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنه . ولد بالاسكندريه وأتم حفظ القرآن فى التاسعة من عمره . ثم ذهب به أبوه الى جامع ابراهيم باشا حيث درس الفقه والأصول والمنطق . ولكن الفتى لم يصبر طويلا على هذه الدراسة حتى خرج من الجامع الى الشارع — أو الى الحياة الواقعة التى كانت له بمثابة الجامعة الكبرى . تعلم فيها كثيرا ولاحظ فيها كثيرا ، ودرس فيها كثيرا ، وعرف فيها الناس والاشياء معرفة هيأته لأن تبوأ المكانة التى ادخرها له القدر ، وهى مكانة الصدارة فى الصحافة والأدب

وحياة هذا الرجل أوسع من أن تختصر فى صفحات ، لانها حياة بنيت على المغامرات والمجازفات والمفاجآت ، وما زال الرجل فى تقلباته ومغامراته حتى أصبح يوما فاذا به الناس فى الاسكندريه — مسقط رأسه — لا يشتغلون بالاسمار والعبث الذى كانوا يشتغلون به قبل ذلك . بل أصبحوا يتحدثون يومئذ فى أمور كثيرة ، هى أدنى الى الجد منها إلى اللهو . . فهم يتحدثون فى الشورى ، وصندوق الدين ، والمراقبة الثنائية ، والوزارة المختلطه ، ثم فى الظلم ، وفى الجهل وفى الذل والاستعباد والتدخل الاجنبى ، والسيطرة الاوروبية الخ .

رأى النديم ذلك فترك اللهو والدعابة، وانغمس فيما انغمس فيه القوم من شؤون الجد والسياسة . وكان أول مافعله من ذلك أن اشترك — وهو بالاسكندرية — مع أديب اسحق وسليم النقاش فى صحيفتى « المحروسة » و « العصر الجديد » اللتين صرحت بهما نظارة الداخلية للأخير

وأكثر من هذا وذلك أننا وجدنا النديم يشترك فى جماعة سرية ، هى جماعة « مصر الفتاة » كان من أعضائها أديب اسحق وسليم النقاش . وكانت لها صحيفة باسمها يقوم بتحريرها أديب اسحق ومعه النديم .

وأصدرت هذه الجماعة السرية بياناً باسم «اتحاد الشبيبة المصرية» شكت فيه من فساد نظام القضاء ، ومن قصور التعليم العام . وطالب البيان بسن قانون ينظم العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، وبالعمل على إيجاد ما يسمى بالمسئوليه الوزارية، وبعدم التعدى على الحريات الخاصة والعامه ، ومنها حرية الصحافة. كما طالب البيان بانشاء مجلس نواب يكون كل أعضائه بالانتخاب. والظاهر أن عددا كبيراً من جماعة مصر الفتاة انضموا بعد ذلك إلى الحزب الوطنى. وكان أعضاء هذا الحزب فى الأصل يكونون جماعة سرية أخرى ، قوامها (الفلاحون الضباط) ممن لهم علاقة بالأمير حليم ، وذلك حول سنة ١٨٧٩ وكان من بينهم أحمد عرابى ، وعبد العال ، وعلى فهمى[١]

والمهم أن النديم استطاع فيمابعد أن يخرج (مصر الفتاة) من السر إلى العلانية وأن يطلق على هذه الجمعية السرية اسم « الجمعيه الخيرية الاسلامية . وهى غير الجمعية الخيرية المعروفة الآن فى مصر بهذا الاسم . وأعلن النديم يومئذ أن الغرض من إنشاء هذه الجمعية انما هو انشاء مدرسة لتعليم الفقراء بالمجان، وأن من أغراضها كذلك بث الروح الوطنية فى البلاد .

وما زال النديم يعمل فى ميدان التعليم حتى تركه إلى ميدان الصحافة مرة أخرى فاصدر مجلته « التنكيت والتبكيت » ، وهى المجلة التى تحولت فى أثناء

(1) Landou : The pasllamento and partieo in Eghpt p, 89

الثورة العرابية إلى « مجلة الطائف » .

ومنيت الثورة العرابية بالفشل ، وفر النديم من مصر ، وظل مختفيا عنها إلى أن أتى الخديو عباس وأصدر العفو عنه . فعاد النديم إلى بلاده وأصدر صحيفته الثالثة « الاستاذ » . فكانت صورة جديدة من صحيفته الأولى « التنكيت والتبكيت » .

عنى النديم فى صحيفته الأولى بالاصلاح الخلقى والاجتماعى ، وفى الثانية بالثورة العرابية . وعاد فى الثالثه إلى الاصلاح الاجتماعى . واهتم إلى جانب ذلك بالسياسة ومقاومة الاحتلال .

وكان النديم قبل أن يزج بنفسه فى مضمار الصحافة يكتب باللغة القديمة المعروفة . وهى لغة جل اعتمادها على السجع والجناس والطباق والاستعاره ، والتضمين والاقتباس ومراعاة النظير ونحو ذلك . ثم منذ اشتغل بالصحافة عدل عن هذا الاسلوب ، وكتب بأسلوب آخر ، هو أدنى الى الحديث أو الخطابة . ولم يكتف بذلك حتى أخذ يكتب باللغة العامية التى يتكلمها الناس فى المدن والقرى .

ونحن حين نراجع العدد الأول من أعداد مجلة « التنكيت والتبكيت » على سبيل المثال نرى الالوان الصحفية الآتيه :

نرى مقالا بعنوان « مجلس طبى على مصاب بالافرنجى » (١)

دخل به النديم فى صميم المسألة المصرية ، وهى مسأله الديون التى تكبدها اسماعيل . وعبر بلفظ « الافرنجى » — وهو اسم لمرض الزهرى — عن الخراب الذى حل بالمصريين بسبب الديون .

وكان هذا المقال موجها الى الخاصة من القراء ، ومكتوبا باللغة العربية التى تفهمها هذه الطبقة الممتازة من الناس .

ثم يرى القارىء فى هذا العدد حكاية صغيرة مكتوبة باللغة العامية عنوانها « عربى تفرنج » ، وأخرى مثلها عنوانها « سهرة الانطاع » ، وثالثه بعنوان « تخريفة الجنون فنون » ، ورابعة بعنوان « محتاج جاهل فى يد محتال طامع » . وكل هذه الحكايات موجهة الى العامة . والقصد منها هو تنبيه الاذهان

---

(١) سلامة النديم ج١ ص٧٩

إلى تلك العيوب التي تفشت في الريف المصري بسبب انتشار الجهل بين أهله .

والمقال أو الحكاية في جريدة النديم هذه تنقسم قسمين : قسم « للتنكيت » بمعنى السخرية من هذه العيوب، وقسم « التبكيت » بمعنى التوبيخ الذي توجه به النديم إلى المصريين الذين يوصفون بهذه العيوب .

ولن تتسع هذه المحاضرة لا يراد النماذج الكاملة من صحافة النديم بنوعيها الفصيح والعامي ، أو الجاد والهازل فليرجع اليها من أراد (١) .

ولا تستطيع أن تترك هذا المجال دون أن نشير هنا إلى فكرتين هامتين كان لهما تأثير هام في البيئة الأدبية والصحافية أما أولاهما فكرة :

الجامعة الإسلامية

وهي لفظ أطلقه الأوربيون في صحفهم ومؤلفاتهم على نهضة المسلمين في مشارق الارض ومغاربها قصد إعادة المجد القديم للدول الاسلامية من جهة ، والتخلص من الاستعمار الاوربي في ذاته من جهة ثانية .

والحقيقة أن فكرة التكتل الاسلامي كانت بعيدة عن أذهان المسلمين عامة والمصريين منهم خاصه ، ولم يكونوا مؤمنين بتحقيقها ، ولا أنسوا من أنفسهم القدرة على تحقيقها . ومع هذا فقد وجدنا الانجليز من دون الاوروبيين جميعاً يظهرون تخوفهم على لسان كرومر من هذا التكتل الذي صرحت الصحف المصرية مرارا - باستحالته ، وبأن الحروب الصليبية - كما قال السيد علي يوسف في المؤيد - قد انتهت الى الأبد .

« فالجامعة الاسلاميه إذن ليست في الواقع الا شعورا عاما لدى المسلمين جميعا بالظلم ، وشكايات متكررة من وقع هذا الظلم ، ورغبة عامه في النهوض

(١) سلامة النديم بجزأيه • وأدب المقاله الصحفية في مصر ج ٢ ص ١٤١ - ١٦١ و ١٧٥ - ٢٠٥

بالامم الاسلاميه للتخلص من آثار الظلم إلى الأبد [١]

ولذا فكر المسلمون حقيقة فى أن تكون لهم رابطة روحيه تربط بينهم ، وأن يكون لهذه الرابطه الاسلاميه قيادة عامه تقودهم . ومن أولى يومئذ من الدولة العليه بهذه القيادة العليا ؟

ولكن الدولة العليه فى ذاتها علة العلل فى نظر الأوروبيين ، وحائل كبير دون الاغراض الاستعمارية التى لهم فى الأمم الشرقية . ومن هنا جاءت عداوة الدول القوية للدولة العلية . وكان من سوء الحظ أن هذه الدوله أصبحت من الضعف بحيث أطمعت فيها جميع الدول الاوربية . ومن هنا ظهر فى الافق السياسى ما يسمى « بالمسأله الشرقية » ، وأصبحت هذه المسألة جزءا من فكرة الجامعة الاسلامية .

وكتب الزعيم الشاب مصطفى كامل كتابا فى هذه المسألة ، وشرحها من وجهة نظره شرحا وافيا ثم قال .

« فواجب المسلمين أن يلتفوا جميعاً حول راية الخلافه الاسلاميه المقدسة ، وأن يعززوها بالأموال والأرواح . ففى حفظها حفظ كرامتهم وشرفهم . وفى بقاء مجدها رفعتهم ورفعة العقيدة الاسلامية ذاتها » [٢]

ذلك أذن هو السر فى أن مصر بقيت طيلة القرن التاسع عشر عثمانية النزعة بهذا المعنى . وبهذه النزعة تأثر الأدب المصرى والصحافة المصرية . فقد آمن بها الشعراء المصريون من لدن ابى النصر ، وعبدالله فكرى ، إلى اسماعيل صبرى وحافظ ابراهيم واحمد نسيم واحمد شوقى . كما آمن بها الكتاب من لدن أديب اسحق وعبد الله النديم ومحمد عبده ، إلى السيد توفيق البكرى والسيد على يوسف ومصطفى كامل وجورجى زيدان . وفى هذا المعنى نفسه كتبت صحف مصر والتجاره والمحروسة والعصر الجديد والاستاذ ومصباح الشرق والمؤيد واللواء والاهرام .

أما فى غير مصر من الاقطار العربية فقد آمن بهذه الفكره كثيرون ومنهم

---

(١) أدب المقالة الصحفية فى مصر ج ٥ ص ٣٠

(٢) كتاب (المسألة الشرقية) لمصطفى كامل ص ٣٠

فرح أنطون فى مجلة الجـــامعة العثمانية ، وفارس الشدياق والشيخ ناصيف اليازجى وعبدالحميد الرافعى فى جرائداخرى .

القومية المصرية

بقيت الفكرة السابقة مسيطرة على العالم الاسلامى عامه ، ومصر خاصه حتى ظهرت فى الميدان فكرة اخرى دعت اليها ضرورات سياسية قصوى . وهذه الفكره الاخيرة هى فكرة (القومية المصرية) . وكان من اعظم القائلين بها ، وأخطر الداعين لها « احمد لطفى السيد » محرر « الجريدة »

« فكر الاستاذ لطفى السيد طويلا فى أوضاع مصر السياسية وخرج من تفكيره هذا بعقيدة جديدة تخالف عقيدة الزعيم الشاب مصطفى كامل . وخلاصتها : أن علينا نحن المصريين أن نترك فرنسا وانجلتره والدولة العلية ، وعلينا أن نعتمد على أنفسنا فقط فى الحصول على حقنا فى الدستور ، وحقنا فى الحرية ... لابد لنا من ذلك ومن عزه ترابا بنا أن نطلب من غيرنا أن يأتى ليحرر نفوسنا من الرق ، وقلوبنا من عبادة القوى . كأننا كما ظنوا خطأ بنا ـــ نبتغى أن يأتينا الاستقلال ونحن نيام »

وسرت هذه الفكرة فى نفوس المصريين ، واقتنع بها الكثيرون منهم . وتجاوز تأثيرها الميدان السياسى الى الميدان الفكرى والأدبى والاجتماعى . فمنذ ذلك الحين طفق كثيرون من المصريين يعتزون « بمصريتهم » . وغالى بعضهم فى ذلك إلى درجة الفخر « بفرعونيتهم » الى جانب الفخر « بعروبتهم » . وشجعهم على ذلك ما كشف عنه التاريخ المصرى القديم من حضارة قدماء المصريين فى وقت كانت فيه مصر القديمة محط انظار العالم المتمدن .

وفى الأدب بنوع خاص سنرى كيف كان الشعراء والكتاب يدعون إلى هذه الفكرة ، ويكتبون أحيانا بلغة ، مصريتها أكثر من عربيتها . كما كان الحال عند لطفى السيد ومحمد حسين هيكل وغيرهما .

٤

القصة المصرية فى ظل الصحافة

لعلكم تعرفون أن اتصال المصريين والشرقيين بالقصة — بمعناها الصحيح — كان عن طريق الصحافة . والثابت فى تاريخ الصحافة أن القصة التي اتصل بها الشرق العربى كانت فى أول أمرها مترجمه لا مؤلفة . وأما القصه المؤلفة فقد تأخرت عن أختها فى الظهور . وحين ظهرت هذه الى الوجود لم تأخذ مكان القصة المترجمة فى الصحف . فبقيتا معا تشغلان حيزا لا يستهان به فى أكثرها .

فهذا هو (عبد الله أبو السعود) صاحب جريدة (وادى النيل) يقوم بترجمة المسرحية المشهورة باسم (عايده) وذلك فى عام ١٨٦١ وهو يومئذ أستاذ للتاريخ بدار العلوم . والأصل فى هذه المسرحية أنها ايطالية . ثم ترجمت الى الفرنسية . وعلى يد أبى السعود نقلت الى اللغة العربية (١)

ثم هذا هو ابنه (محمد انسى) صاحب (روضة الأخبار) يعنى عناية خاصة بالقصة المترجمة عن الفرنسية. ولعل أول قصة قدمها الى قرائه يومئذ هى القصة التى كتبها الاديب الفرنسى المعروف باسم (لوساج) Le Sage . وعنوانها (جول بلاز) Jules Blâs وهو اسم لبطل من أبطال هذه القصة (٢)

ثم هذا هو (محمد عثمان جلال) صاحب (نزهة الأفكار) يقوم بترجمة القصة المشهورة فى الأدب الفرنسى باسم (بول وفرجينى) . غير أنه عبث عبثا كبيرا بهذا العنوان ، وجعله هكذا (الأمانى والمنه فى حديث قبول وورد جنة) .

ثم هذا هو أديب اسحق صاحب جريدة (مصر) وجريدة (التجاره) يترجم الى العربية رواية (أندروماك) ورواية (شارلمان) وروايات أخرى .

---

(١) المسرحية فى شعر لحامد شوكت ص ٢٠

٢) أدب المقاله الصحفية فى مصر ج ١ ص ٢٠١

ومنذ ذلك الحين أصبح للقصص المترجمة جزء معلوم فى كل جريدة من الجرائد المصرية . ومازالت هذه السنة متبعة فى بعض الصحف الى عهد قريب ،

ولئن كان هذا صحيحا بالقياس إلى الصحافة المصريه ، فإنه اكبر صحة وأصدق قيلا بالقياس الى الصحافه اللبنانية . ولا غرابة فى هذا فان لبنان لم يحدث بها من الحوادث التى شغلت العقول والاذهان مثلما حدث فى مصر. وصدق من قال أن الرواية نشأت فى انجلتره على هذا المقعد المريح إلى جانب اليوم حيث يقضى الرجل والمرأة وأولادهما ومن يتصل بهما جزءا طويلا من يومهم لا يجد كل منهم ما يتسلى به غير قراءة القصة القصيرة أو الطويلة .

وإن الباحث ليعجب لهذا السيل الجارف من المجلات والصحف اللبنانية التى عنيت بالقصص المترجمة من اللغات الاوروبية الى العربية وتستطيع ان تحصى من هذه المجلات عددا لا يقل من اثنتى عشرة مجلة . منها على سبيل المثال :—

(حديقة الأخبار) لخليل الخورى (بيروت ١٨٥٨)

و (البشير) للآباء اليسوعيين (بيروت ١٨٧٠)

و (النحلة) للويس صابونجى (بيروت ١٨٧٠)

و (لسان الحال) لخليل سركيس (بيروت ١٨٧٧)

و (جريدة لبنان) لابراهيم الأسود (بيروت ١٨٩١)

وهذا كله عدا الأهرام . مصر ١٨٧٦ وغيرها كثير [١]

وثم مجلات ودوريات زادت عنايتها بالقصة الى أبعد من هذا الحد الذى بلغته الصحف السابقة . ومنها على سبيل المثال :

(مجلة الجنان لبطرس البستانى و (المقتطف) ليعقوب صروف ، و (اللطائف) لشاهين مكاريوس ، و (الهلال) لجورجى زيدان (والمشرق) للآباء اليسوعين الخ

ثم لم يقف الأمر بالصحف اللبنانية عند هذا الحد، حتى ظهرت مجلات

---

(١) محمد يوسف نجم : القصة فى الأدب الحديث ص ٦٥

وقفت نفسها على القصة وحدها من دون الفنون الأدبيه أو الصحفية الاخرى. ولم تشغل نفسها بشيء غير ذلك . وعدد هذا النوع الأخير من المجلات يربو على خمس عشرة مجلة . منها على سبيل المثال :

(ديوان الفكاهة) لسليم شحاذه وسليم طراد (بيروت ١٨٨٥)

(والنفائس) لأنيس عيد الخورى (بيروت ١٩١٠)

(ومنتخبات الروايات) لاسكندر كركور (القاهره ١٨٩٤)

(وسلسلة الروايات) لمحمد خضر وبشير الحلبى (القاهرة ١٨٩٩)

(والروايات الشهرية) ليعقوب الجمال (القاهرة ١٩٠٢)

(ومسامرات النديم) لابراهيم رمزى وعزت حلمى (القاهرة ١٩٠٣)

(ومسامرات الشعب) لخليل صادق (القاهرة ١٩٠٥)

(والفكاهات المصرية) لعبد الله غزالة الحلبى (القاهرة ١٩٠٨)

(والراوى) لطانيوس عبده (بيروت ١٩٠٩)

(والروايات الجديدة) لنقولا رزق الله (القاهرة ١٩١٠)

(والسمير) لقيصر الشميل (الاسكندرية ١٩١١)

(والروايات الكبرى) لمراد الحسينى (القاهرة ١٩١٤) الخ

، هكذا ساعدت الصحافه اللبنانية على نشر القصة بين قراء العربية.(١) وهذا كله بالقياس الى القصص المترجمة

* * *

أما القصص غير المترجمة فان نظرة واحدة ترينا أنها قد اتجهت منذ أول الأول اتجاها اجتماعيا خالصا . فما الذى وجه القصاص المصريين واللبنانيين هذا الاتجاه ؟ وما الدور الذى لعبته الصحافة المصرية — بنوع خاص — فى توجيه الكتاب الشرقيين نحو هذا الاتجاه ؟ .

---

(١) المصدر المتقدم ص ٦٩ — ومن أراد أن يعرف القصص التى نشرت ترجماتها بالصحف المذكورة فيرجع إلى المصدر المذكور ص ٧٠ — ٨٨

وبعبارة أخرى – هل كانت القصه الاجتماعيه فى مصر – على وجه أخص – حدثا أدبيا أو صحفيا مفاجئا ؟ أو كانت هذه القصة الاجتماعية امرا له مقدمات حتمت على القصة المصرية أن تكون ذات صيغة اجتماعية فى أول الأمر .

هذه أسئله نريد الاجابه عنها فى هذا الفصل . ولعلنا أن نصل من هذه الاجابة الى القول بهذه النتيجه الهامة ، وهى أن القصة العربيه فى أدبنا الحديث إنما نشأت أولا فى أحضان الصحافه . ثم مضى عليها وقت غير قصير حتى شبت هذه القصة نفسها عن الطوق ، وظهرت مستقلة عن الصحافة

* * *

منذ ظهرت الجرائد الشعبيه فى مصر وهى منبر عام لرجال الاصلاح من أمثال محمد عبده وعبد الله النديم والمويلحى الكبير والمويلحى الصغير ، والسيد على يوسف ولطفى السيد ، ومصطفى كامل ومن إليهم . وقد سعى كل واحد من هؤلاء أن يضع يده على الداء ، أو على طائفة الأدواء التى كان يشكو منها المجتمع المصرى إذذاك ، حتى أصبح « الاصلاح » حديث العام والخاص . بل أصبح « الاصلاح » مادة من أهم مواد الصحيفة التى ترجو لنفسها البقاء .

عاب المصلحون على مواطنيهم فى الصحف المصرية أمورا شتى : منها تهافتهم على محاكاة الاوروبيين فيما لا يتفق والعادات الشرقية والتقاليد الدينية . ومنها ميلهم الى تصديق البدع والخرافات مما أتلف دينهم ، وران على قلوبهم ، وجعل على أبصارهم غشاوة .

ومنها سكوت بعضهم عن التدخل الأجنبى الذى استفحل شره فى بلادهم ، وكاد يفقدهم قوميتهم وشخصيتهم ، كما افقدهم حريتهم واستقلالهم ، ومنها البؤس الاقتصادى الذى قسم البلاد قسمين أو طبقتين متباعدتين : طبقة الفقراء الذين لا حظ لهم من مال أو ثروة ، وطبقة الأغنياء الذين لهم كل المال والثروة . ومنها الجهل الذى حرم سواد الامة العلم ، وكان من أيسر مظاهره أن بقيت المرأة المصرية حبيسة دارها ، مقهورة على أمرها ،

لا تعرف من شأن الحياة الاجتماعيه خارج الدار أكثر مما يعرفه الصبى
عاب المصلحون على المصريين كل ذلك . وعابوا عليهم أكثر من ذلك.
وصوروا لهم الحكومه المصريه عاجزة كل العجز عن إصلاح القضاء ،
والتعليم ، والأمن ، والصحة . كما صوروا لهم حالة الموظف المصرى وقد
استبد بقلبه اليأس ، وغلب عليه الشعور بالذل ، ومد يده الى الرشوة لصغر
راتبه الشهرى ، وبنى حياته على (المحسوبية) لأنها الطريق الوحيد الى الترقى!
وجاءت كتابات النديم ، ومحمد عبده ، وبشارة تقلا ، وعلى يوسف ،
ومصطفى كامل ، ولطفى السيد وغيرهم مشخصة هذا الداء القاتل، منادية بطلب
الاصلاح العاجل ، مرغبة جميع المصريين فى الأخذ بأسباب التقدم الصحيح
حتى لاتبقى مصر متخلفه عن الدول الأخرى !

ثم إن الكتاب الكبار ممن أشرنا إليهم أفادوا من نقد الأجانب للمصريين
فى كتبهم التى كتبوها عن مصر ، كما أفادوا من تقارير الوكالة البريطانية التى
اعتادت أن تكتبها عن المصريين كل سنة . ونظر الصحفيون إلى هذه الأقوال
والتقارير نظرة عاقل حكيم على أنها مرآة لأخلاقنا ، ومجتمعنا ، وعقولنا .
« وكثيرا ما تعرف الشعوب نقائصها على يد أعدائها » كما قال ذلك صاحب
الأهرام فى مقال له . (١)

وعلى هذا فاذا كنا نبحث عن المقدمات الأدبية والتاريخية لظهور القصة
المصرية بهذه الصبغة الاجتماعية فلا مفر لنا من القول بأن :
(أولى المقدمات) هى ظهور الصحافة المصريه . فقد كانت هذه الصحافة فى ذاتها
نشاطا فكريا سبق القصه المصرية . وهذا هو السبب فى أن القصص المصرى
اتجه فى أول أمره اتجاها اجتماعيا ـ كما قلنا . ولعل أول دليل يمكن أن نسوقه
على ذلك هو ظهور القصة المعروفة فى الأدب المصرى « بحديث عيسى بن
هشام » للمويلحى . وهى قصة بالمعنى الصحيح الذى اتفق عليه النقاد
ومن اجل هذا سنتحدث طويلا عنها ـ ولكن بعد الفراغ من الحديث عن

(١) صحيفة الأهرام بتاريخ ٤ ديسمبر سنة ١٨٩٧

المقدمات التى سبقتها .

(والثانيه من هذه المقدمات) هى جهود الكتاب الأدباء من غير المنقطعين للصحافة، رغبة منهم فى أشعار المصريين بتلك العيوب ، وبثا لروح الاستياء والكراهية لها ، وخلقا الرغبة الصادقة فى التخاص منها فى أقرب وقت مستطاع .

ومن هؤلاء الكتاب الادباء على سبيل المثال : محمد فريد وجدى . وذلك فى كتابه « تطبيق الديانة الاسلامية على النواميس المدنية » . وهو الكتاب الذى أعيد طبعه فيما بعد بعنوان « المدنية الاسلامية » . وفيه يتحدث الكاتب عن فكرة الاوربيين عن الاسلام ، ويقيم الدليل على خطأ هذه الفكرة ، لأنهم بنوها على علمهم بالبدع والخرافات التى حملت حملا على الاسلام ، وجهلهم بالاسلام نفسه على حقيقته .

وهكذا جاء هذا الجهد من جانب الأدباء غير الصحفيين فى سبيل الدفاع عن الدين مؤيدا للجهد الذى بذله الصحفيون فى سبيل هذه الغاية أيضا .

ثم ومن الكتاب الأدباء « قاسم أمين » وقد لفت اليه انظار المصريين بكتاب له عنوانه (المصريون) رد فيه على (دوق داركور) الذى تعرض لذم الدين الاسلامى .

ثم عاد قاسم أمين فلفت اليه انظار المصريين بكتابه العظيم الذى دافع فيه عن المرأة المصرية ، وعنوانه « تحرير المرأة » وأحدث الكتابه ضجة كبيرة فى مصر ، وانقسم المصريون بسببه شيعا فى ذلك الوقت .

(وأما ثالثة المقدمات) التى مهدت لظهور القصة الاجتماعية فهى ظهور طبقة المترجمين إلى جانب الأدباء والصحفيين ومن هؤلاء على سبيل التمثيل (أحمد فتحى زغلول) — وقد ترجم كتابا مشهورا للكاتب الفرنسى (ادمون ديمولاند) بعنوان : « بم تقوم أفضلية الانجليز السكسونيين » ترجمه فتحى زغلول عام ١٨٩٩ أعنى فى نفس السنة التى نشر فيها كتاب قاسم أمين ونشر فتحى زغلول ترجمته فصولا وعلى هيئة مقالات جاءت تباعاً فى صحيفة المؤيد ، وذلك على نحو ما نشر

قاسم أمين كتابه (تحرير المرأة).

ونظر المصريون إلى الكتاب الذى ترجمه فتحى زغلول على أنه يمسهم، ويصور حالهم، ويصف دائهم. وقد جعل المترجم عنوان الكتاب الذى ترجمه هكذا «سر تقدم الانجليز السكسونيين». وكتب فتحى زغلول لهذه الترجمة مقدمه كانت أشهر من الكتاب نفسه، واعظم منه تأثيرا فى نفوس المصريين خاصة. جاء فيها قوله:

«نحن ضعاف أمام الغرب: ضعاف فى الزراعة، ضعاف فى الصناعة، ضعاف فى التجاره، ضعاف فى العلم، ضعاف فى العزيمة، ضعاف فى الألفه والمودة، ضعاف فى النخوة والشعور الملى (يريد الدينى)، ضعاف فى الجامعة القومية، ضعاف فى الخيرات، ضعاف فى طلب الحقوق وأداء الواجبات، ضعاف فى حفظ ما ترك الأباء، ضعاف فى التحصيل، ضعاف حتى أصبحنا نرجو كل شىء من الحكومة» الخ

ثم ختم كلامه بقوله:

ودواؤنا فى التربية، وسلامتنا فى نشر العلوم والمعارف.

وهكذا كانت الترجمة طريقا من الطرق المؤدية إلى ظهور القصة التى تعنى عناية خاصة بالمجتمع.

(ورابعة المقدمات) التى أدت الى ظهور القصة الاجتماعية هى التقارير التى صدرت عن الوكاله البريطانيه. ونخص بالذكر منها تقارير اللورد كرومر – ذلك الرجل الذى عاش فى مصر وحكمها حكما فعليا زهاء خمس وعشرين سنه استطاع فى أثنائها أن يدرس المجتمع المصرى من جميع الوجوه، وان يضع يده على الدمل الذى يشكو منه المصريون على اختلافهم – وهذا الدمل هو الجهل. وعلى الرغم مما اشتملت عليه هذه التقارير من التهم البعيدة عن العدل، والمنافية للحق، وعلى الرغم من التعصب السياسى والتعصب الدينى الذى بدا من جانب اللورد فى كل وقت، فان هذه التقارير حركت همم المصريين، وحفزتهم الى العمل

على دحض هذه التهم بطريق الكتب حينا — كما يفعل الأدباء المؤلفون ، أو طريق المقالات الصحفيه أحيانا — كما فعل كتاب الصحف .

* * * *

تلك إذن هى المقدمات الأربع التى سبقت ظهور القصه المصـرية ، ورسمت لها الطريق الذى سارت فيه ، والصبغة التى اصطبغت بها ، وهى الصبغة الاجتماعية .

وتريد قبل أن تعرض (لحديث عيسى بن هشام) للمويلحى — وهى أولى القصص المصرية الاجتماعية — أن نسوق دليلا على اتجاه التأليف فى مصر فى ذلك الوقت ناحية العناية بالمجتمع . وهذا الدليل الجديد هو كتاب لفت انظارنا اليه المستشرق الفرنسى (هنرى بيريس)[1] وعنوان الكتاب هو « حاضر المصريين وسر تأخرهم » . ألفه أديب مصرى يقال له « محمد عمر » . وظاهر من عنوان كتابه هذا أنه مطابق كل المطابقة لعنوان الكتاب الذى أشرنا اليه من قبل ، وهو « سر تقدم الانجليز السكسونيين » وذلك الكتاب الذى ترجمه احمد فتحى زغلول — كما قلنا . والذى لاشك فيه أن (محمد عمر) قرأ الكتاب الأخير قراءة جيدة ، وأنه كان يفكر فيه تفكيراً جيدا ، وذلك عندما شرع يؤلف كتابه هذا .

وقد ظهر كتاب « حاضر المصريين وسر تأخرهم » عام ١٩٠٢ فى نحو ثلثمائة صفحه ، صور فيها الكاتب وجوه الضعف الذى يشكو منه المجتمع المصرى . والعجيب أن الذى كتب مقدمة الكتاب هو ذلك الأديب المشهور والعالم القانونى الكبير احمد فتحى زغلول .

والقارىء للكتاب الذى الفه محمـــد عمر يرى أنه عمد فيه إلى تقسيم المجتمع المصرى إلى طبقات ثلاث : الطبقة الغنية ، والطبقة المتوسطة ، والطبقة الفقيرة وذهب إلى أن لكل واحدة منها عيوبا تختص بها . وطفق يذكر ما يراه علاجا حاسما لكل عيب منها على حدة .

---

(١) مقال كتبه المستشرق هنرى بيريس بالمجلد الحادى عشر من مجلة المكشوف العدد ٣٩٢ سنة ١٩٤٥

ولقد جاء الجهد الذى بذله أمثال الأديب المصرى (محمد عمر) فى سبيل الاصلاح الاجتماعى مؤيدا للجهد الذى بذلته الصحف فى هذا المضمار . ولنضرب على هذا مثلا واحدا ، هو موضوع (القمار) الذى فشا فى المصريين إلى درجة أنذرتهم بالخطر الحقيق .

أما محمد عمر وأمثاله من المؤلفين الأدباء فقد ألفوا فى ذلك الكتب وزودوها باحصاءات دقيقة لدور اللعب والقمار بالمدن الكبيرة ، حتى إنه « فى القاهرة وحدها زاد عدد هذه الدور فى ثمان سنوات فقط إلى ٧٤٧٥ داراً للعب، وكانت قبل ذلك ٢١٦ دارا فقط . أى أن الزيادة بلغت ٥١٦٩ داراً بالقاهرة »(١)

وأما جريدة المؤيد فقد أزعجتها هذه الظاهرة فانبرت لمحاربة هذه العادة السيئة ، ونظم السيد على يوسف ضدها حملة موفقة أشرك فيها أكبر عدد ممكن من الشعب المصرى بطريقة صحفية ناجحة ؟ (٢)

---

(١) نفس المصدر المتقدم

(٢) وتفصيل ذلك أن جريدة المؤيد عمدت الى طبع خطاب خاص بالجريدة يمكن للقارئ أن ينزعه منها ويملأ البيانات المكتوبة بهذا الخطاب وتوقع عليه باسمه ، ويبعث به الى الجريدة المؤيد أو الى نظارة الداخلية . ومضت المؤيد تنشر هذ الخطاب أياما عدة . وتوالت الردود عليها وعلى نظارة الداخلية ، وكثرت الأصوات المطالبة باغلاق دور القمار فاضطرت . الحكومة الى السعى حثيثا فى ذلك .

٥

طلائع القصص المصرى الحديث وصلته بالصحافة

تحدثنا اليكم فيما مضى عن المقدمات الادبية لظهور القصة المصريه . وانتهينا من هذا الحديث الى أن القصة المصرية بتأثير الصحافة الوطنية لم يكن بد لها من أن تصطبغ بالصبغة الاجتماعية . واليكم أمثلة ثلاثة على ذلك .

الاول (حديث عيسى بن هشام) لمحمد المويلحى : والثانى قصة (زينب) لمحمد حسين هيكل . والثالث كتاب (ليالى سطيح) للشـاعر الاجتماعى الكبير حافظ ابراهيم .

حديث عيسى بن هشام

فى ذلك الجو المشبع بروح الاصلاح ، وفى تلك الغمرة التى عمت الكتاب والأدباء والصحفيين من دعاة هـذا الاصلاح ظهر فى الميدان أديب ممتاز هو « ابرهيم المويلحى » . وطلع على الناس بجريدته المعروفة (مصباح الشرق) ومعه ابنه (محمد) المعروف (بالمويلحى الصغير) يعاونه فى التحرير ، ويكتب بين آن وآخر فصولا من روايته المشهـورة (حديث عيسى بن هشام) » أو (فترة من الزمن) .

وسننظر فى هذه القصة التى كتبها محمد المويلحى لنعرف كيف عالجت هذه القصة مشكلات المجتمع المصرى الحديث ، ونفهم الطريقة التى سلكها المؤلف فى سبيل غايته هذه . والى أى حد وفق فيها ؟

فى حديث عيسى بن هشام بطلان رئيسيان هما الباشا وعيسى بن هشام الذى هو الكاتب نفسه . وتعتبر الصفحات الاربع الأولى من الكتاب مدخلا لهذه القصه : وأما اللغة التى كتبت بها هـذه الصفحات فهى صدى للذوق الأدبى العام لتلك الفترة التى ظهرت فيها القصة . ومن

---

(١) ظهرت هذه الجريدة فى ١٤ ابريل سنة ١٨٩٨

ثم كتبها المويلحى بأسلوب عال. زانته الأشعار والاستعارات ، والاسجاع والمقابلات ، وغير ذلك من الوان الزينة اللفظية والمعنوية . ولكن لندع الاسلوب الذى كتبت به القصه جانبا لنوجز على عجل أهم حوادثها :
رأى عيسى بن هشام فى المنام كأنه يتنزه فى ليلة مقمرة عند مقبرة الامام الشافعى. وفيما هو يتنقل بين القبور ، ويتأمل فى هذا المصير ، ويسبح بخياله فى تلك الآفاق التى سبح فيها الشعراء والفلاسفة السابقون ممن سخروا من الانسان . وضحكوا من اغتراره بالحياة الدنيا اذا بقبر من تلك القبور ينفتح أمامه فجأة ويخرج منه ميت فى أكفانه .

وتدور محاورة بين الحى والميت ، ويعرف عيسى بن هشام إذاك أن الميت الذى يحدثه إنما هو أحد الباشوات الذين عاشوا فى أيام محمد على ، وأن وفاته كانت حوالى سنة ١٨٥٠ ميلادية وما هو الا قليل حتى يصبح الرجلان وكأنهما صديقان منذ أمد بعيد . ويخرجان معا من مقبرة الامام الشافعى ، ويسيران فى طريقهما الى مدينة القاهرة ؛ وقد استبدل الباشا بأكفانه معطف عيسى بن هشام نفسه .

ولكن الباشا لا يكاد يمشى بضع خطوات فى هذه الدنيا الجديدة حتى يصطدم بأحد المكارين . ويكبر على نفس الباشا أن يرد عليه المكارى . فينهال عليه ضربا ولكما . ويصرخ المكارى ، ويخف اليه رجل من رجال الشرطة كان على مقربة من مكان الحادث ، يشتغل بملء سلته بأنواع الفاكهة والمأكولات ، يأخذها من الباعة بدون مقابل . ثم يقبض الجندى على الباشا وصاحبه وعلى المكارى ويقودهم جميعا الى (نقطة البوليس) .

وهنا يغتنم الكاتب هذه الفرصة ليصف لنا هذا المكان من أمكنة الحكومة ، ويشير الى قذارته ، والى الموظفين الذين فيه بملابسهم الرسمية المعروفة ، وطريقتهم فى تسجيل المحاضر ، وضرب المجرمين الذين ينكرون التهم المنسوبة اليهم . ثم يصف لنا المفتشين الذين يلمون بهذا المكان بين حين وحين ؛ لا لشىء الا ليتصفحوا السجلات على عجل ، ويكتبوا التقارير الشكلية

على عجل ، ثم ينصرفون وكأنهم مدعون الى عمل آخر غير هذا العمل الذى ترزقهم عليه الحكومة .

أما الباشا فانه فى حيرة شديدة من أمره لهذ الاهانة التى لحقت شرفه ، أو لهذا القدر الذى سخر منه وجعله يقف ومكاريا ساقطا كهذا المكارى أمام رجل من رجال الشرطه ، وأخذ يقول فى نفسه لابد أن يكون الداورى الأعظم - يريد محمد على — قد غضب على غضبا شديدا ، وأمر باهانتى على هذه الصورة الشنيعة ،

وتتحول القضية الى النيابة ويقف الباشا بين يدى المدعى العام . ولشد ما يملكه العجب كذلك إذ يرى هذا المدعى العام شابا من أبناء الفلاحين درس الحقوق ، ونال شهادة تخول له مزاولة وظيفته . وهذه الشهادة لم تكلف هذا الشاب أكثر من ألف وخمسمائة فرنك . فيسأل الباشا : وما الفرنك ؟ فانه لا يعرف غير القرش التركى . وفى هذه الأثناء يدخل لمقابلة المدعى العام رجلان من أصدقائه ، فيعلم الباشا من الحديث الذى جرى بينهما - وكان قد سمع اكثره من وراء الباب - أن الأصدقاء الثلاثة قضوا ليلتهم فى بيت من بيوت اللهو والمقامرة ، وأنهم خسروا فيه مبالغ طائلة ، وأن مرتباتهم فى آخر الشهر لن تكفى لسداد الديون . وبالرغم من هذا كله لايستحى المدعى العام أن يقول لصاحبيه وقتئذ إنه دعا فى هذا المساء الآنسة فلانة الممثلة بدار الاوبرا ، وفلانا وفلانا من الممثلين بها لتناول طعام العشاء فى أحد المطاعم بميدان الازبكية . وقال انه ينوى بعد العشاء أن يدعو ضيوفه إلى غشيان هذا الملهى الذى سهر فيه الليلة الماضية . وادهى من كل ذلك أن المدعى العام يعترف بأن المال اللازم للانفاق على العشاء وعلى السهرة سيأخذه من رفيقين له : أما أحدهما فيشتغل بالمحاماه . وأما الثانى فعمدة من اولئك العمد الذين تهافتون على رجل مرموق المكانة عالى المنزلة كالمدعى العام !

ثم يشير الكاتب الى الطريقة التى تجرى عليها المحاكمات ، والاسلوب الذى يجرى عليه الدفاع . ويصل من ذلك الى الحكم على الباشا بالسجن ثمانية عشر شهرا ، ثم الى استئناف الباشا لهذا الحكم . ثم الى الحكم له بالبراءة فى نهاية الأمر .

وتتلاحق فصول الرواية ، وكلها تصف اعمال محمد على الذى يضمر له الباشا كل اعجاب وولاء ثم تصف المحامين العامين ، والامور المحزنة التى تتردى فيها العدالة فى المحاكم .

ثم يحدث بعد هذا كله أن يقع الباشا مريضا ، فيغتنم المؤلف هذه الفرصة أيضا ليصف لنا الأطباء ، ودور الاستشفاء . وإذ ذاك تروج شائعة فى البلد بوقوع اصابات بداء الطاعون، فيتحدث عيسى بن هشام عن هذا الوباء حديث الواثق بطرق التغلب عليه، والتخلص منه قبل أن تكون له ضحايا من أبناء الوطن. ولكن الباشا - وقد شهد بنفسه الطاعون الذى أصاب المصريين بين سنتى ١٧٩٠ و ١٧٩١ يتحدث عن الطاعون كأنه مرض من تلك الأمراض التى يأتى بها الجن والشياطين ، وأنه لا قبل للأهالى ولا للحكومة بمكافحته ! وهنا ينتهز عيسى بن هشام الفرصة ليشرح لصديقه النظريات الحديثة فى الطب والاجهزة الحديثة فى العلم ، ومنها (المجهر). ويظل الباشا على شك من ذلك حتى يرى بعينه دنيا الجراثيم من خلال المجهر ، فيتعجب العجب كله!.

ويشفى الباشا من المرض ، ويعود الى القاهرة ، ولكن لا يكاد يدخلها حتى يفاجأ فى هذه المرة بانتشار مرض الكوليرا . فيعتزل الناس فى دار قريبة من العاصمة حتى يزول خطر الكوليرا . ثم يخرج من داره ويختلف الى كثير ممن عرف من المصريين على اختلاف طبقاتهم ووظائفهم : ويشترك فى كثير من أحاديثهم الفارغة ، ومشاغلهم الهينة . ثم يسوقه الحظ الى حضور ليلة عرس . وهنا يقف المؤلف ليصف هذا العرس فى أكثر من عشرين صفحة . ومن أهم ما حدث فى تلك الليلة أن جماعة من الاوروبيين دعوا الى حضور هذه الحفلة، فدخلوا الدار ، وبأيدى نسائهم فى تلك اللحظة آلات التصوير الشمسى التى ظنها الباشا هدايا يحملنها الى العروس. ووقف المؤلف كثيرا عند وصف الوليمة، وعند ذكر الشراب والغناء وتقليد المصريين للاجانب فى كثير من العادات التى تنافى التقاليد الشرقية والديانة الاسلامية . ومن تلك العادات معاقرة النساء للخمر ، وشربهن أوراق التبغ

وظهورهن فى تلك الليلة سافرات يرشقن الرجال بنظراتهن الحادة ، ويأسرنهم بضحكاتهن العالية . واذ ذاك تقع المصادمات الكثيرة بين الرجال من أثر الفتنه . وينتهى الأمر بتدخل الشرطة !

قال المؤلف ، وتمكن من الباشا حب الاستكشاف والاستطلاع لدرس الأخلاق وسير الطباع ، فساقه عيسى بن هشام إلى حديقة الأزبكية فوجدها تغيرت من حال الى حال . وذلك منذ أمرت الحكومة بألا يدخلها غير الرجال ، واسترق الباشا السمع الى بعضهم ، وكان أحدهم عمدة أخذ يشرح لجلسائه كيف اتصل به أحد الموظفين الكبار ، وأخذ يجره من مكان الى مكان ، ومن حان الى حان يشرب هو وأصحابه على حسابه ، مادام هو — أى العمدة — فى حاجة الى استرضائهم لقضاء حاجته .

وأخيرا يستمع العمدة الى بعض جلسائه فى الحديقه — وكان خليعا — وهو يمنيه بسهرة جميلة مع غانية من بنات الباشوات . وإذ ذاك يغتنم الكاتب هذه الفرصة ليصف على لسان العمدة كثيرا من مواطن الشبه فى المجتمع المصرى ، ويندد بكثير من مفاسد هذا المجتمع أيضا

ثم ينتهى الكتاب بفصل عن الاسباب التى من أجلها تغيرت الأخلاق فى مصر ، وانتهت الى هذه الصورة التى لا يرضى عنها الباشا بوجه . وقد ذهب المويلحى الى أن هذا الفساد الذى أصاب الاخلاق والعادات إنما هو نتيجة لأمر واحد فقط ، هو (الحضارة الاوروبيه) وتقليد الشرقيين لها تقليدا أعمى .

* * *

وإلى هنا تقف الطبعات الثلاث الأولى من كتاب (حديث عيسى بن هشام) . غير أننا نجد فى الطبعة الرابعة التى نشرها المويلحى سنة ١٩٢٧ أن المويلحى أضاف إلى كتابه اضافة جديدة سماها « الرحلة الثانية » . وهى رحلة الباشا الى باريس لحضور المعرض العالمى سنة ١٩٠٠ . وهناك فى هذا المعرض تعرف الباشا الى (الحضارة الأوروبية) بعد إذ بصره بها وبأسرارها صديقه الفيلسوف الشرقى الذى صاحبه فى رحلته الأخيرة . ثم عادا معا الى القاهرة ،

وقد تفتحت عيناهما على أشياء كثيرة لم تدر لهما على بال ، ولا ارتقى اليها خيال . وإذ ذاك أدرك « الباشا » أن الحضارة الأوروبيه ليست خيراً خالصاً ، ولا شراً خالصاً ، ولكنها مزاج من العنصرين معاً . ومنذ يومئذ طفق يدعو قومه الى الأخذ من هذه الحضارة بالنصيب الذى يتفق وحاجتهم ويلائم امزجتهم وطبائعهم ، ويكون كفيلا بتقدمهم فى مضمار الحياة .

* * *

أرأيت اذن الى هذه القصة كيف كانت صدى لحركة الإصلاح ؟ أرأيت أليها كيف كانت صدى لكتابى (حاضر المصريين) لمحمد عمر ، و(سر تقدم الإنجليز) لفتحى زغلول بنوع خاص ؟

أرأيت إلى الغرض الذى رمى اليه الكاتب من عقدته القصصية التى بنيت على بعث « الباشا » من قبره ؟ وهذا الغرض هو الموازنه بين فترتين من حياة مصر : إحداهما فترة محمد على ، والأخرى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ؟

الحق أن الكاتب لم يدع شكوى ، ولا دعوة مما دعا اليه المصلحون السابقون من الكتاب والأدباء والصحفيين حتى ذكرها فى كتابه ، ولفت إليها أنظار القراء فى قصته . فنظام الشرطة ، ونظام القضاء ، ونظام الوقف ، وابناء الأسر الراقيه ، والأسر الفقيرة ، وعادات هؤلاء وهؤلاء ، ونظام المحاكم الشرعيه ، والدين ، وعلماء الدين ، وأخلاق الأعيان والتجار والحكام والرؤساء ، ومفاتن الحضارة الاوروبية ، والأمراض والأوبئة — كل هذه الأمور كانت مما يشكو منه الناس فى أواخر القرن الماضى ، وكل هذه الأمور كانت مما يتناقش فيه النواب فى المجالس شبه النيابة (١)

---

(١) من ذلك أن الجمعية العمومية بعد أن برئت من النكسة التى أصابتها بالاتفاق الودى سنة ١٩٠٤ ، بحثت فى جلسة واحدة استمرت أربعة أيام متوالية ، ثمانين اقتراحا وشكاة منها شكوى تختص بدنشواى ، وأخرى تطالب بحكومة دستورية صحيحة فى البلاد ، وثالثه تطالب بتعيين المصريين فى الوظائف الرئيسية . ورابعة تشكو من ارتفاع اجور التعليم . وخامسة تطالب أن يكون التعليم باللغة العربية وسادسة تطالب باصلاح المحاكم الشرعية ؛ وسابعة تطالب باصلاح نظام الوقف الخ

وكل هذه الأمور كانت تتناولها تقارير الوكالة البريطانية . وكلها كانت موضوع الكتب الأدبية المؤلفة والمترجمة ، وموضوع الصحف كما رأينا .

وقد أقام المستشرق الفرنسى (هنرى بيريس) موازنة بين (حديث عيسى بن هشام) وكتاب (حاضر المصريين) فذكر وجوها عديدة من وجوه الشبه بينهما :

منها أن الكتابين اشتركا فى وصف الأغنياء وسوء تصرف أبنائهم بعد موتهم. كما اشتركا فى وصف رفقائهم ، ووصف لهوهم ، وعبثهم ،ومجونهم ، ونفاد ثروتهم ، والدعاوى التى تقام عليهم بسبب ذلك ، والعلاقات التى بينهم وبين الاعمام ، وبينهم وبين أبناء الأشقاء ، والبحث عن الذهب باستخدام الكيمياء الخ .

كما اشتركا فى وصف الأعراس ونفقاتها الباهظه ، وموقف المدعوين والزائرين من هذه الأعراس ، ووصف المغنيات والراقصات ، والفوضى التى تشيع بسببهن فى هذه الحفلات . كما اشترك الكتابان فى وصف الأوبئة والأمراض والطريق إلى مكافحتها إذ ذاك . واشتركا كذلك فى وصف الصحافة فى مصر بمالها من عيوب وحسنات .

وكثيرا ما تشابه الكتابان فى بعض تفاصيل الروايه ، وفى بعض الكلمات المستعملة فيها . ومن ذلك على سبيل المثال : اتفاقهما فى ظهور الأجانب فى حفلات الأعراس ، ومعهم آلات التصوير الشمسى التى يحسبها الحاضرون حقائب ، ويسميها المويلحى فى كتابه « أسفاطا » .

بل أن المستشرق بيريس أخذ يحصى وجود الشبه بين (حديث عيسى بن هشام) وبعض الكتب الأخرى – فيما خلا كتاب محمد عمر – . وذلك مثل كتاب (تحرير المرأة) لقاسم أمين ، وكتاب (تربية المرأة) لطلعت حرب ، وكتاب (علم الدين) لعلى مبارك . والكتاب الأخير يقع فى أربعة أجزاء ظهرت بمدينة الاسكندرية عام ١٨٨٢ . وهو عباره عن رحلة قام بها « علم الدين » وهو شيخ مصرى كبير – ومعه ابنه « برهان الدين » ، وبصحبتهما كذلك مستشرق انجليزى. ويتالف هذا الكتاب من مائة وخمس وعشرين مسامرة فى مختلف مظاهر

الحياة العائلية والتجارية والصناعية والزراعية والعلمية والفنية فى مصر من جهة، وباريس من جهة ثانية.

ويقول المستشرق المذكور:

«أن نظرة سريعة تلقى على فهرست كتاب علم الدين تدل على أن باريس كانت محط أنظار المصريين ـ بله الشرقيين ـ وذلك حتى مطلع القرن العشرين» (١)

* * *

وقبل أن نترك الكلام عن «حديث عيسى بن هشام» يجدر بنا أن نذكر أن العقدة الفنية لهذه القصة قريبة الشبه بالعقدة الفنية فى القصة المعروفة فى القرآن الكريم باسم «أهل الكهف». ولا يبعد أن يكون المويلحى قد أخذ عقدته منها مع فارق واحد، بينهما وهو أن المويلحى فى حديث عيسى بن هشام نسى أن يعيد «الباشا» إلى قبره كما فعلت قصة أهل الكهف. ذلك أن المويلحى فى الحقيقة لم يكن يشغله شىء فى قصته هذه اكثر من مجرد الموازنة بين فترتين من حياة مصر؛ هما الفترة القريبة من سنة ١٨٥٠، والفترة القريبة من سنة ١٩٠٠. ولا شك أنه قد وفق فى هذه الموازنه توفيقا يستحق الاعجاب والتقدير.

* * *

قصة زينب

فى الفترة التى ظهرت فيها قصه المويلحى الصغير على شكل فصول نشرت تباعا فى صحيفة «مصباح الشرق» أو بعد هذه الفترة بقليل ظهرت إلى الوجود قصة مصرية اجتماعية، هى قصة زينب. كتبها «محمد حسين هيكل» سنة ١٩١٠ وهو طالب يتلقى العلم فى فرنسا. ولما عاد إلى مصر نشرها فصولا «بالجريدة» عام ١٩١٤.

وكان وهو فى فرنسا كثير الشوق لبلده مصر، فجاءت

---

(١) مجلة المكشوف العدد ٣٩٣ سنة ١٩٤٥

هذه القصة — كما يقول — «ثمرة حنين للوطن وما فيه . صورها قلم مقيم فى باريس مملوء مع حنينه لمصر إعجابا بباريس وبالأدب الفرنسى » .

ويبدو ان هذا الجهد الأدبى وأمثاله من الجهود الأدبية أو الصحفية الأخرى كان سببا من أسباب ظهور فكرة « المصرية » التى وضحت فى الأذهان وضوحاً تاما عقب الحرب الكبرى . وهذا الشعور هو الذى جعل الكاتب الشاب ينشر « قصة زينب » فى الجريدة بإمضاء « مصرى فلاح » . ذلك أنه كان يخشى كما كان يخشى غيره من المصريين الفلاحين إذ ذاك « من أن أبناء الذوات وغيرهم ممن يزعمون لأنفسهم حق حكم مصر ينظرون إلينا — جماعة المصريين وجماعة الفلاحين — بغير ما يجب من الاحترام » الخ (١)

على أن « زينب » لم تكن ثمرة الحنين إلى الوطن فقط ، ولا ثمرة الاعجاب بالأدب الفرنسى فقط ، ولا ثمرة التبشير بفكرة « المصرية » فقط ، وإنما كانت فى الحقيقة ثمرة لهذا كله ولتلك المقدمات الأدبيه التى أشرنا اليها عند الكلام عن قصة المويلحى . ومن أهم هذه المقدمات فيما يتصل بقصة زينب تلك الضجة التى أثارها ظهور كتاب قاسم أمين « تحرير المرأة » منذ نشر على صفحات « المؤيد » عام ١٨٨٩ . وقد تأثر الشباب المصرى المثقف إلى حد كبير بهذا الكتاب الجديد . وجاء هيكل الشاب فصور لنا شخصية من شخصيات قصته ، هى عزيزة بصورة الفتاة التى نالت قسطا ضئيلا جدا من التعليم ، ثم حبسها أهلوها فى منزل قبعت فيه . وانقطعت لقراءة القصص السخيفه التى كانت تصل إليها مع ذلك بصعوبة كبيرة . وكانت النتيجة أن انحرف عقلها ، وذبل جسمها ، وأخذت تزداد مع الأيام ضعفاً على ضعف . « ولا يمر عام حتى تحس بحاجة شديدة لتجديد الهواء ، واستعادة صحتها التى تذهب مدة الشتاء فريسة رطوبة بيتهم الواسع الذى يعيشون فيه » (٢)

(١) قصة زينب ، الطبعة الثانية ص ٧

(٢) المصدر المتقدم ص ٢٢٥

من أجل هذا كتبت عزيزه إلى ابن عمها حامد تقول :

أخى حامد : هل بعد ليلة الأمس لا تزال تحبنى ؟ إن قلبى يوحى إلى بمقدار ما بعث به لنفسك سكوتى إلى حد التألم ساعة انفرادنا . وأحس الساعه أننى لا أستحق حبك .

ومالنا جماعة الدفينات وللحب ؟ إنما نحن فى ظلام نتلذذ منه بخيالات لاوجود لها ، وإنها لخطيئة أن تحب من ذهب بها أهلوها إلى الدير !. ولسنا أقل تبتلا من هاتيك الراهبات ،وإن كنا أقل عبادة ...

لكم جمال الوجود ، ولكم السماء والزرع ، والماء ، والليل ، والقمر . فأحيوا ممتعين بها . وذرونا فى صوامعنا وسجوننا ! (١)

وانظر الى هيكل يقول فى قصته كذلك عن « حامد » وهو اهم شخصية من اشخاص القصة :

«والواقع أن احلام حامد وآماله فى المستقبل كانت كبيره جدا. ومهما يكن مخلصا فى قوله أحيانا إن خير عملنا أن نفنم الحاضر ،فان قضية المستقبل كانت تشغل باله ، وتعاوده فى أوقات مختلفه ، وكأنه كان يدين بمذهب استاذه قاسم أمين : اللذة التى تجعل للحياة قيمة هى أن يكون الانسان قوه عاملة ذات أثر خالد فى العالم» (٢)

تلك إحدى المقدمات الأدبية لقصة زينب . وثم مقدمة أخرى هى : (الحضارة الأوروبية) أو الثقافة الغربية التى تسربت إلى المصريين عن طرق شتى .

وقد حملت هذه الحضارة الاوروبية كثيراً من الشبان المصريين من (أولاد المدارس) على أن يتساهلوا نوعاً ما فى تقاليد بلادهم ، ويتحرروا نوعاً مامن قيود الماضى ، ويتهاونوا بعض الشىء فى أمور الدين ، ويتبرموا أحيانا من الفضيلة !

وقد شاء مؤلف زينب أن يجعل من (حامد) شابا من هذا الطراز ؛ يسخر من التقاليد ، ويقبل على الحياة اقبالا ، ويلح فى طلبها إلحاحا .

---

(١) المصدر المتقدم ص ١٨٨
(٢) « « ص ٣١٥

قائلا « أن أيام الشباب أيام الحرية وعدم المسؤولية ، فأن أضاعها صاحبها صريعا بخرافات العجائز ، قاعدا عن أن ينال منها كل مافيها ضاع عليه عمره، وقضى على الأرض حياة مكتئبة فاسدة - حياة محملة بالهموم من أولها إلى آخرها ، حياة خير منها موت عاجل »[1]

غير أن القصة تعود فتصور لنا حامدا وقد ندم فى النهاية على مسلكه هذا ، وأفضى به الندم إلى محاولة الفرار من الحياة، أو يظفر بأمنيته منها ؛ وهى الحصول على فتاة تملأ فراغ قلبه.

(وزينب) قصة بسيطة فى ذاتها كل البساطة . هى قصة حامد من أولاد المدارس ، وأحد أولاد السيد محمود من كبار الملاك المزارعين فى احـــدى القرى المصرية . وكان من دأب حامد أن يأتى كل صيف لقضاء إجازته فى الريف حيث الماء والهواء والضياء والمزارع الخ . وحيث الجلوس إلى فتيان القرية وفتياتها ممن يعملن اجيرات فى مزرعة أبيه، ويكسبن القوت من وراء ذلك . واسمع إلى حامد يقص قصته هذه على شيخ من مشايخ الطرق الصوفية زار القرية، وكان حامد فى حالة نفسية أليمة حاول فى اثنائها أن يتخفف منها بعض الشىء بهذه الطريقة : فجاء الى الشيخ وقال له :

« لى ابنة عم قيل لى وأنا لا أزال فى السادسة من عمرى إنى سأتزوجها متى كبرت . وعلى هذا كنت أحس فى نفسى لها بعاطفة غير التى أحس بها نحو بنات عمى الأخريات ، فأقاسمها ما بيدى ، وأحنو عليها ، وأدافع عنها . ولما بلغت السادسة عشره من عمرها ومن عمرى ابتدأت أحس بغير هذا الاحساس القديم نحوها ، وازداد شوقى لها ، وقضيت الليالى الطوال يصحبنى خيالها . وفى تلك الأيام قابلتنى فتاة ريفية اظن سيدى الشيخ يعفينى من ذكر اسمها ، أو أى شىء عن شخصها .

قابلتنى فأخذ بعينى جمالها ، وبهرنى منها عيون نجل ، وخدود متوردة فى لون جذاب وجسم خصب ، وقوام غض ، وخصر دقيق ، وبنان رخص

---

(١) المصدر المتقدم ص ١٧٧ ١٧٨ .

ومنطق عذب ، ونظرات تسيل لها النفس . ولكن هيهات لفتاة – أيا كانت – أن تصل لفؤاد مقفل كفؤادى يومئذ ؛ حين كنت لا أعرف غير الفضيلة المجردة. غير أنى كنت اشعر بقلق كلما طالت غيبتى عنها ، وأحس بدافع لا قبل لى على دفعه يجعلنى أذهب إلى المزرعة التى تكون فيها ، وأن أساعدها فى عملها. ثم أن أرجع معها جنبا إلى جنب نتحدث فى كل شىء وفى لا شىء.
وجاء اليوم الذى تزوجت فيه هذه الفتاة ، والذى عاهدت نفسى فيه أن أنساها إلى الأبد . إذ مادامت لغيرى فمن الغدر الذى لا يليق بى أن أفكر فيها مجرد تفكير . ورجعت بذلك لابنة عمى التى وعدت بها . وجعلت أتخيل لها كل شىء حسن، وتبادلت معها كلمات قليلة . ولكنها انتهت – هى الأخرى – بأن تزوجت . فعرانى لذلك حزن عظيم . ولكن ما أسرع ما سقطت عن كتفى أحماله ، حتى لقد عرتنى الغرابة كيف يمكن أن يكون ذلك شأنى . ورحت بعدها فى شىء من عدم الاهتمام بكل ما حولى ؛ أو الاسف على شىء حصل، أو التفكير فيما سيكون . ولكن ذلك على ما كان من لذته لم يستمر طويلا ، بل غادرنى وأسلمنى بعده الى نوبة فظيعة ، هى التى دفعتنى اليك ، نوبة أحسست معها بالحاجه المطلقه إلى أن أملك الفتاة الريفية رغماً عن أنها متزوجة ، ورغما من كل ما سيقوله أو يتقوله الناس عنا . ولكن الله سلم واستطعت أن أملك نفسى فى الساعة التى كنت سأضيع فيها » .
تلك (خلاصة) القصه كما قصها (حامد) على الشيخ . ولكى تزداد وضوحا فى أذهانكم أمضى قليلا فى وصف الملامح العامه لبعض الشخصيات الهامه : فعزيزة فتاة بسيطه نالت – كما قلنا – قسطا بسيطا كذلك من التعليم لم يكن يزيد على « فك الخط » .

وزينب هى الفلاحه التى كانت أجيرة عند السيد محمود والد حامد . وقد أتاح لها ذلك فرصة الاختلاط المستمر بهذا الشاب الذى شعر بحب لها ، وشعرت هى بمثل ذلك . وان كانت تعلم أن الفرق بينهما لا يمكن أن يسمح لهما بالزواج . ولذلك منحت قلبها فى الحقيقه شابا آخر كان يعمل معها فى المزرعة ، وكان صديقا لحامد . وهذا الشاب

هو ابراهيم . ثم شاء القدر القاسى الا تظفر زينب بهذا الذى تحبه ، لان تقاليد الاسرة الريفيه كانت لا تسمح للفتاة بأن يكون لها رأى فى زواجها من رجل بعينه . وتزوجت زينب على كره منها من شاب آخر من شباب القرية طيب الأخلاق سليم الطويه ، هو حسن . وبدأت زينب حياة الزوجية ولكنها لم تنس ابراهيم ، ولم تفلح قط فى اقصائه عن نفسها أو قلبها ، بل ظل عالقا بهما الى أن دعى ابراهيم للخدمة العسكرية ، فصدع بالأمر ، وترك زينب تعانى آلام الفرقة . وما زالت هذه الآلام النفسيه الكثيره تهد من كيانها ، وتنال منها حتى أصابها السل ، وأفضى بها السل إلى الموت .

ومنذ حرم حامد من (زينب) أولا ، ومن ابنة عمه (عزيزة) ثانيا أحس بفراغ هائل فى حياته ، ولم يجد علاجه مع هذا على يد هذا الشيخ الذى سعى اليه ، وقص قصته عليه . فانتظر حتى انتهت الاجازة ، وعاد إلى العاصمة . وهناك فكر فى أمره طويلا فلم يجد أمامه الا طريقا واحدا ، هو الاختفاء عن العالم ، فاختفى بعد أن ترك لوالده خطابا شرح فيه آلامه كلها ، وذكر جميع الاسباب التى أفضت به الى هذه النهاية :

تلك هى قصة « زينب » لمحمد حسين هيكل » وإن اهميتها لتظهر لنا من ذكر الخصائص العامة التى تمتاز بها . ومنها ـ على سبيل المثال مايلى :

أولا ـــ أن المؤلف كتبها بلغه غريبة على المتأدبين فى عصره بعض الغرابه : كتبها بلغة عربية تغلبت عليها « الصبغة المصرية » إلى حد كبير . وكأنه بهذا الصنيع يدافع عن « المصرية » نفسها من جهة ، ويعارض قصة المويلحى التى كانت فى كثير من مواضعها مكتوبة بلغة تشبه لغة المقامات العربية من جهة ثانية . ونحن نعرف عن لغة المقامات انها تقوم على السجع والجناس والطباق والاستعاره والاستشهاد بالقرآن وبالحديث وبالاشعار الخ .

أما لغة هيكل فى قصة زينب فجاءت عارية من كل ذلك . ويطول بنا القول لو أردنا أن نحصى التراكيب المصرية التى وردت فى هـــذه القصة الاجتماعية . فأنكم واجدون هذه التراكيب فى كل فصل من فصولها

بل في كل صفحة من صفحاتها . ومنها على سبيل المثال :

« بقيت في مكانها ساكنة لا تبدي حراكا . ثم فردت ذراعيها من جديد » الخ (١) . ولم يقل بسطت .

« جلست العائلة جميعا حول المشنة ، وأكل كل منهم رغيفه بحصوة ملح . ثم قام الرجل وابنه الى عملهما » (٢)

« ولم ينس ابراهيم أن ينبههم إلى أن هذه الحالة أغلت من سابقتها » (٣) ولم يقل أقسى أو أشد ونحو ذلك .

« وقام بمصباح ضئيل النور — لمضة خمس شمعات — يزيد نوره ضعفا ما على زجاجته من التراب » (٣)

« تقصت أيام ، وزينب تذهب لنقاوة القطن تحت رياسة ابراهيم ، حتى إذا جاء وقت الحصيد انتقلت هي وأختها ، وأخذ الرياسة عليهم حسين أبو سعيد » (٤)

بقي حامد حتى آذن الظهر أن يزول ، ولم يبق للعمال الا أن يطلعوا بلوش » (٥)

« وطلعت الشمس في ذلك اليوم تزيد الوجود جمالا وفرحا ، وينطرح ضوؤها على هدوم الفلاحين البيضاء الخ » (٦)

« وقد رأى صاحبها - أي صاحب دكان العطارة والقماش — من أجل أن يقدم خدمته للناس الذوق الخ » (٧)

ذلك أمر يحتاج التبصر والاحتراس ، وأن يأخذ الانسان باله عند كل خطوة » (٨)

---

(١) قصة زينب ص ٩

(٢) نفس المصدر ص ١٠

(٣) نفس المصدر ص ١١

(٤) نفس المصدر ص ١٣

(٥) نفس المصدر ص ١٤

(٦) نفس المصدر ص ٤١

(٧) نفس المصدر ص ٥٦

(٨) نفس المصدر ص ٦٤

« فلما كان فى أصيل اليوم التالى ليوم حضورها أخذ بعضه وسار حتى وصل باب منزلها » (١)

«فأخذ حصاة وحدف بها الثور » الخ (٢)

« والكل جاءت عليهم ساعة كانوا فيها أشد صمتا » الخ (٣)

« وهل من مقام حامد أن ينزل الى مثل ما نزل اليه » الخ (٤)

« فلم تجب زينب بحلوة ولا بمرة » الخ (٥)

على أن كاتب القصة لم يكفه ذلك حتى ملأ قصته كذلك بالأمثال العامية والتراكيب المصرية المعروفة ، فأضفى بذلك على قصته (اللون المحلى) الذى احتاجت اليه .

ثم لم يقف الكاتب أيضا عند هذا الحد ، حتى شحن قصته كذلك بطائفة من التراكيب الأجنبية التى ليست بعربية وليست بمصريه .

« أما الوجود فقانع ، راض ، أشيب ، علمه تعاقب الدهور أن الاسترسال فى تحديد الغاية بخطوط الخيال جرى ، إلى حيرة اللانهائيه (٦)

« فلما صار وسط الدار ، ووسط الضجة والتصفيق ، ووسط السرور المجنون » الخ (٧)

«وقد بهت الشرق مبشرا بآلهة النار والنور» (٨) الخ

« وحامد محدق لذلك الشرق البديع تسيل سماؤه دهبا ؛ ويعانق بكله النباتات » (٩)

على أن تأثر الكاتب هنا بالأدب الفرنسى تجاوز التراكيب إلى نوع الأدب ذاته : فهيكل فى قصة (زينب) متأثراً بالأدب العاطفى أو الرومانسى الذى ظهر فى فرنسا ، مفتون باحتذائه فى الفكرة والأسلوب ، وفى العنايه التامة بالتصوير النفسانى ونحو ذلك .

---

(١) قصة زينب ص ٨٧ (٢) ص ١٥٣ (٣) ص ١٦٠ (٧) ص ١٦١

(٥) ص ٣٩٢ (٦) ص ١٦ (٧) ص ٣٥ (٨) ص ١٤٧ (٩) ص ١٥٦

ثانيا - من أهم خصائص القصه التى كتبها هيكل عنايته بأوصاف الطبيعه. وكأن مؤلف قصة زينب - وقد كان طالبا يتلقى العلم فى باريس - لم يجد للتعبير عن حنينه إلى وطنه خيرا من أن يقضى الساعات الطوال فى رسم اللوحات الفنية التى ينقل بها مناظر الريف المصرى. ومن أجل هذا كثرت هذه الأوصاف فى كتابه كثرة تلفت نظر القارىء. ولو ذهب هذا القارىء يحصى أوصاف الطبيعة فى قصة زينب لرأى أن هذه الأوصاف تبلغ منها مقدار الثلث تقريبا.

ومن العبث أن نحاول هنا الإتيان بمثال من هذه الأوصاف. فكلها جيدة وكلها متشابهة، وكلها تدل على شغف هذا الشاب بالطبيعه وما فيها من جمال وفتنة.

وأكبر الظن كذلك أنه تأثر فى هذا بالأدب الفرنسى الذى كان من أغراضه الدعوة إلى تقديس الطبيعة،، واجتلاء جمالها والاستمتاع بما أودع الخالق المصور فيها من أسراره، والدلائل الكثيرة على وجوده.

ثالثا - العناية بالتفاصيل. والأمثلة عليها كثيرة فى قصة زينب. منها وصفه (لعملية التشوق) عند الشيوخ[1] من أهل الريف، ومنها وصفه (لصلاة الجماعه فى المساجد)[2] وما إلى ذلك. وكلها جميلة ودقيقة، وفيها عناية بالتفاصيل تسترعى نظر الناقد حقا.

رابعاً - صفته الواقعية. والحق أن قصة زينب صورة صحيحة من الريف المصرى بمحاسنه ومساوئه فى وقت معا: فاما محاسنه فآتية من جمال مناظره وبساطة أهله فى معيشتهم، ومن قناعتهم حتى إن أحدهم لتكفيه الكسرة من الخبز إدامها الملح.

وأما مساوئه فكثيرة. أهمها فى نظر الكاتب مايتصل بالعائله، أو الاسرة وفهم الريفيين لها، وطريقتهم فى تكوينها، وإغفالهم حق المرأة التى هى الطرف الثانى فى قضية الزوجيه حيال الرجل.

---

١ - المصدر المتقدم ص ٣٣ ٢ - ص ١١١

فهذا شاب يتزوج من فتاة لا يعرفها ولا تعرفه. ومع ذلك يطلب منهما أن يعيشا معا طول الحياة. وهذا مجتمع يرى أن كل صلة بين الرجل والمرأة - فيما عدا الزواج - صلة حسيسه دنيئه تستحق كل احتقار.[1] وهؤلاء قوم لا يفهمون معنى الاسرة. ومع ذلك ينشدون السعادة لانفسهم عن طريق زواج أعمى تحكمت فيه تقاليد الآباء.

إن هذا كله مما يؤخذ على الحياة فى الريف المصرى، ويدعو إلى التبرم بها، والوقوع فى أخطار كبيره بسببها.

وهكذا نجد أن كاتب القصه التى نحن بصـــددها لم يغفل فى كتاباته العناية التامة بنقد الريف المصرى فى كثير من عاداته الضارة، وأوهـامه السخيفه ومعتقداته الزائفـة.

فمن ذلك انهم يعتقدون أن الامراض آتية من الجن والشياطين أحيانا، أو من الحسد أحيانا. ولا مصدر لها فى نظرهم غير هذين. ثم لم يكن الا بعد جهد جهيد أن آمن هؤلاء الريفيون بالطب

ثم من ذلك اعتقادهم فى (مشايخ الطرق) على صورة من الصور البعيدة عن الدين. بحيث لا ترى فى الريف المصرى إلا شيخا يعتمد على الشعوذة فى جمع الناس للطعام والشراب، والرقص فى حلقات الذكر ونحو ذلك.

أما العطف على الفقراء، والعمل على راحة الناس من الديون، ومن الامراض فشىء لا يخطر لاحد من الريفيين على بال.

على أن هذا الريف المصرى لم يخل من عادات اجتماعية طيبه أشارت الى بعضها قصة زينب. ومن أهمها عادة التعاون فى أوقات الشدة من مرض أو وفاة ونحو ذلك. وفى مثل هذه الظروف تبادر الاسر كلها فى الريف إلى تقديم المعونة اللازمة لاهل المريض أو الميت

---

(١) قصة زينب ص ١٤٥

ولكن يؤخذ على مؤلف زينب عدم عنايته بالمحافظه التامة على خصائص كل شخصيه من شخصيات القصه على حدة. ولهذا رأيناه يحمل هذه الشخصيات على أن تقف من نفسها ومن حوادث القصه ذاتها موقفا غير طبيعي أحيانا: من ذلك موقف عزيزه - تلك الفتاة الريفيه ذات القسط البسيط من التعليم - موقف الكاتبة البارعة التى تنقد المجتمع نقدا يذكر بآراء قاسم أمين. ثم من ذلك موقف (حامد) - ذلك الفتى البسيط الحظ من الثقافة أيضا - موقف الشاب الذى يلوم نفسه على الشكوى الى شيخ جاهل من مشايخ الطرق وهكذا.

* * *

ليالى سطيح

منذ ظهرت رواية حديث عيسى بن هشام للمويلحى وهى حديث الخاصة والعامة من أهل مصر، يقرأونها بلذه لا تعدلها لذة، ويثنون على مؤلفها بعبارات مختلفة. ويظهر أن ذلك أحدث الغيرة فى قلب شاعر شاب، هو حافظ ابراهيم. ففكر فى أن ينشىء - هو الآخر - قصة من هذا الطراز. وبالفعل كتب قصة صغيرة الحجم باسم (ليالى سطيح).

والحقيقه أن (ليالى سطيح) ليست الا سيرة لحافظ ابرهيم. ولا يستطيع الناقد أن ينظر اليها على أنها قصة بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة. ان هى فى الواقع إلا مذكرات خاصة لهذا الشاعر، كتبها بلغة كلفة المقامه المعروفة فى الأدب العربى، وحشر فيها طائفة كبيرة من الأشعار، بعضها من نظمه. وبعضها من نظم شعراء آخرين، من أهمهم أبو العلاء المعرى.

وفى هذه القصة - أو المذكرات - طفق حافظ ابرهيم يشرح الحوادث المزعجة التى وقعت فى السودان حوالى عام ١٩٠٥ - حين كان حافظ ضابطا فى الجيش المصرى، ثم أحيل إلى التقاعد بسبب هذه الحوادث.

وتصادف إذذاك أن مات الشيخ محمد عبده وكانت الصداقة على أتمها واكملها

بينه وبين حافظ ابرهيم ، منذ كان هذا الشاعر المعذب يبعث بقصائده إلى الإمام بمدينة القاهرة ، يشكو فيها حاله ، ويرجو النصر على يديه . ومنذ ذلك الوقت والشاعر الشاب يتخذ من الأستاذ الإمام أباً روحياً ، وصديقا وفيا ، ومعينا له على حوادث الزمن .

ولكن آمال حافظ ابراهيم باءت كلها بالفشل والخيبة ، وجاء موت الامام كارثه قضت على البقيه الباقيه له من هذا الآمال . فعاد الشاعر المسكين إلى قلمه يجد فيه العزاء عن ألمه ، كما يجد الموسيقى فى آلته الموسيقية بعض العزاء فى مثل هذه الاوقات . وكان من نتيجة ذلك كله تلك القصة التى كتبها يومئذ ، وهى « ليالى سطيح » . وهى قصة لا يمكن للناقد أن ينظر اليها الاعلى أنها مذكرات أو خاطرات – أو ما يشبه هذه أو تلك – لا أكثر ولا أقل .

وعلى هذا فليس من الانصاف – بوجه ما – أن نضع « ليالى سطيح » على قدم المساواة . مع قصه المويلحى . أو قصة هيكل . وإن كانت وجوه الشبه كثيرة بالفعل بين (ليالى سطيح) و (حديث عيسى بن هشام) . فهما شبيهتان من حيث الأسلوب . ومن حيث الموضوعات الكثيرة التى كانت مشتركة بينهما . ومن أمثلة ذلك . مشهد الخمارة ، ووصف أماكن اللهو والمجون فى حديقة الأزبكيه ، ووصف المراقص العامة .

وثم وجه من وجوه الشبه بينهما ؛ هو أهم من كل ما تقدمه من وجوه الشبه الأخرى ، هو البطل فى كلتيهما .

فالبطل فى قصة المويلحى هو (الباشا) وقد بعثه المؤلف من قبره . – كما رأينا . والبطل فى قصة حافظ ابرهيم هو « سطيح » وهو شخص بعثه المؤلف من قبره أيضا . وسطيح كاهن معروف فى الأساطير الدينيه على أنه كان رجل عاش فى زمن النبى محمد صلى الله عليه وسلم .

ومع ذلك فقد أتى به حافظ فى قصته ، وأتاح له توجيه النقد للمجتمع المصري عن طريق العرافة والتكهن .

والقصة كلها فى مائة وخمس وخمسين صفحة كتب المؤلف على غلافها «الجزء الأول»، وإن كان من المحقق أن الجزء الثانى لم يخرج إلى عالم الوجود، ولا فكر المؤلف فى اخراجه.

وأما موضوعات (ليالى سطيح) فكثيرة لم يسردها المؤلف بطريقة فنية صحيحة. ومن هذه الموضوعات موضوع الحجاب والسفور (١٠–١٢) وشكوى السوريين من الجفوة التى وقعت بينهم وبين المصريين (١٦ - ١٩) وموضوع الصحافة السورية وما لها من فضل على النهضه المصرية (١٢) والشكوى من الإمتيازات الأجنبيه (٢٤ – ٢٦) وانتشار الخرافات والأوهام بين طبقات المجتمع المصرى (٢٩) ومزايا الصحافة وعيوبها، والتعرض لذكر آثارها السيئه فى المجتمع المصرى الحديث (٣٥ - ٤٥)(١)

ثم من موضوعات ليالى سطيح أولاد الذوات، وحياتهم فى حديقة الازبكيه (٤٧)

وينتقل الكاتب الشاعر من هذه الموضوعات الاجتماعية إلى أخرى أدبية وفكرية، فيوازن بينه وبين شوقى (٥٤ – ٦١) ويشيد بذكر السيد جمال الدين الأفغانى ومدرسته (٦٢ - ٧٠) ويخص بالذكر الأستاذ الامام محمد عبده، ويدافع عن اتصاله بالوكالة البريطانيه بحجة أنه يريد أن يدفع عن المصريين أذى القوم (١٤٥). وقد شبه المؤلف جمال الدين الأفغانى بسقراط، ومحمد عبده بأفلاطون. ثم تحدث المؤلف عن ثورة السودان عقب حرب الترنسفال. واستغرق الحديث عن هذه الثورة ثلاثين صفحه (٨٠ - ١١٠). وتحدث فى أثناء ذلك عن معاملة الإنجليز للمصريين فى السودان. وكيف كان الويل كل الويل للمصرى حين يشكوه زنجى، ويحكم الإنجليز بينهما (١٠٣). ثم تكلم المؤلف عن قضية دنشواى (١١١ – ١١٢). وهنا يستشهد فى قصته بمقالات طويلة من «المؤيد» مبتدئاً اياها بقوله: ولقد أبرد غليلى ما كتبه صاحب المؤيد اليوم عن تلك الحادثه النكيرة بعنوان «السياسه الضعيفه العنيفه». ثم يأتى بالمقال كله فشغل

---

(١) فن مساوئها أنها حبائل لصيد الأموال، وأنها سبب فساد الأخلاق؛ وأنها لا تتوخى فضلاء الناس فى التحرير. بل تدخل الأسافل فى زمرة المحررين الخ:

به من صفحات الكتاب تسع صفحات كامله (١٢٢ — ١٢١) جاء فيها قول صاحب المؤيد : والقارىء لما نشرناه اليوم ـ نقلا عن جريدة التيمس ـ يرى كيف كان مركز ناظر الخارجيه البريطانيه حرجا فى البرلمان ، وهو يسأل عن كيفية تنفيذ الحكم (١٠٨)

أما أسلوب القصه فقد قلنا أنه يشبه أسلوب المقاله العربيه . ونضيف الى ذلك أن الشاعر تأثر فيه كذلك بالقرآن الكريم ، وأشاع فيه الصور البيانيه التى تروق أصحاب الذوق القديم ، وتبلغ من نفوسهم مبلغا عظيما فى حلاوة اللفظ وجمال التعبير .

* * *

القصة الاجتماعيه فى لبنان

هذا كله فى مصر . أما فى لبنان – بنوع خاص – فإن أول محاولة للقصه الاجتماعيه كانت على يد سليم البستانى (١٨٤٨ — ١٨٨٤) وذلك فى مجلة « الجنان » حيث يرى القارىء عددا من القصص وهى :

الهيام فى جنان الشام (سنة ١٨٧٠)
اسماء (١٨٧٣)
ساميه (١٨٨٣)

وقد استوحى البستانى حوادث هذه القصص ، ورسم اشخاصها من البيئه اللبنانيه التى ولد بها ، وعاش فيها ، ولازمها طيلة حياته .

ثم توالى بعده الكتاب اللبنانيون ينشئون مثله قصصا اجتماعيه من هذا النوع ، وينشرونها فى الصحف التى صدر بعضها فى لبنان ، وبعضها فى مصر ، وبعضها فى بلاد أخرى . ومن هؤلاء :ـ

سعيد البستانى ، وجورجى زيدان ، وفرج أنطون ، ونقولا الحداد ، وسليم سركيس ، ويعقوب صروف ، ولبيبه هاشم ، ونجيب غرغور ، وزينب فواز ، وجبران خليل جبران .

---

(١) محمد يوسف نجم : القصة فى الأدب العربي الحديث ص ٩٧ ـ ٩٨

وإن نظرة عجلى الى هذا النتاج الضخم من القصص اللبنانى لترينا كيف أن الهدف الاجتماعى كان يغلب كل هدف آخر فى كل قصه من تلك القصص. وان اشترك كتابها جميعا فى بعض صفات خاصه ،منها الحشو ، والاستطراد وذكر النصائح الاجتماعيه والمواعظ الخلقيه ،كما اشتركوا فى الاعتماد على الحيل والمفاجآت والمبالغات البعيدة الاحتمال ، وفى تفكك البناء القصصى ،والاتكاء على حوادث الحب والغرام التى ينتهى غالبا بالزواج ، وفى غلبة الخير على الشر فى جميع هذه القصص على اختلافها ، ونحو ذلك .

واشتركت هذه القصص أيضا فى أمر آخر ، هو نقد المجتمع الشرقى والموازنه بينه وبين المجتمع الأوروبى .

كما اشتركت كلها كذلك فى الأسلوب ؛ فمالت الى السجع ، والاستشهاد بالشعر . وهى فى هذه الصفات الاخيره شبيهه « بحديث عيسى بن هشام » . وإن كان من الحق أن يقال إن قصة المويلحى تفوقت من حيث الاسلوب على جميع القصص اللبنانيه السابقه تفوقا يعلو عن الموازنه .

* * *

(وبعد) أفليس فى هذا كله ما يدل على أن القصه الفنيه فى مصر وغيرها من الاقطار العربيه نشأت أول ما نشأت فى أحضان الصحافه ، وبأقلام الرجال المشتغلين بالصحافه ، وأنه من أجل هذه الصحافه وجدنا القصه العربيه تظهر أولا فى الميدان الاجتماعى؛ وهو الميدان الذى يلائم الصحف ، فقد وجدت الصحف من أجله ، وعاشت من أجله. وتكلمت بلغته ، ووقفت حياتها على خدمته ؟

٦

القصيدة الشعرية والصحافه المصريه

رأيتم كيف كانت البيئه المصريه مشغولة بحوادثها الكثيره الى أواخر القرن الماضى عن القصه . ولكن هذه الأحداث الكثيرة فى تلاحقها ، وخطورتها ، وحرارتها كانت فى الوقت نفسه باعثا قوياً على إيجاد فنين آخرين من فنون الأدب وهما :—

فن المقاله أولا ، وفن القصيده بعد ذلك .

وكما كانت الصحافه ذات أثر بالغ فى (القصه) من حيث اتجاهها ، ومن حيث أسلوبها . فكذلك كانت الصحافه ذات أثر بالغ فى « القصيده » من حيث غرضها ، ومن حيث لغتها ، ومن حيث الدور الذى أدته للبيئه المصرية فى ميدان السياسه ، والأدب ، والمجتمع .

ونحن نعلم أن كلا من المقالة والقصيده أثر أدبى قصير الطول ، لا يحتاج فى قراءته إلى الوقت الذى تحتاج اليه القصه .

ومن ثم كان الأثران الأولان : وهما القصيده والمقال ملاءمين للبيئه المصريه فى تلك الفتره أكثر من أية فترة سبقتها .

ولكى تفهموا معى الدور الذى لعبته الصحافه فى ميدان الشعر لابد أن انتقل بأذهانكم مرة أخرى إلى شىء من الأجواء الفكريه والسياسيه التى أحاطت بجميع الفنون الأدبيه . وإن نظرة واحدة إلى الحركة الشعرية التى بدأت فى النصف الثانى من القرن الماضى ، واستمرت الى أوائل القرن الحالى لتدلنا دلالة لا تقبل الشك على أن الشعراء كالكتاب شاركوا فى جوانب النهضه المصريه : سياسيه كانت أم فكريه أم أدبيه أم اجتماعيه .

ولكن ايهما سبق الآخر فى الدعوة إلى هذه النهضه فى كل ميدان من

الميادين التى تشير اليها ؟ الصحافى أم الشاعر ؟

لقد قلنا عن القصه المصريه انها لم تكن حدثا مفاجئا فى عالم الأدب . بل كانت لها مقدماتها التى مهدت لها، ومنها الصحافه ، وكذلك نقول عن القصيده الشعرية إنها انتقلت من طور الى طور ، ومن حال الى أخرى بسبب الصحافه .

وهل كان هناك طريق أضمن ، أو أسرع ، أو أيسر من طريق الصحيفه اليوميه التى تنقل للشعب — أو للطبقه المستنيرة منه على الاقل — آراء قادته وأفكار الصفوة المهذبه من مفكريه ؟

ان الصحيفه ما زالت الى اليوم هى الطريق السريع الى شهرة الأديب، سواء كان كاتبا أم شاعرا أم فيلسوفا أم عالما . والفرق عظيم جدا بين الشاعر الذى وجد قبل ظهور الصحافة والشاعر الذى وجد بعد ظهور هذه الأداة الجديدة من أدوات التفاهم بين الناس ، وهى الصحافه .

أما الشاعر القديم فكان لا يخاطب بشعره الا طبقه بعينها ، هى طبقة المثقفين بالثقافة الأدبيه واللغويه العالية التى تعين على فهم الشعر وتذوقه . وهذه الطبقة المعينه قليلة جدا بطبيعتها فى أية أمه من الأمم .

وأما الشاعر الحديث — وهو الشاعر الذى اتخذ من الصحيفة مسرحا لشعره وبوقا لنظمه — فإنه اصبح يخاطب بهذا الشعر ملايين البشر فى وطنه الذى يعيش فيه ، وفى غيره من الأوطان التى تتكلم لغته ، وتستطيع أن تحصل على صحيفته . واذن فقد أصبح على الشاعر الحديث أن يحسب فى شعره الذى ينظمه حسابا لهذه الملايين من القراء الذين يراد لهم أن يقرأوا هذا الشعر . فان فهموه ربح الشاعر وشعره معه ، وإن لم يفهموه خسر الشاعر وشعره معه . فكأن شهرة الشاعر رهن بقرائه فى الصحيفه دائما . ومن ثم وجب عليه أن يقدم لهم فى هذه الصحيفة ما يلائم عقولهم ، ويتفق وأمزجتهم ويعبر عن آرائهم وأفكارهم فى ميدان السياسة أو المجتمع .

وأي فرق يكون في هذه الحالة بين القصيدة والمقالة ؟

ان المقالة لا تهدف الا الى مثل هذه الغايه . أليست المقالة عبارة عن حديث من الأحاديث فى مشكلة من المشكلات يسوقه الكاتب — لا فائدته هو — ولكن لفائدة المجموع ، ولا للتعبير عن ذاته هو ، ولكن للتعبير عن ذات المجموع ؟

وعلى هذا فالقصيدة الشعرية فى أدبنا الحديث إنما هى مقال منظوم . لا منثور ، به يخاطب الشاعر الجماهير ، ويحرص على أن يكون صدى لعواطفهم ومشاعرهم ، وصورة من رأيهم وفكرتهم . وبهذا وحده يضمن الشاعر لقصيدته السيروره والذيوع . وتلك هى الغاية التى من أجلها تنشر قصيدته فى الصحيفة ليقرأها أكبر عدد من الناس .

ولقد كان لهذه الظاهرة فى حياة الشعر المصرى الحديث نتائج خطيرة من حيث الاسلوب ونتائج خطيرة من حيث الموضوع . وذلك منذ اصبح الشاعر الحديث لا ينشر شعره فى حضرة الأمير وحاشية الأمير ، ويعمل حسابا لهذه الحاشية وحدها غالبا . ولكن أصبح هذا الشاعر الحديث يعنى بالجماهير ، ويقدر فى نفسه دائما أن شعره هذا سيجوب بلادا كثيرة ، ويصل الى آفاق بعيدة . فعليه إذن أن يراعى العواطف العامه ، وعليه إذن أن ينسى نفسه فى شعره بعض الشىء . ومعنى ذلك أن الشعر الحديث لم يعد قيثارة الشاعر الغنائى يتسلى بها ، ويتخذ منها أداة للتعبير عن مشاعره هو بصرف النظر عن مشاعر الجمهور .

وهكذا فقد الشعر الغنائى الحديث — أو كاد يفقد فى الحقيقه — أول شرط من شروطه فى الزمن القديم ، وهو (الذاتيه) . ومعناها عناية الشاعر بذاته أولا بدون نظر الى ذوات الغير .

نعم — كان لهذه الظواهر كلها فى حياة الشعر الحديث نتائج خطيره من حيث الاسلوب ، ونتائج خطيرة من حيث الموضوع :

أما من حيث « الأسلوب » فإن لغة القصيدة ، قربت قربا ظاهرا من لغة

المقـالة . فأوجب الشاعر على نفسه أن تـكون ألفاظه سهله قدر المستطاع، وألا تشتمل قصيدته على ألفاظ غريبة كل الغرابه ، أو معان مستغلقه كل الاستغلاق .

وفى هذا المجال الأخير ــ مجال الغرابة فى اللفظ والمعنى ــ كان الشعراء القدامى يتنافسون ، أيهم يأتى بذلك ، فهو الشاعر الذى يروع السامعين .

ثم ان القصيدة الشعريه الحديثة أصبحت توجه الى الجماهير ، وكأنها خطبة من الخطب . وبدت عليها خصائص الخطابة: من إيراد لضمائر الخطاب وأحرف النداء ، الى اكثار من أفعال الأمر وأسماء الاشارة ونحو ذلك . وسنرى أمثلة كثيرة من كل ذلك فى شعر حافظ ، وشوقى ، وغيرهما من شعراء الحلبة التى سنشير اليها .

وأما من حيث (الموضوع) فقد أصبح كل شاعر حديث يصور عواطف الأمة المصرية قبل أن يصور عواطفه الخاصة ، ويعبر عن آمالها وعن آلامها أكثر مما يعبر عن آماله وآلامه . ولذلك أصبحنا لا نفهم الشاعر الحديث الا اذا كانت لنا ثقافة سياسيه وتاريخية لا تقل عن ثقافتنا اللغويه والنقديه . وبغير هذا وذاك يبخس الشاعر حقه ، ولا نتجاوب معه فى كثير أو قليل .

وكذلك الشأن حين نريد أن نعلل لما نسميه فى أدبنا الحديث (بشعر المناسبات . فان هذه المناسبات ليست غير الحوادث الجارية التى تحدث للأمة، وتحرك أقلام الصحفيين فيها يوما بعد يوم،وتحثهم على الكتابة حثاً ، ولا تمهلهم عنها حتى يفكروا طويلا ، او يسترسلوا مع عواطفهم وخواطرهم ومشاعرهم ، كما يفعل الشاعر أو الأديب المنقطع للأدب وحده .

وكما تثير الحوادث والمناسبات فى نفس كتاب الصحف نشاطا من نوع خاص ، وتدفعهم إلى الكتابه على نحو خاص ، فكذلك تفعل الحوادث والمناسبات بنفوس الشعراء ، فتضطرهم دائما إلى نظم القصائد فى كل حادثه أو مناسبة . ويحس الشاعر فى هذه الحالة أن الجمهور ينتظر منه القصيدة ، كما ينتظر المقال من صاحب الجريدة .

وهكذا اشتركت القصيدة مع المقال فى التعبير عما يسمى « بالرأى العام » وكفى بهذا تطورا فى عالم الشعر ، وانقلابا فى دنيا القصيد ، وكفى به داعيا إلى المساجلات الشعرية التى كثيرا ماتشبه المساجلات الصحفيه ، وقد لا تستغنى الصحف ذاتها عن هذين النوعين من المساجلة.

لهذه الاسباب المتقدمة كلها وجدنا القصيدة الشعريه فى ادبنا الحديث تسبح فى نفس المحيطات الى سبحت فيها المقالة الصحفية .

ومن اهم هذه المحيطات اثنان وهما :

أولا – محيط الاصلاح الاجتماعى .

ثانيا – محيط الحركة الوطنية .

وسنقف عند الموضوع الأول منهما أولا لنرى كيف كان الشعراء تابعين فيه لرجال الصحف . وكيف كان الشعراء يعتبرون أنفسهم افرادا من اسرة الصحيفه دائما ، عليهم ما على الأسرة من واجبات ، ولهم مالها من أهداف وغايات .

الشعر والاصلاح الاجتماعى

فى كلامنا عن القصة الاجتماعيه فى مصر مهدنا لذلك بذكر مفاسد المجتمع المصرى الى لحقته منذ اتصاله بالحضارة الاوروبية . وكان من ذنوب هذه الحضاره هجومها العنيف على الاسلام ، واذاعة بعض الاخلاق والعادات التى تنافى أحكامه ، ولا تتفق وروحه . وقد أفضى ذلك بالمصلحين فى مصر إلى أمرين :

أولهما – الدعوة الى الاستمساك بالدين الصحيح ، وتنقية هذا الدين من البدع والخرافات والاوهام التى علقت به .

ثانيهما – محاولة النظر فيما جلبته الحضارة الاوروبيه على الشرق من أفكار

وعادات . فما كان منها مفيدا أخذ به ، وما كان منها ضارا مشينا بسمعة مصر والشرق نبذه القوم ،واقلعوا عنه .

وقد نشر المصلحون دعوتهم هذه فى الصحف . واتسع صدر الصحافة يومئذ لألوان كثيرة من الاصلاح . وسنرى فى الفصل الذى نتحدث فيه عن المقال كيف احتلت الدعوة الى الاصلاح مكان الصدارة من جميع الجرائد على اختلافها ، وتعدد نزعاتها .

وجاء الشعراء فألفوا من أنفسهم الصف الثانى من صفوف الاصلاح الاجتماعى فى مصر .فكان كلما ارتفع صوت من اصوات المصلحين بمعنى من المعانى أو فكرة من الأفكار، سمع الناس بعد ذلك صوت الشاعر الذى يردد هذه النغمة نفسها ويستحوذ على عقول الجماهير بهذا الصدى بعينه. وآية ذلك أنك لاترى ديوانا من دواوين الشعر الحديث الا وفيه باب خاص باسم « الاجتماعيات » ؛ وإذا ذهبت تؤرخ لما اشتمل عليه هذا الباب من القصائد وجدت أن كل واحدة منها نشرت على اثر مقال أو مقالات فى معنى هذه القصيدة بالذات فيدل ذلك على ماسبق ان اشرنا اليه من أن الشاعر كان يعتبر نفسه إذ ذاك فردا من أفراد الاسرة الصحفية ، له مالهم ، وعليه ما عليهم من الواجبات الجسام .

والآن لنستمع إلى شاعر من الشعراء ، وهو (محرم) يدعو إلى الاستمساك بالدين فى عصر غلب عليه المروق من الدين ، وصغت القلوب لى داع من الغرب يدعو إلى نبذ الديانة الاسلامية التى أصابت - فى زعمه - الشرق الاسلامى كله بالهزيمة والتأخر . يقول محرم فى هذا المعنى :

تذكر ماضى دينه فتوجعا   وأحزنه ما نابه فتوجعا

وأهلكه من قومه أن قومه   بعمياء يأبى غيمها أن يقشعا

همو ضيعوا ما استودعوا من نفائس

أراها بأيدى القوم نهبا موزعا

وهم خذلوا الدين القويم وزعزعوا جوانبه حتى وهى وتضعضعا
هو الدين إن يذهب فلا عز بعده وإن جد ساعينا على أثر من سعى

وما زال هذا الاتجاه فى الشعر يقوى مع الأيام حتى بلغ أشده عند شوقى فى « نهج البرده » ، « وفى الهمزية » التى مدح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفى غيرهما من القصائد التى أصبحت فى أيامنا هذه محفوظة من جميع الناس .

أما تنقية الدين من الخرافات فقد وقع العبء الاكبر فى هذه الناحية من نواحى الاصلاح — كما سنرى بعد — على كتف الشيخ محمد عبده . ثم تبعه فى ذلك الكتاب والشعراء :

وانظروا إلى (حافظ ابراهيم) وهو يسخر من « أضرحة الأولياء »

أحياؤنا لا يرزقون بدرهم وبألف الف ترزق الأموات
من لى بحظ النائمين بحفرة قامت على أحجارها الصلوات
يسعى الانام لها ويجرى حولها بحر النذور وتقرأ الآيات
ويقال هذا القطب باب المصطفى ووسيلة تقضى بها الحاجات (١)

واستمعوا إلى « الكاشف » يصور لنا كذلك جهل الناس واتباعهم لمشايخ الطرق :

كل يوم نرى وتسمع مهديا ينادى فى قومه اتبعونى
موهما انه رسول من الله أتى يستعيد مجد الدين
وهو خال من التجارب والقو ة والعلم والهدى واليقين
فإذا التف حوله الناس أغرا هم بإيقاد كل شر كمين
وادعى أنه بذلك مأمو ر من الوحى كالنبى الأمين (٢)

---

(١) ديوان حافظ ط دار الكتب المصرية ص ٣١٨ .

(٢) ديوان الكاشف ج ١ ص ٨٠

أما المفاسد الخلقيه التى أتت بها الحضارة الاوروبية فقد ندبها شعراء كثيرون، كان من أشهرهم كذلك حافظ ابراهيم . وقد كانت «الازبكيه» فى نظر ذلك الجيل بؤرة الفساد الذى غرق فيه الشباب المصرى إلى أذنيه ، وانفق فى سبيله كل ماله . حتى لقد قيل إن بالقطر المصرى كذا مليونا من الأفدنة ، ولكن قطعة صغيرة من الأرض - هى أرض الازبكيه - تبتلع ريع كل هذه الملايين من الافدنه . واستمعوا الى حافظ ابراهيم يخاطب الازبكية بقوله لها :

كم وارث غض الشباب رميته ... بغرام راقصة وحب هلوك

ألبسته الثوبين فى حاليهما ... تيه الغنى وذلة المفلوك (١)

ويقول من قصيدة اخرى فى المعنى المتقدم وفى حض الشباب على العمل وترك الكسل (٢)

أنابتة العصر ان الغر ... يب مجد بمصر فلا تلعبى

يقولون فى النشء خير لنا ... وللنشء شر من الاجنبى

أفى الازبكيه مثوى البنـ ... ـين وبين المساجد مثوى الادب؟

وكم ذا بمصر من المضحكا ... ت كما قال فيها أبو الطيب

فشعب يفر من الصالحا ... ت فرار السليم من الاجرب

وصحف تطن طنين الذبا ... ب واخرى تشن على الاقرب

وقالوا : دخيل عليه العفا ... ء ونعم الدخيل على مذهبى

رآنا نياما ولما نفق ... فشمر للسعى والمكسب

ألفنا الخمول ويا ليتنا ... ألفنا الخمول ولم نكذب الخ

---

(١) ديوان حافظ ابراهيم ط دار الكتب ص ٣١٤

(٢) نفس المصدر ص ٢٥٧

وفى هذا المعنى الاخير، وهو الحض على العمل وترك الكسل يقول صبرى قصيدته التى أولها :

لا القوم قومى ولا الأعوان أعوانى إذا ونى يوم تحصيل العلا وانى

ومنها :

لا تقربوا النيل ان لم تعملوا عملا فماؤه العذب لم يخلق لكسلان
وابنوا كما بنت الأجيال قبلكمو لا تتركوا بعدكم فخراً لانسان

وكان من أسوأ آثار الحضارة الاوروبية تعلق الشبيبة المصرية باللغة الفرنسية ، وإيثارهم لها على اللغة العربية ، ورميهم هذه اللغة بالقصور عن مسايرة الحضارة فى ركبها ، والعلم فى تقدمه ، فبرز من الصفوف حافظ ابراهيم يدافع عن العربية — لغة القرآن والسنه — وذلك فى قصيدته المشهورة التى جعل فيها اللغة العربية تنعى حظها بين أهلها وتقول : (١)

رجعت لنفسى واتهمت حصاتى وناديت قومى واحتسبت حياتى
رمونى بعقم فى الشباب وليتنى عقمت فلم أجزع لقول عداتى
ولدت ولما لم أجد لعرائسى رجالا وأكفاء وأدت بناتى
وسعت كتاب الله لفظا وغاية وما ضقت عن آى به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة وتنسيق اسماء لمخترعات ؟

ومن العادات القبيحة التى سرت من الأوروبيين إلى الشرقيين عادة « القمار » و « المضاربات المالية » ونحوهما من العادات الأجنبية . وقد رأيتم فى الكلام عن « القصة الاجتماعية » كيف اخذت الصحف الشعبية تحارب هذه الادواء محاربة لا هوادة فيها : وقد كان لزاما على الشعراء أن يفعلوا مثل ذلك . وهذا أحدهم — وهو الشيخ نجيب الحداد يقول فى ذم القمار (٢) :

هو الداء الذى لا برء منه وليس لذنب صاحبه اغتفار
تشاد لهم المنازل شاهقات وفى تشييد ساحتها الدمار

---

(١) المصدر المتقدم ص ٢٥٣

(٢) عادل الغضبان : الشيخ نجيب الحداد ص ٥٧

يصيب النازلين بها سهاد فافلاس فيأس فانتحار
قد اختصروا التجارة من قريب فعدم فى الدقيقه أو يسار
فبئس المال لا تحظى يمين به حتى تسلمه اليسار

ويصف الشاعر (عائلات) المقامرين فيقول :

فكم تركوا النساء تبيت تشكو وتسعدها الأصيبية الصغار
تبيت على الطوى ترجو وتخشى يؤرقهـــا السهاد والانتظار
فبئست عيشة الزوجات حزن وتسهيد وهجر وافتقار الخ

* * *

وظهر كتاب قاسم أمين (تحرير المرأة) ، ونشره الكاتب فصولا متتابعة بصحيفة المؤيد ، وكان له تأثير كبير فى الأدب كما رأينا . ومنذ ذلك الوقت والشعراء يتبعون قاسم أمين فى الدعوة إلى تعليم الفتاة ، وكلما أنشئت مدرسة للبنات انتهزها الشعراء فرصة لاطراء هذا الاتجاه . من ذلك ما قاله حافظ احتفالا بانشاء مدرسة البنات ببور سعيد عام ١٩١٠ . (١)

كم ذا يكابد عاشق ويلاقى فى حب مصر كثيرة العشاق
إنى لأحمل فى هواك صبابة يامصر قدخرجت عن الأطواق
من لى بتربية النساء فانهـا فى الشرق علة ذلك الاخفاق
الأم مدرسة اذا أعددتها أعددت شعباً طيب الاعراق
الأم روض إن تعهده الحيا بالرى أورق أيما إيراق
الأم استاذ الأساتذة الألى شغلت مآثرهم مدى الآفاق

ومنها :

لبست نساؤكمو حلى وجواهرا خوف الضياع تصان فى الأحقاق
ليست نساؤكمو أثاثا يقتنى فى الدور بين مخادع وطباق
تتشكل الأزمان فى أدوارهـا دولا وهن على الجمود بواقى الخ

ألا — وما أشبه هذه الانفاظ والمعانى بمثيلاتها فى مقالات قاسم أمين ولطفى السيد وطلعت حرب ومن اليهم .

* * *

وثم دعوة من دعوات الاصلاح ترمى الى العطف على الطبقات الفقيرة

(١) ديوان حافظ : دار الكتب المصرية

والانسانية المعذبة على حد تعبير الصحف فى وقتنا الحاضر . كالعطف على الفلاح والعامل ، والشفقة على اليتيم والمسكين ، والاعمى ، والاصم ، والمطالبة لهؤلاء جميعا بحقهم على الحكومة وعلى الشعب ، من نحو انشاء الملاجىء والمستشفيات والمعاهد التى تعنى بالشواذ من الناس ونحو ذلك .

وسأكتفى بأن أضرب هنا مثلا واحدا فقط ، من شعر حافظ ، وهو قوله فى حفل اقامته (جمعية رعاية الاطفال) بدار الاوبرا . وذلك فى ١٨ ابريل سنة ١٩١٠ (١)

شبحا أرى أم ذاك طيف خيال ... لا بل فتاة بالعراء حيالى
أمست بمدرجة الخطوب فما لها ... راع هناك وما لها من والى
حسرى تكاد تعيد فحمة ليلها ... نارا بأنات ذكين طوال
ما خطبها ؟ عجبا ـ وما خطبى بها ... مالى أشاطرها الوجيعة مالى ؟
دانيتها ولصوتها فى مسمعى ... وقع النبال عطفن إثر نبال
وسألتها من أنت ؟ وهى كأنها ... رسم على طلل من الأطلال
فتململت جزعا وقالت : حامل ... لم تدر طعم الغمض منذ ليالى
قد ابت والدها وماتت أمها ... ومضى الحمام بعمها والخال الخ

وسرت دعوة العطف على الطبقات الفقيرة فى الصحف والمجلات ، وأقبل الشعراء يحتذون الكتاب فى ذلك : ، وطفقوا يأخذون معانى الكتاب فى كل ذلك . وانظر هنا إلى شعر شوقى فى همزيته التى مدح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول :

الاشتراكيون أنت إمامهم ... لولا دعاوى القوم والغلواء
أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى ... فالكل فى حق الحياة سواء
فلو أن إنسانا تخير ملة ... ما اختار إلا دينك الفقراء الخ

فأين هذا كله من معانى الشعراء القدماء ؟ أن هذا لمن وحى الصحافة وحدها

---

(١) المصدر المتقدم ص ٢٧٥

وأنه لمن بعض ألفاظها وأساليبها ، وأنه لأبعد ما يكون من قول شاعر كجرير :

وإنى لعف الفقر مشترك الغنى سريع إذا لم أرض دارى انتقاليا

* * *

أما مشروع (الجامعه المصرية) - وهو أثر من اثار (دنشواى) - فقد نادى به مصطفى كامل بعد هذا الحادث إذ ما كاد يهزم الانجليز هزيمة نكراء فى هذه القضيه حتى تحمس الزعيم الشاب للاصلاح الاجتماعى وأمعن فى مطالبه الوطنيه التى كان من أهمها يومئذ مشروع الجامعه .

قال حافظ فى قصيدة له ألقاها فى المحفل الماسونى لمشروع الجامعة المصريه. وذلك فى ١٩ مارس سنه ١٩٠٧ وفى هذه القصيدة يندد حافظ بسياسة الاحتلال التى قامت على العناية فقط بالإكثار من الكتاتيب العامة(١)

ان كنتموا تبدلون المال عن رهب فنحن ندعوكمو للبذل عن رغب (٢)
ذر الكتاتيب منشيها بلا عدد ذر الرماد بعين الحاذق الأدب
فأنشأوا ألف كتاب وقد علموا أن المصابيح لا تغنى عن اللهب
هبوا الأجير أو الحراث قد بلغا حد القراءة فى صحف وفى كتب
من المداوى اذا ما علة عرضت من المدافع عن عرض وعن نشب؟
ومن يروض مياه النيل ان جمحت وأنذرت مصر بالويلات والحرب؟
ومن يوكل بالقسطاس بينكمو حتى يرى الحق ذا حول وذا غاب؟
ومن يميط ستار الجهل ان طمست معالم القصد بين الشك والريب؟
فمالكم أيها الاقوام جامعة الا بجامعة موصولة النسب الخ

* * *

وقد شغل المجتمع المصرى زمانا بطائفة من القضايا السياسيه والاجتماعيه كتبت عنها الصحف الشعبيه ، وشغلت بكتاباتها الرأى العام ، واصبحت حديث الخاصة والعامة فى تلك الأيام .

ومن هذه القضايا على سبيل المثال : قضية الزوجية للسيد على يوسف(٣)

---

(١) المصدر السابق ص ٢٦٥

(٢) فى هذا البيت سخرية من سياسة اللورد كرومر التى قضت بتسخير العمد والمشايخ والأعيان لجمع المال بالقوة بحجة إنشاء الكتاتيب .

(٣) اقرأ عنها فصلا مسهبا فى كتاب أدب المقالة الصحفية فى مصر للمؤلف ج٤ ص ١١٠-١٢١

وقضية التلغرافات للمؤيد ، وقضية المنشاوى ، وقضيه النديم الخ

ونحن نقول دائما ان الشعر كان لا يسعه السكوت عن المشاركة فى كل ما يتصل بالمجتمع . شأنه فى ذلك شأن الصحافة سواء بسواء . وسنضرب هنا مثلا واحدا فقط من شعر حافظ فى قضية الزوجية التى أشرنا اليها

وخلاصة هذه القضية أن السيد على يوسف صاحب — المؤيد أراد أن يصهر إلى بيت من أعرق البيوتات المصرية ، هو بيت السادات . وتم عقد الزواج فى ١٤ يوليه سنة ١٩٠٤ . فلما علم والد الزوجه — هو السيد عبد الخالق السادات — بهذا العقد الذى تم بمنزل السيد توفيق البكرى رفع دعوة التفرقة بين الزوجين ، مدعيا عدم أهلية السيد على يوسف لابنته . ومنذ ذلك التاريخ اتخذت هذه القضية نوعا من الأهميه . وذلك لأسباب أربعة نجملها فيما يلى :

أولا - أن القضيه مست من قريب أعز شىء على نفوس المصريين وهو التقاليد .

ثانيا — أن الوكالة البريطانيه — لأمرما — أقحمت نفسها فى الموضوع ومالت الى جانب السيد على يوسف ، ظنا منها أنها تكسب المؤيد الى صفها ، كما كسبت من قبل جريدة المقطم .

ثالثا أن موقف القضاء الشرعى من هذه القضيه كان أميل الى النزاهة والعدل مما أثار حمية المسلمين من المصريين ، وحرك اعجابهم . واستولى على مشاعرهم .

رابعا أن التحقيق فى هذه القضيه تعرض لموضوع هام يتصل بالصحافه أقوى اتصال ، وهو قيمة الرجل الذى يحترف الصحافة فى مصر ، وهل مهنة الصحافة من المهن التى تستحق الاحترام من حيث هى ؟

من أجل هذه الاعتبارات المتقدمه نظر الناس الى هذه القضية على أنها سياسيه ، واجتماعيه ، وصحفيه فى وقت معاً .

واشار اليها حافظ — كما قلنا — فى بعض قصائده فقال (١)

وقالوا (المؤيد) فى غمرة رماه بها الطمع الاشعبى
دعاة الغرام بسن الكهو ل فجن جنونا ببنت النبى

---

(١) ديوان حافظ ابراهيم ط : دار الكتب المصرية ص ٢٥٨

فضج لها العرش والحاملو ه وضج لها القبر فى يثرب
ونادى رجال باسقاطـه وقالوا : تلون فى المشرب
وعدوا عليه من السيئا ت ألوفا تدور مع الأحقب
وقالوا لصيق بنت الرسو ل أغار على النسب الأنجب
وزكى (أبو خطوة) قولهم بحكم أحـد من المضرب(١)
فما للتهـانى على داره(٢) تساقط كالمطـر الصيب
وما للوفـود على بـابه تزف البشائر فى موكب
ومـا للخليفة أسدى اليه وساما يليق بصدر الأبى الخ

وخفت الصحف للكتابة فى هذه القضية الشرعية لأنها مست العواطف المصرية ،ولان صاحب المؤيد تخطى فيها بعض التقاليد القوميه . ثم أتى الشعراء فعز عليهم الا تكون لهم مشاركة قويه فى هذه المسألة. فاكثروا من القول فيها : منهم من كان فى صف صاحب المؤيد ومنهم من وقف ضده وناصبه العداء ، وأظهر فيـه الشماتة .

ومن هؤلاء الذين شمتوا فيه ابرهيم المويلحى صاحب جريدة (مصباح الشرق) وغيره (٣)

* * *

إيه ــ ربة الشعر ــ نقد كنت فى الأزمان السابقة تعيشين فى قصر من ذهب ، وذلك فى كنف أمير أو وزير ، أو قائد خطير ، وكنت لا تنزلين إلى الدهماء فى بيوتهم وأسواقهم الا نادرا . وإذا نزلت اليهم عدوا ذلك عيبا عليك ، وخطأ منك !

أما اليوم فقد خرجت ـ ربة الشعر ـ من هذا القفص ، ومشيت مع العامه فى النوادى والطرق ، وأحسست لذة لا تعدلها لذه فى هذه الحياة الجديدة التى جاريت فيها الصحف .

ايه ــ ربة الشعر ــ لقد كنت فى الأزمان السابقه تكلفين بالمدح ، وبالرثاء الذى هو نوع من المدح أيضا ، وكنت تمدحين الأمير وحاشية الأمير وكنت كثيرا ما تقفين موقف الزلفى والخضوع والملق والرياء لهؤلاء جميعا .

---

(١) الشيخ أبو خطوة هو القاضى الذى حكم فى قضية الزوجية
(٢) الضمير عامد على السيد على يوسف
(٣) ومن هؤلاء كذلك اسمعيل صبرى ، وولى الدين يكن ، وأحمد نسيم .

أما اليوم فقد أصبح للمدح أو الرثاء عندك معنى جديد ، وصورة جديدة أصبحت تمدحين الفرد على أنه جزء من المجتمع ، وأصبحت ترثين الفرد لأنه كذلك جزء من هذا المجتمع .

ومن ثم غدت قصيدة المدح فى العصر الحديث وكأنها أشبه شىء بالخطبة التى تلقى فى المحافل العامة على عدد كبير من الجمهور . وبعد ان كان المدح فى العصور التى سبقت هذا العصر الحديث يراد به الحصول على المال ، والزلفى الى ذوى الجاه والسلطان أصبح المدح فى العصر الحديث لا يراد به الا إرضاء الجماهير التى تشارك الشاعر والصحافى فى تقديره الزعيم ، أو العظيم ، أو الرجل الخطير ، من أجل أنه كان يؤدى لأمته خدمة عجز عنها غيره من المواطنين القادرين ؟

٧

شعر الحركة الوطنية وعلاقته بالصحافة

تعلمون أن الزعيم الشاب – مصطفى كامل – هو بحق باعث الحركة الوطنية فى مصر . وما كانت الحركات التى حدثت قبل ذلك – فى واقع الأمر – الا حركة دستورية من جانب وحركة قومية من جانب آخر . وليس أحد هذين المعنيين هو المقصود بكلمة الحركة الوطنية فى محاضرة اليوم .

من أجل ذلك صحب الحركة الوطنية طائفة من الشعراء . من أهمهم اسمعيل صبرى ، وحافظ ابراهيم ، وأحمد شوقى والغاياتى ، ومحرم ، والكاشف . أما الشعر الذى ظهر قبل ذلك فلم يكن الا هتافا بحب الوطن حينا – كما كان الشأن مع رفاعه رافع الطهطاوى (١) وحنينا الى الوطن وشوقا اليه حينا آخر ، كما كان الشأن مع البارودى (٢) وإشادة بعظمة الوطن ، وإثارة لهمم أبنائه حينا ثالثا . – كما كان الشأن مع عبد الله النديم (٣) ونقدا لسياسة اسمعيل حينا رابعا – كما كان الشأن مع صالح مجدى (٤) وهو أحد تلاميذ رفاعه الطهطاوى . وليس هذا كله من الشعر المتصل بالحركة الوطنية التى بعثها مصطفى كامل .

ومع هذا وذاك فلا بأس من ايراد أبيات لصالح مجدى ، على سبيل المثال: قال فى اسمعيل وهو فى سطوته وجبروته قبل عزله عن حكم مصر :

رمى بلادكمو فى قعر هاوية ... من الديون على مرغوب جوسيار (٥)
والمرء يقنع فى الدنيا بواحدة ... من النساء ولم يقنع بمليار
ويكتفى ببناء واحد وله ... تسعون قصرا بأخشاب وأحجار
فاستيقظوا لا قال الله عثرتكم ... من غفلة ألبستكم ذلة العار الخ

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : شعراء الوطنية ص ٩
(٢) نفس المصدر ص ٢٧
(٣) نفس المصدر ص ٢٧
(٤) الاتجاهات الوطنية : لمحمد حسين ص ١٣٦
(٥) لعل جوسيار اسم لأحد مستشارى اسماعيل من الأجانب

وصالح مجدى كذلك هو القائل فى استنهاض الهمم ضد التدخل الاجنبى فى مصر فى عهد اسماعيل :

فلو كان فينا نخوة عربية ... لملنا على أعدائنا بالصوارم
فيا آل مصر لا تناموا ودافعوا ... عن الدين والأوطان أهل المحارم
أمن بعد ما كنتم شموس معارف ... كسفتم وأصبحتم شبيه البهائم
وعشتم بذل بعد جاه وعزة ... ودارت عليكم دائرات المظالم[1]

والحق أن الحركة الوطنية فى مصر بدأت عقب تولية الخديوى عباس حلمى الثانى سنة ١٨٩٢ ، أو عقب تشوب الخلاف بين السلطة الشرعيه ممثلة فى هذا الأمير ، والسلطة الفعليه ممثله فى اللورد كرومر . وكان طبيعيا أن يأخذ الشعب المصرى بمختلف طبقاته جانب الخديو ضد المعتمد البريطانى . وتقوى الخديو بهذا العطف الذى لقيه من الشعب ، وأخذ يعارض اللورد كرومر فى كثير من آرائه وقراراته أول الأمر . وشعر الأخير منذ اللحظة الأولى بذلك ، فكتب إلى اللورد سالسبورى - وزير الخارجية الإنجليزية يومئذ - يقول :

« إنى أرى أن الخديو الشاب سيكون مصريا بحتا »[2] ومعنى ذلك أن عباسا سيكون من طراز آخر غير طراز والده توفيق الذى كان ألعوبة فى أيدى الانجليز !

الاتفاق الودى

وبقى عباس مخلصا للحركة الوطنية الى أن حدثت الكارثة العظمى بالاتفاق الودى بين انجلتره وفرنسا سنة ١٩٠٤ وفى هذا الاتفاق يقول حافظ إبرهيم معبرا عن يأسه ويأس المصريين الذين أخذوا يتذبذبون بين الأمير والسفير :

حطمت اليراع فلا تعجبى ... وعفت البيان فلا تعتبى
فما أنت يا مصر دار الأديـ ... ـب ولا أنت بالبلد الطيب
وكم فيك يا مصر من كاتب ... أقال اليراع ولم يكتب

(وفى هذا إشارة إلى أن الكتاب الصحفيين أصابتهم نكسة صحفية تأثر بها الشعراء فى ذلك الحين)

فلا تعذلينى لهذا السكو ... ت فقد ضاق بى منك ما ضاق بى

---

(١) ديوان صالح مجدى ص ٢٧٥ (٢) عباس الثاني : كتاب لكرومر ص٤

أيعجبنى منك يوم الوفا ق سكوت الجماد ولعب الصبي
وكم غضب الناس من قبلنا لسلب الحقوق ولم تغضبي
أمـور تمـر وعيش يمـر ونحن من اللهو فى ملعب
وهـذا يلوذ بقصر الامير ويدعو إلى ظله الأرحب
وهذا يلوذ بقصر السفير ويطنب فى ورده الأعذب
وهذا يصيح مع الصائحين على غير قصد ولا مأرب(١)

ومنذ ذلك الوقت تنكب الأمير الشاب عن الطريق . وشعر بقوة الانجليز، وأخذته رهبة منهم ،فآثر السلامة والعافية . ولم يكتف بذلك حتى وعز إلى شاعره يومئذ(أحمد شوقى) فنشر حديثا (بالمؤيد) سنة ١٩٠٨ يعتذر فيه بلسان الامير عن إصدار الدستور لأن الأمة لم تبلغ بعد من النضج الصحيح مايؤهلها للدستور .ولان الامير أصبح لايستطيع أن يصدر الدستور بغير رضاء الإنجليز، . وإذ ذاك انبرى للامير وشاعره معاً شاعر الوطنية المصريه يومئذ ، وهو الغاياتى فقال(٢)

أعباس هذا آخر العهد بيننا فلا تخش منا بعد ذاك عتابا
أيرضيك فينا أن نكون أذلة ننال إذا رمنا الحياة عقابا
وأرضيت أعداء البلاد وخصمها وأصليتنا بعد الوفاق عذاباً
رويدك ياعباس لا تبلغ المدى ولا تستمع للظالمين خطابا الخ

خطبة رياض

والحق أن محنة عباس جاءته كذلك من ناحية نظاره « وكان يتولى سفينة الحكم فى هذا البحر الهائج المتلاطم طائفة من النظار الذين وزروا له . وكان بعضهم يخضعه الخوف ، وبعضهم يخضعه المال ، وبعضهم يكتم فى نفسه حسن الرأى . وكان من اولئك النظار مصطفى فهمى ، ومصطفى رياض ، ونوبار ، وبطرس غالى »(٣)

---

(١) ديوان حافظ ابراهيم ص ٢٥٦

(٢) ديوان الغاياتي (وطنيتى) ص ٦٨

(٣) أدب المقاله الصحفية فى مصر ج ٤ ص١٥

خطب أحدهم — وهو رياض — فى حفل أقيم بمناسبة إنشاء مدرسة محمد على الصناعية(١) خطبة طويلة أثنى فيها على اللورد كرومر، وأسند اليه وحده الفضل فيما أصاب مصر من تقدم. وعلق السيد على يوسف فى (المؤيد) على هذه الخطبة الغريبة فقال: إن العادة جرت أنه اذا شرف الاحتفال الجناب العالى أمير البلاد المعظم اقتصر الخطباء — رسميين أو غير رسميين — على ذكر العناية الالهية التى شملت هذا المشروع من سموه. ولا تذكر يد سواها معها بالشكر والثناء.. الخ »(١)

ومنذ قرأ الناس هذا المقال بجريدة المؤيد واصبح له صدى ما فى الرأى العام انبرى الشعراء، وخاصة منهم شاعر القصر - يعبرون بقصائدهم عن هذا المعنى. وشاعر القصر إذذاك هو « شوقى » الذى قال بعنوان « خاتمة رياض »(٢)

كبير السابقين من الكرام	برغمى أن أنالك بالملام
لقد وجدوك مفتونا فقالوا	خرجت من الوقار والاحتشام
وقال البعض: كيدك غير خاف	وقالوا: رمية من غير رام
غمرت القوم إطراء وحمدا	وهم غمروك بالنعم الجسام
رأوا بالأمس أنفك فى الثريا	فكيف اليوم أصبح فى الرغام
خطبت فكنت خطبا لا خطيبا	أضيف إلى مصائبنا العظام
لهجت بالاحتلال وما أتاه	وجرحك منه لو أحسست دام
وما أغناه عمن قال فيه	وما أغناك عن هذا التزامى
فهلا قلت للشبان قولا	يليق بحافل الماضى الهمام
يبث تجارب الأيام فيهم	ويدعو الرابضين إلى القيام
وكيف ينال عون الله قوم	سرأتهمو عوامل الانقسام
إذا الاحلام فى قوم تولت	أتى الكبراء أفعال الطغام الخ

* * *

---

(١) المصدر المتقدم ج٤ص١٢٤ — ١٢٨
(٢) الشوقيات ص ٢٥٩ — ٢٦٠

حادث دنشواى

تم فى حادثة دنشواى سنة ١٩٠٦ بلغت الحركة الوطنية أشدها واتخذ مصطفى كامل من محاكمة الأبرياء فى هذه القضية فضيحة كبرى لانجلترة وكان اليأس من الاحتلال قد ملأ صدور المصريين جميعا منذ الاتفاق الودى. ومن ثم سكتت بعض الصحف الوطنية عن هذا الحادث نوعا ما. لا تستثنى منها غير جريدة اللواء وجريدة المؤيد. وكانت الأخيرة منهما تتحدث فى شىء من التعقل والرزانة كعادتها. وكانت الأولى جريئة كل الجرأة. ومع هذا وذاك فقد كان للمقالات التى نشرت هنا وهناك تأثير بالغ فى الشعر المصرى لتلك الفترة. فكان من الشعراء من يتحدث فى شعره عن دنشواى بشىء من الاحتياط أو الرجاء أو الخوف من قوة الاحتلال. ومنهم من كان يتحدث بجرأة أكثر من هذا القدر، ولكن هذه الجرأة لم تظهر إلا بعد خروج اللورد كرومر من مصر. على أن أحدا من الكتاب أو الخطباء أو الشعراء أو الأدباء لم يتحدث عن دنشواى بحماسة وطنية بالغة كالتى تحدث بها مصطفى كامل(١). ومن ثم سلمت له زعامة الحركة الوطنية فى مصر.

فمما قاله اسمعيل صبرى يصف حادث دنشواى، ويشكر الخديو على العفو الذى أصدره عن مسجونى هذه القضية (٢)

وأقلت عثرة قرية حكم الهوى	فى أهلها وقضى قضاء أخرق
وارحمتا لجناتهم ماذا جنو	وقضاتهم ما عاقهم أن يتقوا
مازال يقذى كل عين مارأو	فيها ويؤذى كل سمع مالقوا
حتى حكمت فجاء حكمك آية	للناس طى صحيفة نتألق
شكرتك مصر على سلامة بعضها	شكرا يغرب فى الورى ويشرق
ذكرت لك الصفح الجميل ولم تزل	ترمى إلى أمر أجل وترمق الخ

---

(١) لمن أراد أن يعرف كيف كتب مصطفى كامل فى هذا المعنى أن يقرأ مقالته المشهورة بعنوان: (إلى الأمة الانجليزية والعالم المتمدن) وقد كتبها باللغات الأوروبية. ثم نشرها بالعربية فى صحيفة اللواء بتاريخ ٢٨ يوليو سنة ١٩٠٦ — راجع أدب المقالة الصحفية فى مصر جـ٥ ص ١٨٢ ـ ١٩١

(٢) عبد الرحمن الرافعى : شعراء الوطنية ص ٣٢

ومما قاله حافظ ابراهيم فى هذه الحادثة أيضا وفيه سخريته :

ايها القائمون بالأمر فينا — هل نسيتم ولاءنا والودادا
خفضوا جيشكم وناموا هنيئا — وابتغوا صيدكم وجوبوا البلادا
واذا اعوزتكمو ذات طوق — بين تلك الربى فصيدوا العبادا
انما نحن والحمام سواء — لم تغادر أطواقنا الأجيادا
لا تظنوا بنا العقوق ولكن — أرشدونا اذا ضللنا الرشادا
جاء جهالنا بأمر وجئتم — ضعف ضعفيه قسوة واشتدادا
احسنوا القتل إن ضننتم بعفو — أنفوسا أصبتمو أم جمادا
ليت شعرى أتلك « محكمة التفتيش » عادت أم عهد نيرون عادا
كيف يحلو من القوى التشفى — من ضعيف ألقى اليه القيادا
أكرمونا بأرضنا حيث كنتم — إنما يكرم الجواد الجوادا
إن عشرين حجة بعد خمس — علمتنا السكون مهما تمادى !
امة النيل أكبرت أن تعادى — من رماها وأشفقت أن تعادى
ليس فيها الا كلام والا — حسرة بعد حسرة تتهادى

وفى اكتوبر سنة ١٩٠٦ عاد اللورد كرومر إلى مصر من اجازته التى قضاها فى انجلتره . فاستقبله حافظ إبراهيم بقصيدة ذكر فيها حوادث دنشواى قائلا (١)

قصر الدوباره هل أتاك حديثنا — فالشرق ربع له وضج المغرب
أهلا بساكنك الكريم ومرحبا — بعد التحية إننى أتعتب
ان ضاق صدر النيل عما هاله — يوم الحمام فان صدر أرحب
أو كلما باح الحزين بأنة — أمست إلى معنى التعصب تنسب
رفقا عميد الدولتين بأمة — ضاق الرجاء وضاق المذهب
رفقا عميد الدولتين بأمة — ليست بغير ولائها تتعذب

---

(١) المصدر السابق ص ١٠٣

إن أرهقوا صيادكم فلعهم للقوت لا للمسلمين تعصبوا
ولربما ضن الفقير بقوته وسخا بمهجته على من يغضب
فى دنشواى وأنت عنا غائب لعب القضاء بنا وعز المهرب
حسبوا النفوس من الحمام بديلة فتسابقوا فى صيدهن وصوبوا
نكبوا وأقفرت المنازل بعدهم لو كنت حاضر أمرهم لم ينكبوا أ لخ

ومر عام على حادثة دنشوادى فنظم شوقى قصيدة فى ذكراها منها قوله:(١)

يادنشواى على رباك سلام ذهبت بانس ربوعك الأيام
شهداء حكمك فى البلاد تفرقوا هيهات للشمل الشتيت نظام
مرت عليهم فى اللحود أهلة ومضى عليهم فى القيود العام
كيف الأرامل فيك بعد رجالها وبأى حال أصبح الأيتام
ياليت شعرى فى البروج حمائم أم فى البروج منية وحمام ؟
نيرون لو أدركت عهد كرومر لعرفت كيف تنفذ الأحكام
نوحى حمائم دنشواى وروعى شعبا بوادى النيل ليس ينام
إن نامت الأحياء حالت بينه سحرا وبين فراشه الاحلام
متوجع يتمثل اليوم الذى ضجت لشدة هوله الاقوام
السوط يعمل والمشانق أربع متوحدات والجنود قيام
وعلى وجوه الثاكلين كآبة وعلى وجوه الثاكلات رغام الخ

عزل كرومر من مصر

واستقال اللورد كرومر – أو أقيل - من منصبه عام ١٩٠٧ ، فكان هذا نصراً كبيرا لمصطفى كامل وللحركة الوطنية .، وكان ذلك يوماعظيماقالت فيه الصحافة كلامها ، وقال الشعراء فيه كلامهم كذلك.

أما الصحافة فكانت من أظهر كلماتها يومئذ مقالات السيد على يوسف المشهورة باسم « قصر الدوبارة بعد يوم الأربعاء ». ومن جملتها رد لصاحب

---

(١) الشوقيات ج١ ص ٣٠٠ ــ ٣٠٢

المؤيد على خطبة الوداع التى ألقاها اللورد كرومر فى دار الأوبرا المصرية .
ولعل هذه المقالات والرد على الخطبة تعتبر من أقوى المقالات النزاليه فى تاريخ الصحافة المصرية إلى اليوم .

وأما الشعراء فكان أجرأهم على اللورد، وأعظمهم شماتة به يومئذ شاعر مصر أو القصر أحمد شوقى . وهو صاحب هذه القصيدة التى فيها يقول :

أيامكم ام عهد اسماعيلا	ام أنت فرعون يسوس النيلا
أما حاكم فى أرض مصر بأمره	لا سائلا أبدا ولا مسؤولا
يا مالــكا رق الرقاب ببأسه	هلا اتخذت إلى القلوب سبيلا
لما رحلت عن البلاد تنهدت	فكأنك الداء العياء وبيلا
أذ تنا رقا بدوم وذلة	تبقى وحالا لا ترى تحويلا
أحسبت أن الله دونك قدرة	لا يملك التغيير والتبديلا ؟
قالوا جلبت لنا الرفاهة والغنى	جحدوا الاله وصنعه والنيلا
وحياة مصر على زمان محمد	ونهوضها من عهد اسماعيلا
فى كل تقرير تقول : خلقتكم	أفهل نرى تقريرك التنزيلا
فارحل باذن الله جل صنيعه	مستعفيا إن شئت أو معزولا
إنا تمنينا على الله المنى	والله كان بنيلهن كفيلا

والمهم هنا أن نقول ان تلك المعانى التى عبر عنها الشعراء فى ذلك الحين كانت مأخوذة أخذا دقيقا من المقالات التى كان يكتبها الزعماء الوطنيون والصحفيون . فجميع ما قيل من المعانى فى حادثة دنشواى كان صدى لكلمات مصطفى كامل فى اللواء . وجميع ما ورد من الأفكار فى وداع اللورد كرومر أو الشماته فيه لم يكن غير صدى للسيد على يوسف فى مقالاته المشهورة باسم :
« قصر الدوبارة بعد يوم الأربعاء » .

وسأضرب لكم مثلا واحدا . يقول شوقى مخاطبا كرومر :

يامالــكا رق الرقاب ببأسه	هلا اتخذت الى القلوب سبيلا

فان هذا البيت ليس الا صدى لاحدى مقالات السيد على يوسف التى اشرت اليها . وعنوان المقاله « الطوب أم القلوب »

وسيأتي ذكرها - إن شاء الله - عند الكلام عن (الصحافة وتطور فن المقال) (١)

* * *

وفاة مصطفى كامل

توفى الزعيم الشاب مصطفى كامل سنة ١٩٠٨ فكان موته حادثا وطنيا كبيرا حرك مشاعر الكتاب والشعراء والخطباء، وألهب حماستهم. وتنافس الشعراء منهم بوجه خاص فى رثاء هذه الشخصية التى خلقت فى مصر مايسمى «بالحركة الوطنية». والرثاء بطبيعته أقرب الى الشعر منه الى النثر. ومن ثم أجاد الشعراء فى رثاء مصطفى كامل بأكثر من اجاد الكتاب. ومن أولئك الشعراء صبرى وشوقى وحافظ وخليل مطران وغيرهم.

ويطول بنا القول لو أردنا أن نأتى بجميع المراثى التى قيلت فى مصطفى كامل. فحسبنا إذن أبيات قليلة من تلك المراثى على سبيل المثال:

وصل جثمان الفقيد إلى مقره الأخير، فوقف الشاعر اسمعيل صبرى وحاول أن يلقى قصيدة فى رثائه. ولكنه لم يكد يلقى البيت الأول:

أداعى الاسى فى مصر ويحك داعيا ... هددت القوى إذ قمت بالامس داعيا

حتى غلبه البكاء وعجز عن المضى فى القاء القصيدة. وكان من أبياتها قوله:

ألا عللانى بالتعازى وأقنعا ... فؤادى أن يرضى بهن تعازيا

وإلا أعينانى على النوح والبكا ... فشأنكما شأنى وما بكما بيا

وما نافعى أن تبكيا غير أننى ... أحب دموع البر والمرء وافيا الخ

ونشر شوقى رثاءه للفقيد بعد ثلاثة عشر يوما من وفاته. ومن قوله يومئذ (٢)

المشرقان عليك ينتحبان ... قاصيهما فى مأتم والدانى!

ياخادم الاسلام أجر مجاهد ... فى الله من خلد ومن رضوان

لما نعيت الى الحجاز مشى الاسى ... فى الزائرين وروع الحرمان

إن كان للأخلاق ركن قائم ... فى هذه الدنيا فانت البانى

---

(١) انظر أدب المقالة الصحفية فى مصر ج ٤ ص ١٥٠

(٢) شعراء الوطنية: عبد الرحمن الرافعى: ص ١٤٨

المجد والشرف الرفيع صحيفة — جعلت لها الأخلاق كالعنوان
وأحب من طول الحياة بذلة — قصر يريك تقاصر الأقران
دقات قلب المرء قائلة له — إن الحيـاة دقائق وثوانى
فارفع لنفسك بعدموتك ذكرها — فالذكر للانسان عمر ثانى الخ

ورثى الشاعر حافظ ابرهيم فقيد الوطنية المصرية بقصيدة منها :

أيا قبر هذا الضيف أمال أمة — فكبر وهلل وألق ضيفك جاثيا
عزيز علينا أن نرى فيك مصطفى — شهيد العلا فى زهرة العمر ثاويا
أيا قبر لو أنا فقدناه وحده — لكان التأسى من جوى الحزن شافيا
ولكننا فقدنا كل شىء بفقده — وهيهات أن يأتى به الدهر ثانيا
فيا سـائلى أين المروءة والوفا — واين الحجا والرأى ويحك هاهيا
هنيئا لهم فليأمنوا كل صائح — فقد أسكت الصوت الذى كان عاليا
شهيد العلا لا زال صوتك بيننا — يرن كما قد كان بالإمس داويا
يهيب بنا : هذا بناء أقمته — فلا تهدموا بالله مـا كنت بانيا
أجل أيها الدعى الى الخير إننا — على العهد مادمنا فنم أنت هانيا الخ

وألقى الشـاعر خليل مطران فى رثاء الفقيد قصيدة طويلة اربت على مائة بيت ومنها .

مصر العزيزة قد ذكرت لك اسمها — وأرى ترابك من حنين قد هفا
وكأننى بالقبر أصبح منبرا — وكأننى بك موشك أن تهتفا
مصر التى أحببتها الحب الذى — بلغ الفداء نزاهة وتعففا
حتى مضيت كما ابتغيت مؤلفا — من شملها مالم يكن ليؤلفا
كهواك للاوطان فليكن الهوى — لا مفترى فيه ولا متكلفا (١)
فارقد رقادك ان ربك قد محا — بك ذنب مصر كما رجوت وقد عفا

على أن الشعراء لم يكتف كل منهم بقصيدة واحدة فى هذا المعنى ، بل ان منهم من نظم قصائد كثيرة فى رثاء مصطفى . وذلك فضلا عن القصائد التى كانت تظهر فى يوم ذكرى وفاته من كل عام ، وينتهز الشعراء

---

(١) المصدر السابق جـ ٥ ص ٢٥٨

هذه الفرصة ليستعرضوا أحداث الوطن ، وليحثوا قادته وزعماءه على الإخلاص له والجهاد فى سبيله كما جاهد ذلك الرجل .

وصف المرحوم قاسم أمين جنازة الزعيم الشاب مصطفى كامل فقال :

« هذه هى المرة الثانية التى رأيت فيها قلب مصر يخفق :

المرة الأولى كانت يوم تنفيذ حكم دنشواى . والمرة الثانيه يوم الاحتفال بجنازة صاحب اللواء » (١)

كان الشاعر فى العصور السابقة يكتفى بأن يرثى فقيد العشيرة أو القبيلة أو المدينة أو الأمة مرة أو مرتين يفرغ فيهما كل ما فى جعبته — على حد تعبير القدماء — من معانى الرثاء . أما الشاعر فى العصور الحديثه فقد سن لنفسه سنة جديدة ؛ هى رثاء الفقيد فى يوم ذكراه من كل عام ، وإنما جاءته هذه السنة من محاكاته للصحف ، وتقليده للكتاب الصحفيين .

على أن مراثى العظماء شغلت حيزا كبيرا من دواوين الشعراء . وكانت هذه الحركة فى ذاتها مسايرة من الشعر للصحافة ، ومجاراة لها فى الميدان الوطنى او السياسى . فقد كانت الحركة الوطنية بحاجة دائمـا إلى من يلقى فى أتونها الوقود بين الحين والحين ، ليزداد الأتون لهبا ، فتزداد المشاعر قوة . وكان موت عظيم أو زعيم يقع من النفوس موقعا أليما ، ويزيدهـا بالوطن تعلقا ،واليه تلهفا وحنينا . وكثيراً ما كان هذا التلهف والحنين يزدادان قوة وسعيراً بعد قراءة المرثية النثريه أو الشعرية فى صحيفة من الصحف الوطنية .

من أجل هذا كثرت قصائد الرثاء كثرة واضحة فى ديوان شـاعر اجتماعى كحافظ ابرهيم ؛ وهو الذى يقول :

اذا تصفحت ديوانى لتقرأه   وجدت أن المراثى نصف ديوانى

---

(١) شعراء الوطنية عبد الرحمن الرافعى : ص ١٦١

مد امتياز قناة السويس

وفى اواخر سنة ١٩٠٩ وأوائل سنة ١٩١٠ شغل الرأى العام بمسألة تتصل بحياة البلاد الاقتصادية والسياسية . وهى مشروع الامتياز الممنوح لشركة قناة السويس ، ومد أجله أربعين عاما أخرى . وقد أثار هذا المشروع سخط الأمة كلها . وطالبت الأمه بعرضه على الجمعية العمومية قبل البت فيه . . . ونظم حافظ قصيدة فى نوفمبر سنة ١٩٠٩ عبر بها عن آمال الأمة وآلامها جاء فى مطلعها :(١)

لقد نصل الدجى فمتى تنام	أهم ذاد نومك أم هيام
ذكرت جلالها أيام كانت	تصول بها الفراعنة العظام
وأيام الرجال بها رجال	وايام الزمان لها غلام
فأقلق مضجعى ما بات فيها	وبانت مصر فيه فهل ألام ؟

ومنها قوله :

فياويل القناة إذا احتواها	بنو التاميز وانحسر اللثام
لقد بقيت من الدنيا حطاما	بأيدينا وقد عز الحطام
وقد كنا جعلناها زماما	فوالهفى إذا قطع الزمام
حمونا ورد ماء النيل عذبا	وقالوا انه موت زؤام (٢)
وما الموت الزؤام اذا عقلنا	سوى (الشركات) حل لها الحرام

* * *

زيارة الرئيس روزفلت لمصر

وأتى الرئيس روزفلت لزيارة مصر فى مارس سنة ١٩١٠ وألقى خطبة بمدينة الخرطوم دعا فيها ضباط الجيش الى الخضوع لحكم الاحتلال الانجليزى ثم رجع الى القاهرة وألقى بالجامعة المصرية خطبة أخرى فى نفس هذا المعنى فتألم لذلك الوطنيون ، وضجت الصحف الشعبيه، وامتلأت اعمدتها بالرد على الزعيم روزفلت .

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : شعراء الوطنية ض ١٣١ — ١٣٢

أما الشيخ على يوسف فإنه كتب فى مؤيده خطابا مفتوحا الى الرئيس روزفلت حمل فيه على مسلكه، وخطبته، وعلى إخلاله بواجب الضيافة. ونشرت ترجمة هذا الخطاب فى بعض الصحف الامريكية الشهيرة. فبعث بعضها الى الشيخ على يوسف يطلب اليه كتابة فصل فى هذا الموضوع يتحدث فيه عن روزفلت، وما كان لزيارته من الأثر فى نفس الشعب المصرى. فلبى الشيخ هذه الدعوة وبعث اليها بالمقال » (١)

وكان لهذه الحركة صداها فى الشعر المصرى يومئذ. ومنه هذه القصيدة التى قالها حافظ أيضا :

أى خطيب الدنيا الجديدة شنف	سمع مصر بقولك المأثور
إنما شوقها لقولك يا (روز	فلت) شوق الأسير للتحرير
يانصير الضعيف مالك تطرى	خطة القوم بعد ذاك النكير
لم تطيقوا جوارهم بل أقمتم	فى حماكم من دونه ألف سور
أنت تطريهمو وتثنى عليهم	نائيا آمنا وراء البحور
ليت شعرى أكنت تدعو اليهم	يوم كانوا على تخوم الثغور ؟
يوم كانوا قذى بعين (نيو	يورك) وداء مستحكما فى الصدور
يوم سجلتمو على صفحات الد	هر تاريخ مجدكم بالنور
وتوثبتم الى الحياة وثوبا	ونفضتم عنكمو غبار القبور
يانصير الضعيف حبب اليهم	هجر مصر تفز بأجر كبير الخ

* * *

هكذا كان الشعر فى مصر يسير مع الصحافة جنبا لجنب، ويجرى مثلها مع حوادث المجتمع المصرى، ولا يترك مناسبه من المناسبات حتى يكون له كلمة، كما للنثر الصحفى كلمة. وكثيرا ماتشترك الكلمتان فى المعانى والأفكار كما قلنا.

بل ان الامر لم يقف بالشعر الى هذا الحد حتى أخذيحاكى المقال فى ظاهره « اتخاذ العنوان ». فقد كان الشاعر القديم إذا أراد أن ينشر شعره فى ديوان

---

(١) أدب المقاله الصحفية فى مصر ج ٤ ص ١٢٩ — والمقالة فى نفس المصدر من ص ١٣٠ — ١٤١ فليرجع اليها من أراد

وجدناه يقول مثلا : ومن شعره فى الغزل كذا ، ومن شعره فى الزهد أو المدح أو الفخر كذا ، الخ

أما الشاعر الحديث فقد حرص على أن يكون لكل قصيدة من قصائده عنوان كما للمقالة الصحفية عنوان . والعنوان فى ذاته عنصر هام من عناصر « الفن الصحفى » اللازم لاخراج الصحيفة .

* * *

على أن لهذه الحركة الوطنية التى اشترك فيها المصريون — أقباطا ومسلمين — كانت تهددها أخطار من جهات شتى : منها النزاع الدائم بين السلطتين الشرعية والفعلية ، ومنها سياسة الوكالة البريطانية التى كانت ترمى فى كثير من الأحيان — وخاصة فى عهد غورست — إلى التفرقه بين عنصرى الأمة — توسلا بذلك إلى قتل الحركة الخ

وبالغت الوكالة البريطانية فى أساليب التفرقة بين عنصرى الأمة إلى حد أنها أخذت فى وقت من الأوقات تقصر الوظائف الحكومية على القبط وحدهم من المسلمين . وأحس المسلمون وقع هذا الظلم الكبير ، فعبر عنه حافظ ابراهيم حيث يقول — بعد أن أعياه العثور على وظيفة حكومية يأكل بها العيش :

سعيت إلى أن كدت انتعل الدما
وعدت وما أعقبت إلا التندما

لحى الله عهد القاسطين الذى به
تهدم من تبياننا ما تهدما

اذا شئت أن تلقى السعادة بينهم
فلا تك مصريا ولا تك مسلما

* * *

مقتل بطرس غالى :

وقتل بطرس غالى سنة ١٩١٠ ففشت الفاشية بين المسلمين واخوانهم الأقباط من جديد وعقد الأقباط مؤتمراً لهم بأسيوط وأجابهم المسلمون بمؤتمر مثله عقدوه

بمصر الجديدة . وكادت الفتنه تودى بالحركة الوطنيه ،لولا حكمة نفر من المصريين الذين أخذوا يغيرون قليلا قليلا من لهجة الصحف . ، وتبعهم فى ذلك الشعراء ممن أرادوا أن يقتلوا دواعى الشر يومئذ ؛ ومنهم أحمد شوقى وسرعان ما حل الوئام محل الخصام ، واستبدل المصريون بنغمة الفرقة العنصرية نغمة الاخوة المصرية . ويحسبنا هنا أن نشير إلى بعض أبيات لشوقى فى هذا المعنى . قال فى رثاء بطرس غالى :

أعهدتنا والقبط الا أمة	فى الأرض واحدة تروم مراما
نعلى تعاليم المسيح لأجلهم	ويوقرون لأجلنا الاسلاما
الدين للديان جل جلاله	لو شاء ربك وحد الاقواما
هذى قبوركمو وتلك قبورنا	متجاورين جماجما وعظاما

الا ـ ما أبلغ شوقى فى هذا البيت الأخير ، وما أقدره على بعث معانى الالفة والتراحم والشفقة والتعاطف بين أبناء التربة الواحدة ، والمقبرة الواحدة :

هذى قبوركمو وتلك قبورنا	متجاورين جماجما وعظاما

وعن هذا المعنى ومعان قريبة منه عبر الشاعر اسماعيل صبرى بقوله :

خففوا صياحكم ليس فى مصر	لأبناء مصر من أعداء
دين عيسى فيكم ودين أخيه	احمد يأمراننا بالاخاء
مصر أنتم ونحن الا إذا قا	مت بتفريقنا دواعى الشقاء
مصر ملك لنا ما تماسكـ	نا وإلا فمصر للغرباء !

وعلى هذا النحو مضى الشعر موجها حديثه ـ كما تفعل الصحافة تماما ـ الى الجمهور ، معبراً عن مشاعره وميوله ، مؤيدا دعوة العقلاء فى الأمة إلى الاخاء والمحبة . وسرى هذا المعنى إلى الشعر الدينى نفسه . ومن هنا جاءت عناية شوقى بالمسيحية « لأن قراءه فى العربية لم يكونو جميعا من المسلمين . بل كان منهم المسلم ؛ ومنهم المسيحى . ومن ثم كان يقف من المسيحية موقف المعتقد بها المؤمن بتعاليمها » وكان لايزال يشيد بالمسيح حتى فى تركياته . وحين ينهزم الترك أمام الدول البلقانيه المسيحية ، فانه يستل المسيح من هذا الدول

وبرئه هو وتعاليمه منهم (١). يقول فى الاندلس الجديدة :

عيسى سبيلك رحمة ومحبة	فى العالمين وعصمة وسلام
ما كنت سفاك الدماء ولا امرأ	هان الضعاف عليه والايتام
يا حامل الالام عن هذا الورى	كثرت عليه باسمك الآلام
أنت الذى جعل العباد جميعهم	رحماء وباسمك تقطع الارحام

* * *

شعراء مصريون ضد الحركة الوطنية

وكما كانت هناك صحف ترعى الحركة الوطنيه ، وشعراء يرعون هذه الحركة ، فكذلك كانت هناك صحف أخذت جانب الانجليز ، وشعراء اخذوا جانبهم أيضا :

فمن الصحف التى ناصرت الانجليز صحيفه (المقطم) . وكانت صحيفتان قبطيتان هما (مصر) ، و (الوطن) تقفان كذلك موقفا عدائيا من الحركة الوطنية ، وتدعوان فى بعض الاحيان إلى أن يتخلى بعض الاقباط عن جنسيتهم المصرية ، وينضووا تحت لواء جنسية من الجنسيات الاوربية (٢)

ومن الشعراء الذين ناصروا (كرومر) وقتئذ شاعران مصريان هما « نسيم » و « ولى الدين يكن » . وقد طفق كل منهما يهاجم الخديو عباس ويهاجم الحزب الوطنى بوجه خاص ، ويخدم بذلك مآربه الذاتية ، وأطماعه المادية ، ويعبر عن موجدته الشخصية . فقد كان بين « يكن » والسلطان عبد الحميد من الإحن ما أفضى باولهما إلى الاحتماء بكرومر ، والاشادة بفضله وعدالة حكمة ، فحماه الرجل وحمى إخوانه من أعضاء تركيا الفتاه .

كان شاعر كرومر - وهو نسيم - ينتهز كل فرصة ممكنة لمدح الانجليز والاشادة بعدلهم وفضلهم على مصر ، وكان يبلغ من ذلك حد العجب . اليس عجيبا أن نجد شاعراً مصريا كنسيم يرثى الملكة فكتوريا

---

(١) شوقى حفيف : شوقى ض ١٤٠

(٢) محمد حسين : الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ص ١١٣ هامش ١

سنة ١٩٠١ فيختم قصيدته بتهنئة ابنها والتعريض بعباس والسخرية بكل مصرى يفتخر بمجد الفراعنه (١)

يا قوم مصر ولم أنظر لكم أثرا — إذا المعالى دعت قومى دواعيها
أتفخرون بآثار لغيركمو — الظلم شيدها والدهر يبليها
إلام تبغون ملكا عز جانبه — وتبلغون من الدعوى تناهيها
وتفخرون بما (خوفو) بنى لكمو — وتمدحون من الاهرام بانيها
فأى فخر لكم فيما نشاهده — يا أمة نسيت فى الذل ماضيها الخ

وغادر اللورد كرومر مصر ، فبكاه نسيم بقصيدة طويله جاء فيها : (٢)

حاشاك ما أنت بالمغصوب منصبه — كلا ولا أنت من علياك معزول
جعلت مصر بلادا أمطرت ذهبا — فتربها بمذاب التبر مبلول
خلقتها ويد الاسعاد تكنفها — دارا عليها من النعمى سرابيل
حللت فيها وغل الجور مقعدها — ذلا وفارقتها والجور مغلول

أما (ولى الدين يكن) فلم يكن متهالكا على الانجليز تهالك نسيم ، وإنما كان يحبهم لغرض واحد فقط ، هو حمايتهم له من السلطان عبد الحميد، فانتهى به ذلك إلى تأييد الاحتلال البريطانى فى مصر .

يقول ولى الدين يكن فى رثاء الملك ادوارد السابع ملك انجلتره معترفا بما له من فضل على جماعة أعضاء « تركيا الفتاه »

أبا الاحرار لا ينساك حر — شبابهمو يجلك والكهول
تناديك الشعوب بكل أرض — فليتك سامع ماذا تقول
تناجى منك حاميها المرجى — وصولتها إذا قامت تصول

ومهما يكن من شىء فان هذه النغمة المرذولة لم تجد لها اذنا صاغية من المصريين الذين كانوا يلتهبون حماسة ووطنية فى تلك الفترة ، وكان

---

(١) المصدر السابق ص ١٩٧

(٢) المصدر السابق ص ١٩٨

الاحتلال الانجليزى يثير فى قلوبهم كل معانى الغضب والغيرة . ومن ثم جاء شعر هذين الشاعرين وأمثالهما نشازا فى موسيقى الحركة الوطنية التى استجاب لها المصريون جميعا خلا حفنة قليلة من ذوى المآرب الشخصية والمطامع المادية .

* * *

الشعر المصرى والعروبة

بقيت نغمة أخيرة فى قيثارة الشعر المصرى فى المجال الوطنى . وتتألف هذه النغمة من الشعر الذى قيل فى معنى « العروبة » .

ونحن نعرف أن الشعور بهذه الاخيرة إنما جاء نتيجة لبقاء الاستعمار الاوروبى من جهة ، والتفكير فى الجامعة الاسلامية من جهة ثانية .وإن كان من الحق أن يقال ان هذه النغمة الجديدة فى الشعر المصرى لم تكد تقوى وتشتد ، وتسير مع الشعور بالوطنية المصريه جنبا الى جنب الا بعد الحرب العظمى . وسرعان ما انعكس ذلك على نفوس الشعراء المحدثين ، فأضافوا به لحنا جديدا إلى ألحانهم الجميلة ، وأحس الشعراء منذ ذلك الحين بأن البلاد العربية كلها أسرة وحدها . لها كيانها ، ولها مقوماتها ،ولها تاريخها ومصائبها التى جمعت بينها . وفى ذلك يقول شوقى .

قد قضى الله أن يؤلفنا الجر	ح وان تلتقى على أشجانه
كلما أنّ بالعراق جريح	لمس الشرق جنبه فى عمانه
وعلينا كما عليكم حديد	تتنزى الليوث فى قضبانه
نحن فى الفكر بالديار سواء	كلنا مشفق على أوطانه

وضرب الفرنسيون بقنابلهم « دمشق » فارتاع لذلك شوقى شاعر مصر والشرق . ونظم قصيدته التى أولها :

سلام من صبا بردى أرق	ودمع لا يكفكف يادمشق

ومنها :

بنى سورية اطرحوا الأمانى	وألقوا عنكموا الأحلام ألقوا

نصحت ونحن مختلفون دارا ولكن كلنا فى الهم شرق !

ويجمعنا إذا اختلفت بلادا بيان غير مختلف ونطق الخ

ويطول بنا القول أيضا لو أردنا استقصاء الشعر الذى قاله الشعراء المصريون فى هذا المعنى ، بل الشعر الذى قاله أحدهم فقط - وهو شوقى. فلنكتف بهذا القدر . ؟

٨

الصحافة المصرية وتطـــور فن المقال

شهدت مصر فى أوائل القرن الماضى ميلاد حدث سعيد فى تاريخها. وهذا الحدث هو الصحافة . وجاء ميلادها على يد الحملة الفرنسية التى انشأت جريدتين هما جريدة (بريد مصر) وجريدة (العشريات)

غير أن هاتين الجريدتين كانتا باللغة الفرنسية التى يجهلها المصريون فى ذلك الوقت . ولم يكن ينشر فيهما غير أوامر الجنرال بونابارت . وذلك فضلا عن الاخبار والمواد التى تهم الجند .

وعلى هذا فمن الخطأ الصرف أن ننظر نحن الى هذه الصحافة الفرنسية فى مصر على أنها صحافة مصرية بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة . ذلك أن المصريين لم تكن لهم صلة ما بالصحف الفرنسية التى أشرنا اليها .

من أجل هذا قلت لكم ان الفرنسيين فى مصر فكروا بعد ذلك فى انشاء مجلة لهم باللغة العربية . وعرض الجنرال مينو على الشيخ الخشاب من شيوخ الأزهر إذ ذاك أن يتولى تحرير هذه المجلة . ولكن هذه الأخيرة لم تخرج إلى الوجود . فقد عاجلتها النهاية التى انتهت اليها الحملة الفرنسية ، والأجل الذى قضى عليها بالخروج من الديار المصرية .

ثم أتى محمد على وفكر فى أن ينشىء فى مصر مايسمى (بجورنال الخديو) فأصدره ، ثم ما زال به حتى حوله الى ماسمى بعد ذلك « بالوقائع المصرية » .

وتعلمون أن الصحافة فى مصر كانت فى أول أمرها رسمية على هذا الوجه. وبقيت على ذلك حتى ظهرت إلى جانبها الصحافة الأهلية أو الشعبية.

كان ذلك فى عهد اسمعيل الذى ظهرت حاجته الشديدة الى الصحافة لكى تذود عنه أضراراً كثيرة ، وأخطاراً محيقة ، منها خطر التدخل الأجنبي أولا وخطر الباب العالى بعد ذلك .

لهذا السبب الأخير وجدت الصحافه الشعبية فى مصر . وكانت صورة من الصحـافة الرسمية فى بادىء الامر . ولكن سرعان ما نما هذا المولود الجديد — الذى هو الصحافة الشعبية — وأخذ يقوى ويشتد حتى جاوز دور الطفولة ، ودخل فى دور الشباب ، وذلك على أيدى نفر من الصحافيين خطوا بها خطوات كبيرة فى هذا السبيل .

وبحثت أنا من جانبى فى هذه المراحل التى مرت بها المقالة الصحفية فى مصر . واستطعت أن أعد من هذه المراحل ثلاثاً ، سميت كل واحدة منها « طبقة » أو « مدرسة » :

فمدرسة صحفية أولى كان من أشهر رجالها : رفاعة رافع الطهطاوى ، وعبد الله أبو السعود ، وميخائيل عبد السيد صاحب جريدة الوطن الخ .

ومدرسه صحفية ثانية كان من أشهر رجالها : أديب اسحق ، ومحمد عبده وعبد الله النديم ، والمويلحى الكبير ، وبشارة تقلا صاحب الاهرام الخ

ومدرسة صحفية ثالثة كان من أشهر تلاميذها : على يوسف ، ومصطفى كامل ، وأحمد لطفى السيد ، وعبد العزيز جاويش الخ

والمهم أن لكل مدرسة من تلك المدارس أسلوبها اللغوى الخاص بها فى كتابة المقال ، وأن لها غايتها أو هدفها الذى كانت ترمى اليه من وراء هذا المقال ، وأن هذا الهدف إنما حددته لها الظروف السياسيه والاجتماعية والثقافية التى أحاطت بكل واحدة من تلك المدارس على حدة .

« فأما من حيث الأسلوب فقد كان رجال المدرسة الأولى مقيدين بقيود الماضى القريب ، حين كان النثر العربى يميل الى السجع وغيره من ألوان البديع التى فتن بها أدباء العربية منذ القرن الرابع الهجرى ، وحين كان هذا النثر محبوسا فى أروقة الأزهر لا يكاد يتجاوزه الى الحياة فى خارجه . ومن ثم ورث الصحفيون الاولون فى القرن الماضى لونا باهتا من ألوان النثر العربى لم يكن خليقا بأن يحتذى ، ولا كان جديرا بأن ينسج على منواله . ومع ذلك مضى رجال المدرسة الأولى يكتبون صحفهم بطريقة لا تبعد كثيرا عن هذه

الطريقة القديمة ، ولا تكاد تتحرر منها الا فى أوقات قليلة ، ثم جاء الوقت الذى سئموا فيه السجع ، وزهدوا فيه البديع . وكان ذلك إيذانا بمجىء المدرسة الصحفية الثانية ، وهى المدرسة التى نعمت بقسط من الحرية فى الأسلوب ليس شك فى أنه كبير بالقياس الى القسط الذى نعمت به المدرسة التى سبقتها »

وعلى هذا فالفرق بين المدرستين السابقتين أن الأولى كانت تكتب بالأسلوب القديم أو الموروث ، وتحاول انشاء المقال الصحفى ، وتتعثر كثيرا فى هذه المحاولة . وكان من أسباب ذلك عنصران واضحان هما : عنصر الوراثة الذى أشرنا اليه من جهة ، وعنصر آخر مع الوراثة ، وهو قصور هذه المدرسة قصورا تاما عن فهم الفرق بين لغة الكتب ، ولغة الصحف من جهة ثانية .

وأما المدرسة الثانية ، فانها أخذت تتحرر - نوعا ما - من قيود الأساليب الموروثة ، وأصبحت قادرة على إنشاء المقال الصحفى بلغة - هى مع ذلك - أصلح لكتابة الأدب أو الكتب منها لكتابة الصحف . أى أن المدرستين تشتركان فى صفة ، وتفترقان فى أخرى . تشتركان فى أنهما لم تصلا بعد الى تفرقه واضحة بين لغة المقال الأدبى ، ولغة المقال الصحفى . وتفترقان فى أن الاولى مقيدة فى أسلوبها بقيود الماضى البعيد أو القريب ، عاجزة فى الوقت نفسه عن التعبير الحر الطليق ، هابطة المستوى فى مجموعها من حيث الأسلوب . فى حين أن الثانية حاولت بالفعل أن تتحرر من هذه القيود ، واكتسبت من المران الأدبى ما جعلها تحسن استخدام هذه الزينة أو القيود حين تريد استخدامها على سبيل إظهار المقدرة الفنية - كما كان الشأن مع أديب اسحق من رجال المدرسة الثانية بنوع خاص

والحق أن من يطلع على كتابات أديب اسحق لتروعه تلك الاساليب العالية التى كتب بها فى الصحف المصرية أو اللبنانيه .

« ومصدر الجمال فى أسلوب أديب اسحق أشياء كثيرة : منها سرعة الانفعال عند هذا الشاب ، مما جعل أسلوبه أدنى الى طبيعة الشعر منها الى طبيعة النثر . ومنها تلوين

الكلام عنده بالمحسنات اللفظية والمعنوية ؛ مع قدرة ظاهرة على هذا التلوين في غير تكلف ممقوت ، ولا صناعة مرذولة ، ثم منها الثقافة الاجنبيه التى زودته بمعان كثيرة ، وجعلت الفرق بينه وبين رجل كمحمد عبده كبيرا . وباختصار نرى أن أسلوب أديب اسحق يلذ الأديب أكثر مما يلذ الصحفى »(١)

وبقيت المدرسة الصحفية الثانية تكتب صحافتها بهذه الطريقة الأدبية العالية حتى جاء الأستاذ الامام محمد عبده فأخذ يقترب شيئا فشيئا من لغة الصحف . ثم جاء السيد عبد الله النديم واقترب كثيرا منها، وأعانه على ذلك ميله الطبيعى اليها وإلى الأسلوب الخطابى الذى برع فيه براعة منقطعة النظير. والاسلوب الخطابى بطبيعته الى الاسلوب الصحفى ادنى منه الى الاسلوب الادبى

والى ذلك الوقت كانت الصحف دورية ، بمعنى أنها تصدر مرة فى كل أسبوع أو أسبوعين أو شهر أو شهرين الخ . غير انه منذ ظهور (المؤيد) او قبله بوقت قليل جدا أصبحت الصحف يومية . وغدت الصحيفة تنتظر كل يوم غذاء جديدا ، فى وقت معين ، وعلى نمط معين : وكان لهذه الحالة الجديدة اثر بالغ فى تطور الاساليب التى تتبع فى كتابة الصحف .

نعم كانت الطريقه التى كتبت المدرسة الثانية طريقه ادبية خالصة أو كالخالصة . يتوخى فيها الكاتب بلاغة العبارة ، واختيار اللفظ ، وحسن الجرس ، وتوشيح الكلام بالأشعار والحكم والامثال وغيرها . ولكن الطريقة التى اصبحت تكتب بها المدرسة الثالثة طريقة صحفية خالصة . لا مجال فيها للأناقة الفنيه التى توخاها الرعيل الثانى من رجال الصحف . ولا مجال فيها للزخرف الفنى الذى امتازت به أساليب تلك الطبقة الثانية من طبقات الصحافه . وهكذا شرع المقال الصحفى يبتعد قليلا قليلا عن مجال التعبيرات الادبية ، ويقترب شيئا فشيئا من مجال التعبيرات الصحفية .

ولم يكد ينتهى القرن التاسع عشر حتى أصبح للصحافة فى مصر لغة خاصة بها . وكان ذلك على يد الطبقة الثالثة او المدرسة الأخيرة من مدارس الصحافه المصرية فى القرن الماضى واوائل القرن الحالى ، وهى المدرسة

---

(١) أدب المقالة الصحفية فى مصر ج ٢ ص ٢٥

التى بدأت بالسيد على يوسف صاحب « المؤيد »

ولكن قبل أن نبدأ الحديث عن هذه المدرسة الاخيرة من حيث الاسلوب ينبغى لنا هنا أن نشير الى أن المدرسة الثانية التى منها أديب اسحق وعبد الله النديم ، ومحمد عبده ختمت فى القرن الماضى بأديب ممتاز من حيث الاسلوب الادبى ، لم يكن له نظير فى هذه الناحية . وهذا الادب الذى ارتفع بالاساليب الادبية الخالصة الى هذه الدرجة العاليه هو ابرهيم المويلحى .

فمهما ذهبت تقرأ لهذا الاديب فى جريدة (مصباح الشرق) فان تقول عنه أنه كان موهوبا فى السياسة . ولكنه موهوب فى الأدب . مع انه كان على اتصال دائم بكثير من رجالات الحكم فى عصره . . . اجل كان ابراهيم المويلحى رجلا موهوبا فى الادب — ما فى ذلك موضع لشك او لجدل . وكانت اللغة التى يكتب بها هذا الرجل هى العربية . والعربية لغة القرآن . وليست لغة تجارية ، بمعنى انها محدوده الغنى من الاساليب والألفاظ . . . وهى من أجل ذلك لا تصلح الا أن تكون لغة الأدب فى أروع صوره واعلى مراتبه . الخ (١)

كانت طريقة المويلحى فى الكتابة قائمة على البديع والزخرف ، وعلى السخرية والاستخفاف ، وعلى الاكثار من ايراد الشواهد والامثاله من التاريخ ومن السير ، وكان من أعظم كتاب زمانه قدرة على التصوير الذى نسميه اليوم «بالكاريكاتور» . وإليه انتهت رياسة الكتابه الادبيه فى أواخر القرن التاسع عشر . ولذا ينظر التاريخ الى إبرهيم المويلحى على أنه آخر من يمثل لهذه الطريقة القديمه فى أدبنا المصرى فى القرن الماضى . وهى الطريقة التى بدأت تختفى من الميدان الصحفى شيئا فشيئا لتحل محلها طريقة أخرى أكثر منها ملاءمة للصحافة ، هى طريقة : —

المدرسه الصحفيه الثالثه — وقد أحاطت بهذه المدرسة ظروف سياسية خطيرة . لا شك أن من أهمها طرف « الاحتلال البريطانى » الذى خلق فى

نفوس المصريين اليأس مرة ، وغرس فى نفوسهم روح المقاومة العنيفة مائة مرة . وكان من أثر هذه المقاومة أن نشطت العقول والأقلام فى مصر ، واحتاج الأمر إلى ظهور طبقة جديده من الكتاب أصبح لها أسلوب جديد يصح أن يطلق عليه اسم « الاسلوب السياسى » . وكان يمثل هذه الطبقة الاخيرة ـ فيما عدا السيد على يوسف صاحب المؤيد ـ مصطفى كامل صاحب اللواء ، وأحمد لطفى السيد محرر الجريدة ، ومنهم كتاب جرائد الاهرام والمقطم ومن اليهم وعلى هذه الطريقة ذاتها - أو بتعديل يسير فيها ـ جرى آخرون من أمثال أمين الرافعى (صاحب الاخبار) وعبد القادر حمزه (صاحب جريدة البلاغ) وحافظ عوض (صاحب جريدة كوكب الشرق) وغيرهم .

وكما كانت هذه المدرسة الصحفية الثالثه جديدة فى الاسلوب السياسى ، فكذلك كانت جديدة فى التفكير السياسى . والذى لا ريب فيه أن الفضل فى فى هذا كله راجع الى الاحتلال البريطانى . فقد كان هذا الاحتلال فى ذاته مدرسة تعلم فيها المصريون دروسا فى السياسة كيف تكتب ، وفى السياسه كيف تفهم ، وكيف يقنع الرجل السياسى أو الصحافى خصمه فى الرأى أو الفكرة ، ونحو ذلك .

وأنتم حين تطلعون على التقارير التى كتبها اللورد كرومر ، أو ، السير غورست ، أو اللورد كتشنر عن مصر تجدونها مكتوبة بطريقه عجيبه لاشك أن المصريين لم يألفوها . فقد كان الهدف من هذه التقارير السنويه إقناع المصريين بضرورة بقاء الانجليز فى البلاد المصرية .

وكان وراء كل كلمه من كلمات التقرير أكداس مكدسة من المعانى السياسية والاغراض الاستعمارية التى لم تخف على كتابنا المصريين . فشرعوا يهيئون أنفسهم للرد عليها ، وأخذوا يحاكون الانجليز أنفسهم فى الكتابة على هذه الطريقة وعلى هذا فللانجليز فى مصر فضل تدريبنا على الكتابة فى الموضوعات السياسيه . وان كان هذا الفضل من النوع الذى ينطبق

عليه المثل ، « مكره أخاك لا بطل »

من أجل ذلك نجد رجلا كصاحب المؤيد كتب مقالاته الغراء « قصر الدوباره بعد يوم الأربعاء » بتلك اللغه التى يفهمها كرومر ، وهى لغة المصالح التى لا صلة لها بالمشاعر أو العواطف .

وبينما كانت (المؤيد) تعالج المسائل السياسية على هذا النحو الهادى المؤثر فى نفوس الانجليز فضلا عن المصريين ، إذ (باللواء) تكتب المقالات الحماسية التى تهيج بها الشعور ، وتثير الخواطر — لا فى مصر وحدها — ولكن فى جميع العالم المتمدن .

وهكذا اختلفت طريقة (اللواء) عن طريقة (المؤيد) أوكانت كل منهما — فى الحقيقة — مكملة للأخرى . فالمؤيد تمثل عقل مصر المفكر ، و (اللواء) تمثل قلب مصر النابض . وبهما معا استطاعت الحركه الوطنية أن تسير إلى غايتها .

لذلك نظر التاريخ الى السيد على يوسف على أنه « الكاتب الصحفى » بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة . ونظر الى الزعيم الشاب مصطفى كامل على أنه « الخطيب السياسى » بمعنى الكلمة أيضا . والفرق عظيم بين الرجلين . وبين المذهبين ، وبين الصحافتين .

فصحافة (اللواء) تؤثر فى العواطف العامة ، وتلهب المشاعر الوطنية . وهى من هذه الناحية أقرب ماتكون إلى الخطابة فى جملتها . وأدنى الى مشارب الشبيبه وصحافة (المؤيد) تؤثر فى العقول ، وتجذب الشيوخ لا الشباب ، وتعتمد على المنطق ، وتجرى وراء المنفعه التى تتخيلها .

وهى من هذه الناحيه تعتبر (صحافه) بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة .

* * *

بقى أن نأتى بنماذج توضح لنا الفرق بين هذه المدارس الصحفية الثلاث من حيث اللغة وطريقة التفكير . ونحن مكتفون هنا بنموذج واحد فقط لكل مدرسة من المدارس السابقة . على أننا عاجزون أيضا عن الإتيان بهذا النموذج كاملا . بل نحن مضطرون الى الاتيان ببعضه تاركين لكم فرصة

استكمال النموذج فى مصادر أخرى .

نموذج من المدرسة الصحفية الاولى

بالرجوع الى العدد الأول من السنة الرابعة من حياة الجريدة الأهلية التى أنشأها عبد الله أبو السعود . وهى جريدة (وادى النيل) نجد مقالا للمحرر بعنوان .

حوادث أدبية سعيدة وممارسات عربية جديدة

« ان من طالع سعدنا أن وصل الينا بمصر القاهرة ، فى هذه الايام الحاضرة ، من نتائج أفكار أرباب القرائح العصريين، وثمرات أوراق اصحاب الفضل والادب السوريين ، المتوقدة أذهانهم الآن بمدينة بيروت ، ولا يليق بتاريخ اللغة العربية فى هذا العصر أن يلزم فى حقهم السكوت ، عدة نسخ متوالية ، وجملة أعداد متتالية ، من جريدتين أو دوريتين ، وصحيفتين خيريتين ، أومجموعتين أدبيتين ، بل مهرتين عربيتين أصيلتين تطبعان الآن بطبع مدينة بيروت الجميل ، على هيئة كراسة صغيرة فى شكل صحيفة وادى النيل . وتتراكضان بغاية اطلاق العنان فى ميدان الأخبار السياسية . أى أخبار بعض الدول المجاورة ، والممالك المعاصرة ، من الحكومات الاسلامية والافرنجية ، وغيرها من سائر الأقطار الأجنبية ، فضلا عن النكات الادبية .

وكلتاهما من الطرافة والكياسة ، وعظم الفائدة والنفاسة فى درجة عالية وهيئة حالية . وكأنهما فتاتان من الجآذر الاوروبية ، وقد بدتا فى كنائس نصرانية ، متجملتين بمآزر مشرقية عربية ، أو برانس مغربية .

احداهما تنشر باسم (الزهرة) بتأليف وإدارة الاديب الاريب ، والكاتب اللبيب ، والاخذ من الكتابة بمجامع الفنون ، المدعو « بيوسف الشلفون » .

والثانيه تظهر باسم (الجنان) جمع جنه - بقلم وإدارة المؤلف اللطيف

والمصنف المتقن الظريف ، أصمعى هذا العصر الثانى ، المشهور باسم (بطرس البستانى) مع شبله الشاب الفهيم المعروف كذلك (بسليم) الخ

وعلى هذا النحو مضى محرر (وادى النيل) يحيي جريدتى (الزهرة) و (الجنان) ويقدمهما إلى جمهور القراء . وبالرغم من طول هذا المقال فأن السجع لم يفارقه من أوله الى آخره .

والتشبيه والاستعارة لا يختفيان من سطوره الى نهايته فهو تارة يشبه الجريدتين بمهرتين عربيتين أصيلتين ، وأخرى بفتاتين جميلتين غريبتين وهكذا .

ولا تقل ان ابا السعود يتكلف السجع والبديع لان المجال هنا مجال أدبى هو مجال التقديم والتحية لجريدتين من الجرائد السورية . فانه تكلف هذا السجع حتى فى كتابه الأخبار الداخلية والأخبار والخارجية فى نفس هذا العدد الذى رجعنا اليه .

نموذج من أسلوب المدرسة الثانية

فى أثناء الحرب الروسية التركية التى كانت بمثابة حجر الزاوية من الصحافة الشعبية ، والتى قسمت المصريين قسمين : قسم يعجب بأبطال الترك ، وقسم يعجب بأبطال الروس كتب اديب أسحق فى جريدته (مصر) مقالا يدعو فيه الى إعانة جرحى الحرب فقال :

«فى معترك أومضت فيه بروق المرهفات ، ولعلعت رعود المدافع ، فقتلتها غيوث الكرات . وسكرت السيوف بخمر من الدم فعربدت فى الرءوس ، وعقد العثير لملك الموت سرادقا مطينا بالفنا . والخيل ساغبة تقبل ثقالا ، وتعود خفاقا . وكأنها — وقد أعياها الفارس حيا — قد غضبت على الانسان ، فاحتجبت بحجاب الضباب . وتململت الأرض من أعماله ، فزلزلت زلزالها ، وكادت تخرج أثقالها . فارتعد الرعديد ، وثبت الصنديد ، ونادي منادي الحراب : من فر من الموت وقع ، ومن كان ينوى أهله

فلارجع . . طريح على الأرض جريح ، ذو كبد حرى ، يستجير وإحدى يديه فوق الكبد الأخرى . يذكر خليلة أو حليله ، آلمه فراقها مع أمل الرجوع . فما الظن به وقد اختفى نور ذلك الأمل ، ووالدة تألمت به جنينا ، وأرضعته طفلا ، وربته يافعا ، وسهرت عليه حالما ، ووالداً واساه فى كآبته ، وسلاه فى حزنه ، وتوجع له فى مصابه . ثم تنجلى له الدنيا بزخرفها وزينتها . ، فيرى مرير عذابها حلوا ، وكدر مشاربها صفوا . . .

فهذا هو الانسان ، الجريح بسلاح الانسان ، المطلوبة مساعدته من الانسان » .

ثم استشهد الكاتب بهذه الأبيات :

الحرب أول ماتكـــون فتنة تسعى بزينتها لكل جهـول
حتى إذا حميت وشب شرارها عادت عجوزاً غير ذات خليل
شمطاء جزت رأسها وتنكرت مكروهـــة للثم والتقبيل

فانظروا الى أديب اسحق كيف كتب المقال بلغه أدبية راقيه ومتكلفة ، لا شك أنها ارقى بكثير من لغة أبى السعود ، وأدل منها على الأصالة الأدبية والثقافة اللغوية والبلاغية ونحو ذلك .

ولكن يجب أن تلاحظوا هنا أن كتاب الصحافة العربية ، ممن ينتمون إلى المدرستين الأولى والثانية عجزوا كل العجز عن أن يفهموا الفرق بين لغة الأدب ولغة الصحف .

واستمر هؤلاء وهؤلاء على هذا النحو ، حتى أخذ كل من الشيخ محمد عبده أولا ، والسيد عبد الله النديم ثانيا - يدنوان من الأسلوب الصحفى شيئا فشيئا ، ويمهدان لظهور المدرسه الثالثة من مدارس الصحافة المصرية رويداً رويداً . وإن كان ذلك لم يمنع قط من أن تسيرا الطريقة الأدبية قدما هى الأخرى ، حتى بلغت أوجها ونهايتها على يد رجل كابراهيم المويلحى فى جريدة مصباح الشرق - كما عرفنا .

نموذج من صحافة المدرسة الثالثة

سبق لى أن أشرت لكم أن مقـالات السيد على يوسف بعنوان (قصر الدوبارة بعد يوم الاربعـاء) - وعددها اربع

عشرة مقالة - تعتبر نموذجا حسنا (للأسلوب السياسى) الذى امتازت به المدرسة الصحفية الثالثة فى مصر . والحقيقة أننى لا أستطيع أن أفضل مقالة من هذه المقالات على أخرى من هذه الناحية فلأكتف بجزء من المقالة السادسة من هذه المجموعة . وهى المقالة التى كتبها السيد على يوسف بعنوان :

التعليم ونظارة المعارف

فقد استهلها الشيخ بجملة اقتبسها من تقرير كتبه اللورد كرومر عام ١٩٠٣ ؛ وهى قوله :

« ان التقدم فى المعارف يتوقف على كون نظام التعليم وافيا بحاجات الأمة على أختلاف طبقاتها » . ثم قال :

« إن سياسة التعليم التى جرت عليها نظارة المعارف المصرية ، وينفذها المستر دانلوب بغلظة وصلابة هى أن تكون المكاتب الابتدائية رافعة لأمية الذين يتعلمون فيها القراءة والكتابة بقدر الامكان .

« والحكومة توهم بأنها راغبة فى نشر التعليم الصناعى . وهمتها فى ذلك واهية . وغاية التعليم الثانوى والعالى عندها واحدة ، هى إعداد الفئه اللازمة لخدمة الحكومة بالشبان ليس إلا . فالتعليم الرسمى هنا يقتصر على حاجة الأمة من بعض وجوهها - لا كلها ، ويقصر نفعه على فريق قليل منها فلا يشمل كل الطبقات .

« وقد نادى مجلس شورى القوانين حتى بح صوته فى سنين كثيره يطلب النظر فى لوائح التعليم . فكان يجاب عن ذلك بأنه ليس من اختصاص مجلس الشورى نظر لوائح التعليم

« وأنها امظاظة لا معنى لها . فالأموال التى تنفق على التعليم من خزينة الحكومة هى أموال الأمة . والأموال التى تؤخذ أجرة للتعليم من آباء التلاميذ هى أموال الأمه . والموظفون الذين يفرضون على زمام إدارة التعليم فى نظارة المعارف إنما يأخذون مرتباتهم من أموال الامة . وكلما ارتفع صوت أعضاء المجلس يطالب النظر فى برامج التعليم قيل لهم بلسان دانلوب :

« إننا لا نراكم أهلا لأن تنظروا فى نظام تعليم أنتم جهلاء به فلا تطلبوا ما استم أهلا له .

« ومعنى هذا أن الحكومة لا تريد إلا ما يريده قصر الدوبارة من سياسة التعليم .

« وقصر الدوبارة بمثابة وصى على قصر أغنياء ليس لهم مجلس حسبى يراقب أعمال الوصى . ويضع حدا لرشدهم . فلا الوصى يحب أن يخرجهم من هذه الوصاية ، ولا القصر قادرون بذواتهم على الخروج . ولا رقيب فوق الوصى يحسب له الوصى حسابا . والسر كله فى العلم والتعليم لأنهما ينبوع رشد القاصرين ...

« وأكبر لعبة أظهرتها سياسة الاحتلال فى التعليم ، ليبهر بها أبصار الاجانب والوطنيين « لعبة إنشاء (الكتاتيب) فى البلاد . والمعيب فى هذه اللعبة أنها أقرب للرياء منها لشرف القصد . ولقد نفذت بطريقة هى الرياء كله . إذ ترك لكل مدير أن يتنافس مع زملائه فى حض الاعيـــان على انشاء المكاتب الاولية . ومن ثم عادت للعمد سلطتهم الاولى فى الضغط على الفقير لاستنزاف جلده قبل جيبه .. فتحول الخير شرا من وجهين :

وجه الرياء من جهة ، ووجه الارغام من جهة ثانية .

والخلاصة أن سياسة التعليم الجارية الآن غير مقيدة لتكوين أمة ينبغ فيها العلماء فى كل فن ، ولا هى سائرة للامام قدما . لأن التقدم فى المعارف والعلوم يتوقف على كون نظام التعليم وافيا بحاجات الامة على اختلاف طبقاتها كما قال اللورد » (١)

فى هذا النموذج الاخير تلاحظون معى أشياء منها :

أولا – أن صاحب المؤيد كان يتحدث الى اللورد كرومر فى هدوء واتزان ، ويجادله بجادلة تقوم على المنطق والبرهان ، ويسخر من سياسة التعليم فى مصر سخرية لا يناله الاذى منها ، وهى فى الوقت ذاته تؤدى الغرض الذى ترمى اليه .

---

(١) المصدر المتقدم ج ٤ ص ١٥٦ – ١٥٧

ثانيا — أن اللغة التى كتب بها المقال أقرب الى الصحافة بمعناها الصحيح منها الى الأدب بمعناه الصحيح . فلا سجع ، ولا استعاره ، ولا مقابلة ، ولا مطابقة ، ولا استشهاد بالشعر ونحو ذلك. بل انه اذا كان ولا بد من الاستشهاد فى هذا المجال فلا بأس أن يكون من كلام الساسة فى خطبهم وتقاريرهم ، كما استشهد السيد على يوسف هنا بكلمة جاءت فى تقرير كرومر ، بدأ بها المقال وختمه بها كذلك .

ثالثا — أن أسلوب السيد على يوسف فى مقاله هذا لا يعتمد بنوع خاص على التشبيه . ولكن اذا كان ولا بد من هذا التشبيه فليكن مشتقا من الحياة الواقعة نفسها ، أو ليكن مأخوذا من التراكيب المصرية ذاتها . خذ لذلك مثلا فى هذا المقال : تشبيه السيد على يوسف سلطة الوكالة البريطانية فى مصر بسلطة الوصى على اطفال قصر . وهو تشبيه واقعى دقيق ، مضى فيه الشيخ الى نهايته كما رأينا .

* * *

تلك فكرة موجزة عن المدارس الثلاث التى مرت بها الصحافة المصرية منذ ظهورها الى ثورة سنة ١٩١٩ .(١)

المدرسة الأولى - ذات المنحى الثقافى .

والمدرسة الثانيه - ذات المنحى الاجتماعى .

والمدرسة الثالثة - ذات المنحى السياسى .

وسنفرد كل اتجاه من هذه الاتجاهات الثلاثة بمحاضرة واحدة ، لنرى الظروف التى حددت هذا الاتجاه ، ونرى النتائج التى حققتها البلاد من وراء هذا الاتجاه ، ثم الطريقة التى سلكتها الصحافة — ومعها الأدب — فى سبيل الوصول الى هذا الاتجاه .؟

---

(١) لا تتسع المحاضرة الواحدة فى الغالب لتتبع الفن الواحد من الفنون الادبيه أو الصحفية التى تحدثنا عنها ؛ وذلك منذ نشأة هذا الفن الى الوقت الحاضر . ولهذا نضطر فى أكثر الاحيان الى أن تقف بهذا الفن أو ذاك عند ثورة سنة ١٩١٩ . فنرجو أن يلاحظ القارىء ذلك

٩

المقالة فى الاتجاه الثقافى

منذ ولى رفاعة الطهطاوى أمر « الوقائع المصرية » وكان ذلك فى الحادى عشر من شهر يناير سنة ١٨٤٢ ميلادية ـ وجدنا له اهتماما خاصا بالجانب الثقافى لهذه الجريدة الرسمية . وقد عاشت هذه الجريدة قبله نحوا من أربع عشرة سنة وهى عاطلة تماما من هذه الناحية . يوم كانت مقصورة على أخبار الحكومة ، واعمال الوالى ، وبعض الحوادث التى تجرى بين الاهالى ، وبعض الأخبار الخارجية القليلة من هنا وهناك .

فى ذلك التاريخ ـ وهو ١١ يناير سنة ١٨٤٢ ـ صدر قرار مجلس الشورى (بأن تحال المواد المناسبة من الجرائد الأجنبية ، وعلاوة بعض القطع الأدبية من الكتب الأدبية ، وانتخاب أخبار الملكيه ، وترتيب الجريدة المصرية بصفة عامة على حضرة الشيخ رفاعة) (١) .

واذا ذهبت تتصفح عددا من أعداد الوقائع المصريه منذ أشرف عليه الطهطاوى هذا ـ وليكن العدد ٦٢٣ ـ على سبيل التمثيل . فأنك تراه مرتبا على هذا النحو :

أخبار داخلية ، فأخبار خارجيه ، فقطعة أدبية لرفاعة نفسه عنوانها «تمهيد» ، فأخرى فى موضوع السلطان وأخلاق السلطان . ثم فصل عنوانه تجارة . ثم قطعة مأخوذة من مقدمة ابن خلدون . وبذلك ينتهى العدد .

ثم أتى اسماعيل فعهد الى رفاعة الطهطاوى مهمة الاشراف على قلم الترجمة الملحق بديوان المدارس ، كما عهد اليه كذلك الأشراف على جريدة أخرى أسمها (روضة المدارس) . وقد صدر العدد الاول من أعداد هذه الاخيرة فى ١٧ ابريل سنة ١٨٧٠ .

---

(١) ادب المقالة الصحفية فى مصر ج ١ ص ١٢٣

« وكانت الصحيفة تصدر مرتين فى الشهر . . . ويكتب فيها من ينتخب من ذوى المعارف، ويستحسن نشره بين الناس من الفوائد العلمية لأجل توسيع دائرة الأفكار . وتحريرها يكون بعبارة سهلة التناول وجيزة مفيدة » . (١)

ومن ثم أصبحت هذه الجريدة توزع على طلبة المدارس . واقبل هؤلاء على قراءتها اقبالا عظيما كان يصرفهم فى كثير من الاحيان عن دروسهم بالمدرسه. وكانت الجريدة من الناحية الاخبارية الصرفة ـ تقصر عنايتها كذلك على اخبار المدارس والامتحانات وما يقال فى هذه الامتحانات من كلمات افتتاحية جرى العرف بها . وكلها ثناء على الخديو الذى شجع حركة التعليم ، وحركة انشاء المدارس ونحو وذلك .

واذا وقع لك عدد من اعداد هذه الجريدة أو المجلة وجدتها أشبه ماتكون بمجلة علمية لكليه من كليات الجامعة . فكما أنك لاتظفر فى مجلة جامعية بأكثر من ابحاث لأساتذة الجامعة ، عنى فيها هؤلاء الاساتذة بالحقائق العلمية وحدها ، فكذلك تجد روضة المدارس . فهى ليست أكثر من معرض للكتب التى يؤلفها الاساتذة المشتركون فى تحرير هذه المجلة ، وهى كتب ينشرونها فصلا فصلا ، أو ملزمة ملزمة » : (٢)

فملزمة أو فصل من « كتاب « حقائق الاخبار فى وصف البحار » لعلى باشا مبارك . وملزمة أو فصل من كتاب « تنوير الأفهام فى تغذية الأجسام » لعلى باشا مبارك أيضا . وملزمة أو فصل من كتاب « أثار الآزهار ومنشور الافكار » لعبد الله بك فكرى . وملزمة أوفصل من كتاب « بهجة الطالب فى علم الكواكب » لاسمعيل بك الفلكى وملزمة أوفصل من كتاب « المباحثات البينات فيما يتعلق بالبينات » لمحمد أفندى ندا . وملزمة أوفصل من كتاب « الصحة التامه والمنحة العامة » للدكتور محمد بدر . وملزمة أوفصل من كتاب « غرائب النوادر المضحكات والالغاز والاحاجى والنكات » للشيخ عثمان مدوخ مدرس الانشاء

---

(١) عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى مصر : ج ٢ ص ٥

(٢) ادب المقالة الصحفية فى مصر للمؤلف ج ١ ص ١٤٣

بمدرسة المساحة والمحاسبة وملزمة أو فصل من كتاب « الروضات النفحية والمقامات الفتحية » لاحمد فتحى بك ناظر مدرسة المساحة والمحاسبة . ثم فصل من كتاب « القول السديد فى الاجتهاد والتجديد » لرفاعة الطهطاوى . وفصل من كتاب « الفوائد البديعة فى علم الطبيعة » لعـلى أفندى عزت المـدرس بالمهندسخانة . وفصل من كتاب « النبذ الانتخابية فى فن الجغرافيا السياسية » لمحمد أفندى الطيب المدرس بالمدرسة التجهيزيه . وفصل من كتاب « العقد النظيم فى مأخذ جميع الحروف المصرية من اللسان القديم » للمسيو بروكشى - ترجمه أحمد أفندى نجيب أحد تلامذته . وفصل من كتاب « كنز اللآل فى الحكم والامثال » لمحمد أفندى بليغ عضو البعثه . إلى ملازم أو فصول أخرى كثيرة ومباحث طويلة فى الكيمياء والميكانيكا . وكلها محلاة بصور الاجهزة التى تعين على فهم هذه المواد الجديدة - ونحو ذلك »[1]

وهكذا كانت (روضة المدارس) مجلة أدبية وعلمية ذات أقسام ثلاثة : قسم للعلوم ، وقسم للاداب والانشاء ، وقسم للاخبار المدرسية ، تذكر فيه المدارس التى تم انشاؤها ، وأخبار الامتحانات التى تجرى بها ، مع التنويه أحيانا ببعض الدروس التى يلقيها أمثال الشيخ حسن المرصفى بدار العلوم فى موضوع الأدب بنوع خاص .

* * *

وهذا كله فى مجال الصحف الرسمية التى ينفق عليها من أموال الدولة . أما فى مجال الصحف الشعبية فقد وجدنا أن صحيفة (وادى النيل) لصاحبها عبدالله أبى السعود — وهو تلميذ رفاعه الطهطاوى — صـورة دقيقة من الصحيفة الرسمية المعروفة باسم « الوقائع المصرية » : فيها موادها ، وبها العناية بالمواد الادبية التى تفوقت فيها على الوقائع المصرية نفسها . فقد أخذت صحيفـة (وادى النيل) تخصص من صفحاتها جزءا تنشر فيه فصولا من الكتب الادبية والتاريخية القديمة على نحو ما فعلت صحيفة روضة المدارس . ولعل أول كتاب

---

(١) المصدر المتقدم ص ١٤٤

عينت صحيفة وادى النيل بنشره هو « كتاب تحفة الانظار فى غرائب الأمصار » لابن بطوطه.

* * *

ومضى زمن المدرسة الصحفية الاولى على هذا الوجه ، ثم تلتها المدرسه الصحفيه الثانيه فى مصر ، فوجدناهذه الاخيره أقل عناية بالاتجاه الثقافى من الاولى فقد شغل رجال هذه المدرسة من أمثال محمد عبده ، وعبدالله النديم ،وأديب اسحق ، وسليم النقاش ، وصاحب الأهرام بأمور اجتماعية وسياسية إلى جانب انشغالهم بالامور الثقافية .

وثم فرق آخر فى المجال الثقافى بين المدرستين السابقتين . وهذا الفرق هو عناية الأولى بالجانب العلمى البحت من الثقافة .وان كان من الحق أن يقال أن الصبغة الادبية للنهضة الثقافية انما بدأت فى مصر من عهد اسمعيل ، ثم أخذت تزداد فى مصر شيئا فشيئا : ومن الحق أيضا أن يقال إن السوريين المقيمين بمصر أعانوا يومئذ على هذه الصبغة الادبية ، وكان لهم فضل فى قوتها وتغلبها على الصبغة العلمية البحته فيما بعد .

كان رجل كأديب اسحق أو سليم النقاش كثيرا ما يأخذ من معين اللغة الفرنسية وينقل إلى القراء فى مصر والشرق كثيرا من أفكار الفرنسيين فى السياسة والاجتماع والفلسفة والاخلاق والادب .وذلك كله فضلا عن القصص المسرحية الكثيرة التى نقلوها من الفرنسية الى العربيه — كما اسلفنا .

لقد شرح اديب اسحق فى مقالاته للمصريين والشرقيين معنى الحرية والوطن والوطنية . كما شرح لهم نظريه فصل السلطات ، والحكم النيابى ، وواجبات الدولة نحو الافراد ، وواجبات الافراد حيال الدولة . ومضى الأديب السورى فى هذه الكتابات حتى وصل الى روسيا ، فوصف نظم الحكم بها وتعرض لكثير من الأفكار الشائعة بين أهلها ، ووازن بينها وبين الدول الأخرى فى كل ذلك .

وليس شك فى أن الحرب التى قامت بين روسيا وتركيا فى تلك الفترة

كانت الباعث الحقيقى له ولغيره من الكتاب على إنشاء هذه المقالات التى أرادوا فيها الدفاع عن الدولة العثمانية ضد الدولة الروسيه مسفهين آراء الأخيرة محبذين آراء الأولى ، كل ذلك فى حماسة بالغة للشرق الذى هو مهبط الرسالات والذى هو الموطن الأول (للشعلة) التى انبعثت فى أوربا ، وهى الشعله التى أضاءت الطريق لفرنسا ولثورتها المعروفة فى التاريخ .

* * *

وأخيرا نصل الى المدرسة الصحفية الثالثه فنراها سياسية الصيغه فى الاعم الأغلب .

ولكن هذه المدرسة آمنت مع ذلك بقيمة الثقافة . وكان من نتائج هذا الإيمان العميق فى نفوس أفرادها ظهور (مشروع الجامعه) .

ومن الانصاف هنا أن يقال إن أكثر أفراد هذه المدرسة الأخيرة عنوا بأمر التعليم فى البلاد، واظهروا اهتماما بسياسة التربية التى جرت عليها الحكومة فى تلك الأوقات. وكان من أظهر هؤلاء فى هذا السبيل أحمد لطفى السيد رئيس تحرير « الجريدة » وله فى هذا الميدان بلاء لا يقل عن بلاء غيره فى مجال الدين أو المجتمع أو السياسة.

« وإن نظرة واحدة إلى آراء هذا الكاتب الفيلسوف فى شؤون التربية والتعليم لترينا فى وضوح أنه صدر فى آرائه المختلفة عن هذه القواعد الثلاث:

الأولى – أن الانسان خير بطبعه – كما قال جان جاك روسو – وأنه قابل للتربية والتهذيب ، وأن فى استطاعة الأمة أن تقوم فى أعداد أبنائها على أساس هذا الرأى

الثانية – أن الغرض من التربية والتعليم هو الحصول على صفة التوازن الخلقى والنفسى فى الأمة والفرد . فعلى الأمة والفرد الاهتمام بتنمية العقل وبتنمية الجسم بقدر واحد فيهما تقريبا .

الثالثة – أن الغرض من التعليم فى نظر الباحث الاجتماعى هو الحصول على أكبر قدر ممكن من التشابه بين أفراد الأمة الواحدة . ذلك أن التشابه هو

المصدر الحقيقي للألفة . والالفه هي السبب الحقيقي في التضامن والوحدة . والتضامن هو الطريق للتقدم الذي ينشده المجتمع .[١]

مهما يكن من شيء فنحن إذ ننظر إلى المدرسه الصحفية الثالثه في مصر — فنجد أنها تمتاز عن سابقيتها بأمور أربعه . هي : التعقيل ، والتجديد في الاساليب ، وهضم الثقافة الاوروبية — بعد اذ تم نقل الكثير منها على يد المدرسة الاولى - والعمل على نقل الحضارة الاوروبية قصد الانتفاع بها والاسترداد منها » [٢]

ويبدو لنا أن الاتصال الحقيقي في مصر بالفلسفه اليونانية بدأ على يد أحمد لطفي السيد من رجال المدرسه الصحفيه الثالثه . فقد أعجب هذا الرجل اعجابا شديدا بأرسطو ، وترجم له خمسة كتب وهي :

كتاب الطبيعة ، وكتاب الكون والفساد ، وكتابان في الأخلاق بعنوان : إلى نيقوماخوس . وكتاب في السياسه . نقلها كلها عن سانت هيلير وان قيل في هذا الاخير إنه ليس بثقة .

« وعلى قدر إعجاب الرجل بأرسطو كان شديد الاعجاب كذلك بكل من : كانت الألماني ، وفولتير ، وروسو من الفرنسيين ، وستوارت مل الانجليزي (صاحب مذهب المنفعة) . وتولوستوي الفيلسوف الروسي ، وجوستاف لوبون الفيلسوف الفرنسي ، وغيرهم ممن قرأ لهم ، وظهر أثر ذلك واضحا فيما كتب من مقالات على صفحات « الجريدة »

أما (اللواء) فكانت عنايتها بالامور الثقافيه دائما ذات هدف وطني حيناً واسلامي حيناً آخر . ومن ثم دعت اللواء الى الكتابة عن أبطال الاسلام وجمعت طائفة من المقالات في هذا المعنى في كتاب أطلقت عليه اسم (حماة الاسلام) لمؤلفه مصطفى نجيب « وهو صاحب هذه المقالات التي نشرتها هذه الصحيفة كما قدمنا .

---

(١) ادب المقالة الصحفية في مصر ج ٦ ص ١٣٦ — ١٣٧

(٢) نفس المصدر ص ٥

وبمثل هذه الطريقة كانت اللواء تنشر مقالات جليلة فى تراجم الشخصيات الكبيرة التى كان لها أثر فى بناء النهضة الحديثة فى مصر وفى الشرق .

* * *

غير أن المجلات الثقافية بعد الربع الاول من القرن العشرين دخلت فى دور « التخصص » : فمجلة خاصة بالمحامين ، وأخرى خاصة بالمهندسين . وثالثة خاصة بالمدرسين . وصحيفة تختص بالزراعه ، وأخرى بالصناعة ، وثالثة بالاقتصاد ، ورابعه بالمجتمع ، وهكذا . بل ان الاتجاه السائد الآن هو أن يكون لكل وزارة من وزارات الحكومة مجلة خاصة بها ، ولكل هيئة من هيئات (الانتاج القومى) أو السياحة مجلة خاصة بها كذلك .

ولا شك أنه ما دامت هناك جهة من الجهات تستطيع الانفاق على هذه الصحف والمجلات فانها تضمن لنفسها البقاء — ولو فى المحيط الخاص بها ، وبين أفراد الفئة أو الطائفة التى يعنيها الامر .

أما الصحافة الادبيه الخالصه فهى التى أصيبت فى مصر بكارثة !

نعم — كانت مصر إلى عهد قريب تنعم بطائفه من الصحف ذات الطابع الادبى الرفيع . ومنها على سبيل المثال : مجلات الهلال ، والمقتطف ، والبيان ، والبلاغ الاسبوعى ، والسياسه الاسبوعيه ، والفصول للاستاذ محمد زكى عبد القادر ، ومجلة (أبولو) التى أصدرها الدكتور زكى أبو شادى عام ١٩٣٢ وجعلها مخصصة لفن واحد فقط من فنون الادب ، هو فن الشعر . ثم صدرت الرسالة عام ١٩٢٣ . وتلتها مجلة الشباب للأستاذ محمود عزمى ، وجريدة منبر الشرق للشاعر الأديب على الغاياتى ، ومجلة الثقافه عام ١٩٣٩ . وقد تولى رياسة تحرير هذه الاخيرة الاستاذ أحمد أمين . وكتب فيها أعضاء لجنة التأليف والترجمه والنشر ، واتصل بها اساتذه الجامعة ، ووصلت اليها المقالات والاشعار من كبار الادباء فى العالم العربى كله تقريبا .

« وهكذا شهدنا فى مصر حركة أدبيه فكريه مباركه . غير أن اشتعال الحرب العالميه الثانيه فى أول سبتمبر عام ١٩٣٩ جعل المجلات الادبيه تنكمش ؛

وتتضاءل بعض الشىء ، كما جعل الصحف اليوميه تؤثر أنباء الحرب وتطورات المعارك على أخبار الادب والفكر . فلما بدأت المعارك تتكشف عن قرب انتصار الحلفاء على الالمان – بعد نزول قوات ايزنهاور فى بلاد المغرب الافريقى – أصدر الامريكان طبعة عربيه لمجلتهم الشهريه المعروفه باسم Readers Digest وجعلوا الاستاذ فؤاد صروف رئيسا لتحريرها . وصدرت تلك الطبعة العربية باسم (المختار) ».[1]

غير ان مجلة (المختار) كادت تقصر عنايتها على نشر الآراء الامريكية والافكار التى تتفق والمذهب السياسى والاجتماعى للولايات المتحدة . ولأن أكثر مواد هذه المجلة كان مترجما – كما ذكرنا – فقد كانت لغتها بعيدة نوعا ما عن الذوق المصرى الذى لم يعجبه منها غير الافكار العمليه والآراء التى تتصل اتصالا قويا بالحياة العامة .

ثم لم تكد الحرب العالمية الثانية تضع أوزارها حتى ظهرت فى الميدان الأدبى مجلة شهرية باسم (الكاتب المصرى) تولى تحريرها الدكتور طه حسين ، وكتب فيها بعض اساتذة الجامعة . وكانت هذه المجله الاخيره شديدة العناية بالنقد والفكر العالمى الحر . وكان الدكتور طه حسين ينشر فيها مقالاته المشهورة تحت عنوان (المعذبون فى الارض) . ومع هذا وذاك فلم تطل حياة (الكاتب المصرى) كما لم تطل حياة (المختار) .

ثم ما هى الا فترة قصيرة حتى ظهرت مجلة أدبية ، باسم مجلة (الكتاب) للاستاذ عادل الغضبان . غير أن هذه المجلة صارت الى ما صارت اليها الرسالة ، والثقافة ، والمقتطف ، والمختار ، والكاتب المصرى ، فاحتجبت عن الانظار ، وخلا الميدان الأدبى والثقافى فى مصر الا من مجلة (الهلال) التى اسسها جورجى زيدان سنه ١٨٩٢ ولم تزل باقيه الى اليوم .

فما الذى افضى بالصحافة الادبيه فى مصر الى هذه الكارثة ؟ وما اسبابها ؟ ، وهل هناك أمل فى أن تعود الصحافة الادبية فى مصر سيرتها الأولى ؟ الواقع إن الآراء اختلفت فى هذا الموضوع اختلافا كبيرا .

---

(١) مختار الوكيل : محاضرة بعنوان الصحافة والأدب : ص ١٠

فمن قائل انها الصحافة اليوميـة التى (عودت القراء كل بسيط سهل من الأراء والافكار . وهى تغالى فى هذا المضمار ، فتنشر مقالات ربما أدت بالقـارىء الى لون من الجمود والتبطل الذهنى . بل لعل يوما قريبـا يأتى ونرى فيه القراء لايبذلون أى جهد حقيقى لفهم ما يطالعون) (١)

ومن قائل (أن السينما أو دور الخياله طغت على الشباب المصرى . وصرفته عن القراءة فى الكتب والمجلات ونحوها ، وعودته الاعتماد على هذه الطريقه فى كسب المعلومات ، وفهم أسرار الحياة) .(٢)

ومن قائل (إن العيب الأول إنما هو فى كتاب الصحف أنفسهم لقلة حظهم من الثقافة الادبية الواسعة . وفى ذلك يقول الاستاذ فؤاد افرام البستانى عميد الجامعة اللبنانية فى حديث له مع مجلة (الهاتف) العراقية :

فاذا تخصص أحدهم فى تحرير راوية الأدب مثلا أحس أن من واجبه أن يتحدث الى قرائه عن الأدب الفرنسى أو الانجليزى — وقد لا يكون ملما بشىء منهما — فيكتفى بنقل قطعة أدبية عن اللغه الاجنبية التى يعرفها على غير تعمق . فيعرض بضاعة اجنبية الاصل ، ولكنها فاسدة النقل. فاذا اطلع عليها أحد العارفين عزف عنها . بل عزف عن المجلة بكاملها واحتقرها) .

ومن قائل أن من أسباب اختفاء الصحف الادبية عندنا قلة عناية أصحابها بالاخراج الفنى لهذه الصحف ، وعدم اهتمامهم بتزويدها بالصور الفنية وآشباهها . فإن فى الاكثار من هذه الصحف مايجذب القراء ويغريهم بشراء المجلة أو الصحيفة الخ ؟

---

(١) المحاضرة المتقدمة ص ١٢

(٢) اذكر ان القائل بهذا الرأى هو الاستاذ عباس العقاد.

١٠

المقالة فى الاتجاه الاجتماعى

تعرفون أن الحضارة الاسلامية فى جملتها حضارة دينية المصدر والنشأة، وأن الحضارة الاوروبية الحديثة قائمة على أسس عقلية وعلمية بحتة. ومنذ التقت الحضارتان معا على أرض مصر كان من نتيجة التقائهما أن حدث تخلخل عام فى الحياة المصرية، أعقبه صراع هائل فى نفوس المصريين وقلوبهم أيضا. ففكر المصريون من تلقاء أنفسهم أن يملأوا هذا الفراغ الذى أحدثته هذه الحالة فى عقولهم وافئدتهم: فمنهم من عمد إلى الالحاد جهره، ورأى فيه الخلاص من هذا الموقف. ومنهم من عمد الى الاصلاح الدينى على أساس جديد؛ هو عقد الصلح بين الدين والمدنية. ومنهم من فكر فى الأنضمام الى المعسكر الأوروبى جملة، وحاول ان يحتذى الحياة الأوروبية نفسها بدقة. فجاءت محاكاته لهذه الحياة مجردة من المنطق، ولا نظر فيها مطلقا الى ماضى الأمة المصرية وهكذا.

ولا غرابة فى ذلك فأنتم تعرفون أن البيئة المقلدة أشد من البيئة الاصيلة تطرفا فى التقليد. فاذا كانت مصر مقلدة لأوربا، حديثة العهد بعلمها وحضارتها، فمعنى ذلك أنها أشد تطرفا فى الأخذ من ظاهر الحضارة الحديثه. حتى لاتتهم بالتخلف عن أوروبا فى مضمار هذه الحضاره.

وتلك هى المشكله التى واجهت المصلحين فى مصر، وراحوا يفكرون فى حلها، والتغلب عليها ماوسعهم التفكير فى هذه المسأله.

كيف يخلق المصلحون من هذا المجتمع الذى أصابه التفكك أو التخلخل أمة قوية تصلح لمباراة الامم الأوروبية فى مجال التمدن والترقى؟.

قال السياسيون: فلنحارب الاحتلال البريطانى بكل قوة. ومن هنا نشأت الحركه الوطنيه، وبلغت أوجها على يد الزعيم الشاب مصطفى كامل.

وقال المفكرون من غير السياسين: بل نحارب الاستبداد فى كل مظاهره؛

كالاستبداد فى الحكم، والاستبداد فى الطبقات، والاستبداد فى الدين . وإن كنا نعلم أن الشعب المصرى من أكثر شعوب العالم كله خضوعا لحاكم مستبد ، ولطبقة إقطاعية، ولدين لم يحاول أصحابه أن يخلصوه مما علق به - عبر القرون الطوال - من خرافات وأوهام ؛ قبحت صورته. وأوهنت من قوته ، وهبطت بروحانيته الى الدرجة التى يرثى لها . وفى هذا الميدان الأخير - وهو محاربه الاستبداد السياسى والاجتماعى والدينى - وقف رجال كثيرون من أمثال : محمد عبده ، وعبد الله النديم وعلى يوسف، ويعقوب بن صنوع، وعبد الرحمن الكواكبى الخ وكلهم ائمة الاصلاح الاجتماعى . ومنهم تألف الرعيل الأول فى ميدانه . أما الرعيل الثانى فمن رجاله رفيق العظم ، وعبد القادر حمزه ، وعبد العزيز جاويش ، وطنطاوى جوهرى ، ورشيد رضا الخ .

الأولون من السياسيين طالبوا بالدستور وبالجلاء ، وبهذه الأشياء التى تمس سيادة الدولة المصرية ، وتؤثر فى كيانها السياسى فى الجملة .

والآخرون من المفكرين الاجتماعيين طالبوا بالاصلاح الدينى، وبالحرية الفكرية ، وبالمقاومة الفعلية لكل من تحدثه نفسه من الأوروبين بمهاجمة الدين الاسلامى . ولقد كانت الوكالة البريطانية من أخطر الجهات التى هاجمت الدين الاسلامى فى تقارير كانت تصدرها كل سنة لهذه الغاية، ولغايات أخرى كذلك

على أن فكرة الاصلاح الدينى أو الاجتماعى فى ذاتها صادفت هوى فى نفس كرومر وخلفائه من بعده، لأنها الفكرة التى تشغل بال الرأى العام المصرى عن المطالبة بالاستقلال او الجلاء ونحو ذلك ، أو لأنها الفكرة التى لو نجحت فى مهمتها أصبحت دليلا فى ذاتها على نجاح الاحتلال البريطانى فى مهمته . وهذه المهمة فى ظاهرها هى الأخذ بيد المصريين الى الحضاره ، والسير بهم الى حيث يلحقون بالأمم الاخرى .

والحق - لقد كان كل من هذين الفرقين السابقين ؛ فريق المصلحين السياسيين ، وفريق المصلحين الاجتماعيين على صواب فى نظرته الى المجتمع المصرى ، وحاجات الأمة المصرية . وكان هؤلاء وهؤلاء مسيطرين يومئذ على الميدان الفكرى ، والميدان الأدبى . وكان من نتيجة ذلك أن اصطبغ الأدب المصرى كله ، والفكر المصرى كله بصبغه اجتماعيه فى أكثرها .

ولقد وضحنا آثار ذلك عند الكلام عن القصة ، وعن القصيدة ، بما لا يدع مجالا للشك فى صحة هذه الدعوى . وبقى أن نوضح آثاره فى المقالة ، متوخين الايجاز الشديد . فهذا وذاك بعض تعرضناله فى كتابنا «أدب المقالة الصحفية فى مصر » .

* * *

كانت سنة ١٨٩٩ سنة ميمونة الطالع على حركة الاصلاح الاجتماعى فى مصر والشرق . وذلك بما ظهر فيها من كتب هامة أشرنا الى بعضها . ومنها كتابان لقاسم أمين . وهما كتاب (تحرير المرأة) ، فكتاب (المرأة الجديدة) وكتابان آخران لايقلان عن الأولين شهرة ، ولا تأثيرا فى المجتمع المصرى وهما للسيد عبد الرحمن الكواكبى (١٨٤٨ — ١٩٠٢) . وهذان الكتابان هما : (طبائع الأستبداد) ، (وأم القرى) .

وهذان الكتابان للكواكبى عبارة عن مقالات له نشرها فى صحيفة المؤيد وصحف أخرى ، ثم جمعهما بعد ذلك ، أولهما فى نقد الحكومات الاسلاميه . وثانيهما فى نقد الشعوب الاسلامية .

« ولقد كان الحديث فى مثل هذه الموضوعات التى مسها الكواكبى من الأشياء المحرمة . لأنها تمس نظام الحكم من قريب ، وتفهم الشعوب حقوقهم وواجباتهم . وتهيئهم للمطالبه بهذه الحقوق اذا سلبت ، والقيام بالواجبات اذا اهملت . . وهذا ابغض شىء لدى الحاكم المستبد . ولذلك رأينا الشرق من بعد ابن خلدون أغلق هذا الباب ، ولم يفتحه أى باحث بعده . وصار كتاب ابن خلدون مقدمه بلانتيجه » (١)

لقد كان لهذه الكتب الأربعة من جهة ، ولكتابات الافغانى ومحمد عبده من جهة ثانيه ، ولصحف النديم ويعقوب بن صنوع المعروفة من جهة ثالثة الفضل كل الفضل فيما نالت البلاد من تقدم وما لاح عليها من علائم الصحة العقليه والنفسيه . فى

احمد أمين : زعماء الاصلاح ص ٢٥٣

(١) المصدر السابق ص ٢٥٦

هذه الكتب والصحف التى أشرنا اليها يجد الباحث طائفه من الافكار التقدمية والآراء الإصلاحيه تكفى كل واحدة منها لأن تنقل الأمة من طور إلى طور ، وتأخذ بيدها من حال الى حال أخرى . فهذا :

محمد عبده

كان من رأيه أن الإصلاح ينبغى ان يبدأ من الدين . فقصر همه أولا على تجديد هذا الدين ، أو على تنقيته من الخرافات والبدع التى طمست على عقول المسلمين ، وكانت سببا فى تأخرهم ؛ حتى أصبحوا سخرية الأمم الأجنبية (١)

ولاشك أن الذى يحارب البدع فى أمة من الأمم يصبح عدواً لحكامها ، وأولى الأمر فيها . ، لأن هؤلاء الحكام والولاة إنما يعيش أكثرهم فى ظلام البدع والأوهام والدعايات،ويضمنون لسلطانهم البقاء فى أوطان لا تعرف معنى للحرية السياسية أو الفكريه . ومن هنا كان الشيخ عدواً لعباس حلمى الثانى.

وكان للشيخ محمد عبده وسائله الكثيرة الى هذا الإصلاح ومنها :—

اولا – تفسير القرآن. وفى القرآن دعوة الى تحرير العقل ، وفيه حث على الفضيلة ، وفيه بيان للعقيدة الإسلامية التى بنيت على الوضوح والبساطة .

ثانيا – التوفيق بين الدين والعلم أو المدنيه . وفى هذا الميدان الأخير اشترك كثيرون مع الشيخ الإمام ، وأتموا عمله فى الحقيقه. ومن هؤلاء — على سبيل المثال – عبد القادر حمزه ، ورفيق العظم ، وطنطاوى الجوهرى ، ورشيد رضا وغيرهم .

ثالثا – اصلاح الازهر نفسه. وكان الأستاذ الإمام ينظر الى هذا الإصلاح على أنه اكبر خدمه يمكن ان تؤدى للاسلام . مادام الأزهر أقدم جامعة دينيه فى الشرق العربى كله ، وما دام الازهر موئل الدين والمعتقدات

---

(١) كان من أخطر هذه البدع التى حاربها محمد عبده ماجاء عن طريق مشايخ الطرق أو الدراويش من مثل عادة (الدوسه) . وهى ان يدوس حمار الشيخ ظهور مريديه وهم منبطحون على الأرض وذلك بزعمهم لتلقى البركة . من الشيخ بهذه الوسيلة

فى مصر والعالم الإسلامى كله .

وفى هذا السبيل تحمل الشيخ محمد عبده كل الوان الأذى ، من جانب الحكومه حينا . والشعب المصرى حينا ، والأزهريين أنفسهم قبل هذين .

رابعا - الفتاوى : وكان الشيخ الامام كثيرا ما يفتى فى الأمور الشرعية بوحى من عقله ، ودافع من ميله إلى الاجتهاد . ولو أن الاجتهاد باب أغلقه المسلمون على أنفسهم منذ قرون عديدة . ومنذ ارتضوا لأنفسهم ذلك وعقولهم مشلولة ، وأذهانهم مطموسة ، وتفكيرهم مصاب بالعقم والجمود :

استفتاه الهنود فى جواز الإستعانة بالكفار وأهل البدع والأهواء فيما ينفع المسلمين من مثل تربية الايتام وشفاء المرضى فأفتى بجواز ذلك (١)

واستفتاه أحد المسلمين الترنسفاليين فى أمور ثلاثة ، وهى :

لبس القبعات ، وأكل اللحوم التى يذبحها النصارى على غير طريقة المسلمين ، إذ يضربونها (بالبلط) ولا يذكرون عليها اسم الله . وفى صلاة الشافعية العيدين خلف الحنفية . فأفتى بجواز الأمور الثلاثة .

وكثيرا ما كان الإمام يختم دروسه التى كان يلقيها على طلابه فى المنطق بدعوة سافره إلى حرية الرأى .

خامسا - الرد على فلاسفة الغرب ممن كلفوا أنفسهم مهاجمة الدين الاسلامى . ومن هؤلاء الوزير الفرنسى (هانوتو) . وقد رد عليه الشيخ محمد عبده بمقالات ست ، انفردت كل واحدة منها بتهمة من التهم التى وجهها الوزير الفرنسى إلى الاسلام ، ثم دحض الإمام الفكرة التى بنيت عليها التهمة . (٢)

* * *

(١) تاريخ الأسلام الامام ج ١ ص ٦٤٨ - ٦٦٦

(٢) راجع تعليقا على هذه المقالات :

كتاب (أدب المقاله الصحفية فى مصر) ج ٢ ص ١٠٥ - ١٠٨

Modern Egypt لكرومر ج ٢ ص ١٣٤

على أن مهاجمة الإسلام لم تكن من جانب الكتاب الفرنسيين وحدهم ، بل كانت - كما ذكرنا ذلك مرارا - بلهجة أشد وأسلوب أعنف من جانب اللورد كرومر وخلفائه من بعده .

يقول كرومر « ان الإسلام ناجح كعقيدة . ولكنه فاشل كنظام اجتماعى فقد وضعت قوانينه لتناسب الجزيرة العربية فى القرن السابع الميلادى . ولكنه مع ذلك لا يسمح بالمرونة الكافية لمواجهة تطور المجتمع الانسانى . فمن عيوبه أن يحرم المرأة كل حقوقها ، ويعتبرها أحط من الرجل . ومن عيوبه كذلك أنه يبيح الرق . ومن عيوبه التعصب والتطرف الذى يبيح لأتباعه أن يتخذوا المخالفين لهم فى العقيدة أسرى حرب ، ويكفر كل من لا يعتقد برسالة محمد الخ (١)

وتوالت كتابات كرومر على هذا النحو ، وهو فى كل مرة يعنف فى حديثه عن الاسلام والمسلمين أكثر من المرة السابقة . وانتهى من أبحاثه الى نتيجة عجيبة ، وهى قوله - فى غير تدبر ولا احتياط - إن المسلم غير المتخلق بالأخلاق الاوروبيه لا يصلح لحكم مصر . وأكد أن المستقبل الوزارى فى مصر سيكون للمصريين الآخذين بحظ من التربية الأوروبيه البحته .(١)

أدرك المسلمون أن مرجع هذه الآراء الفاسدة عن الاسلام ليس إلا سوء فهم لروح هذا الدين القويم ، وجهل بتاريخه ومبادئه. ومن أجل هذا شمر الجميع عن ساعد الجد استعدادا للدخول فى هذه المعركه التى اشتركت فيها طوائف كثيرة من المصريين . منهم طائفة الادباء، وطائفة الصحفيين ، وطائفة المترجمين ، وطائفة رجال الدين - كل بطريقتها الخاصه بها .

وكم كانت هذه المعركة القلمية عنيفة فى حقيقة الأمر ، وكم انفق فيها المصريون من الجهد ومن الوقت ، حتى أوشكت قضية الدفاع عن الدين أن تكون معضلة فى مصر على قضية الدستور نفسه ، وقضية الجلاء نفسه .

---

(١) راجع كتاب عباس الثانى للورد كرومر ص ٦٧

كنت لا تفتح جريدة ، أو كتابا مؤلفا ، أو آخر مترجما ، أو تصغى إلى خطيب فى محفل من المحافل أو ناد من الأندية حتى يكون الدفاع عن الاسلام ضد أعدائه من الاوروبيين جزءا هاما من هذا الكتاب ، أو الصحيفه أو الحديث أو الخطبة .

والعجيب أن بعض الشرقيين كانوا يتأثرون أحيانا بكلام الاوروبيين ، ويودون أن يجاهروا برأيهم فى هذا الموضوع فإذا فعلوا ذلك انبرى لهم آخرون من الشرقيين ، فردوا عليهم بنفس طريقتهم .

كتب الأستاذ عبد القادر حمزه مقالا بعنوان (خطر علينا وعلى الدين) سأل فيه : هل فى النداء بالدين فائدة ؟ يريد بذلك أن يكون مقلدا لبعض مفكرى الغرب فيما ذهبوا اليه من أن الدين هو السبب الحقيقى فى تأخير المسلمين ، وذلك لانقيادهم له انقيادا أعمى . وقال أن من الواجب على المسلمين ألا يقحموا الدين فى كل شىء ، ولو كان فى هذا تقرب إلى العامة الذين استولى عليهم الهوس الدينى . (١)

فانبرى للرد عليه الأستاذ رفيق العظم مجيبا عن سؤاله المتقدم بقوله (٢) « لقد اخطأ الكاتب حين فهم أن المنادين بالدين كلهم يدعون إلى التمسك به على مادخله من الحشو واللغو . فنحن فى حاجة إلى النداء باصلاح الدين لا النداء بالدين مطلقا الخ » .

كان الأستاذ عبد القادر حمزه متأثرا فى رأيه بتاريخ النهضه الاوروبية ، وتاريخ الصراع بين الكنيسه والدوله ؛ وهو الصراع الذى انتهى بفصل السلطة الدينية عن السلطة الدنيوية . وهى فكرة جميلة كانت بعض ما أفاده المسلمون من الحضارة الاوربية الحديثه ، كما سنشير إلى ذلك فى نهاية هذا الفصل .

---

(١) المقتطف عدد مارس ١٩٠٤ ص ٣٣١ — ٣٤٠

(٣) مجلة الهداية عدد أكتوبر سنة ١٩١٠ — نقلا عن كتاب : الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر لمحمد حسين ج ١ ص ٣٢٧

وجاء الأستاذ رفيق العظم ، فرد عليه بأن الإصلاح المدنى تابع عادة للاصلاح الدينى . فاذا أفلح المسلمون فى العودة بدينهم إلى الحالة الأولى ، فقد أفلحوا فى العودة بالمجتمع والأخلاق إلى المستوى الذى كان يحمد لهم من قبل.

تلك فكرة من الأفكار التى شغلت بال الرأى المصرى العام إذذاك، وثم أفكار أخرى شغلت بال المفكرين أيضا . سنعرض لبعضها عندما نقف هذه الوقفات القصيرة مع آخرين من المفكرين ـ فيما عدا الشيخ محمد عبده . ومنهم:

عبد الله النديم

ولأهمية هذا الاخير نأتى بذكره كلما سنحت الفرصة.والنديم رجل يمتاز ـ كما قلنا ـ بشعبيته التى لم يكن لها نظير فى مصر والشرق فى القرن الماضى . كان من أقدر الناس على الخطابة ، ومن أقدرهم على الانغماس فى المجتمع المصرى بمختلف طبقاته ، ومن أعلمهم بمحاسن هذا المجتمع وعيوبه (١).

وكانت وسائل النديم فى سبيل الإصلاح الاجتماعى كثيرة منها : الوسيلة الصحفية ـ ولعل من أهم صحفه يومئذ جريدة التنكيت والتبكيت . ومن وسائله الرواية التمثيلية . وقد كان يعنى بتأليف هذه الروايات ، وينشرها فى الصحف والمجلات ، وكان يشترك بنفسه مع التلاميذ فى تمثيلها بالمدارس التى كان يقوم بإنشائها ، ويشترك كذلك فى التدريس بها . ومن أهم هذه الروايات (رواية الوطن)(٢) . وفيها يصور الظلم الذى كان يقاسيه الفلاح فى مصر من رجال الإدارة المصرية ، من لدن المدير إلى الصراف ، وشيخ البلد ، ومهندس الرى ، ومشايخ القريه الخ

ومنها ـ أى من وسائل النديم ـ الخطبه . وقد كانت المجتمعات العامة فى مصر لا غنى لها مطلقا عن النديم ، حتى شاع عن محمد عثمان المغنى انه كان إذا سئل أين تغنى الليلة ؟ قال : فى الفرح الفلانى مع عبد الله النديم (٣).

---

(١) راجع زعماء الاصلاح للاستاذ احمد أمين ، وسلافه النديم لأحمد سمير وأدب المقالة الصحفية فى مصر . الجزء الثاني للمؤلف

(٢) انظر سلافه النديم ج ٢ ص ٣٣

(٣) أدب المقاله الصحفية فى مصر ج ٢ ص ١٢٢

ثم من وسائله الجمعيات والمدارس . وقد كان النديم مشتركا فى جمعية سرية يقال لها (مصر الفتاة) . وتحولت على يديه إلى (الجمعية الخيرية الإسلامية) . وكان من أغراض هذه الأخيرة نشر التعليم بين الفقراء بالمجان . ولذا جمع النديم كثيرا من التبرعات لهذه الغاية .

وكان من أهم المواد التى يقوم بتدريسها فى تلك المدارس مادة الإنشاء ، ومادة الخطابة .

ومهما يكن من شىء فلم يكن أشد على دعاة الحضارة الأوروبية والمعجبين بها من قلم النديم ، وذلك منذ آلى على نفسه أن يحارب الفساد الخلقى الذى نجم عن هذه الحضارة الغربية . وكانت مجلة التنكيت والتبكيت مسرحا لهذه الحرب الشعواء التى شنها الرجل على الشباب المصرى بعد إذ تمتمت أخلاقه بسبب هذا القسط الضئيل الذى ناله من حضارة أوروبا (١)

وكان النديم فى نفس الوقت من أشد المتعصبين للحضارة الإسلامية ، واللغة العربية ؛ حتى كتب المقالات الطوال دفاعا عن هذه اللغة ، ودعا فى جريدة (الأستاذ) إلى تكوين (مجمع للغة العربية) (٢)

ولعل من أشهر مقالاته فى الدفاع عن العربية مقالة له بعنوان « اضاعة اللغات تسليم الذات » . نشرها فى العدد الثانى من أعداد جريدة (التنكيت والتبكيت) التى مر ذكرها .

الكواكبى

أما الكواكبى فهو رجل من أسرة شريفة فى حلب . وقف نفسه على مكافحة فكرة واحدة ، لعلها من أخطر مايشكو منه الشرق الإسلامى إلى اليوم . وهى فكرة (الاستبداد) - ذلك الداء الذى قتل مواهب الأمة الإسلامية ، وكانت

---

(١) انظر حكاية (عربي تفرنج) .

(٣) (اللغه والانشاء) مقال للنديم بمجلة الأستاذ بتاريخ ٢١ اكتوبر ١٨٩٢

له آثار بعيدة المدى فى خلقها و تربيتها ، وكان العامل الوحيد فى تلف شخصيتها وضعف إرادتها إلى الحد الذى أزرى بها و بماضيها و حاضرها بين سائر الأمم !

« ومن أين لأسير الاستبداد أن يكون صاحب إرادة؟ وهو كالحيوان المملوك العنان ، يقاد حيث يراد به . ويعيش كالريش يهب حيث تهب الريح بلا نظام ولا إرادة . وما هى الإرادة ؟ هى ناموس الأخلاق . هى ما قيل فيها تعظيما لشأنها : لو جازت عبادة غير الله لاختار العقلاء عبادة الإرادة. هى تلك الصفة التى تفصل الحيوان عن النبات فى تعريفه بأنه متحرك بالإرادة . وأسير الإستبداد الفاقد الإرادة مسلوب حق الحيوانية فضلا عن الإنسانية »(١)

« الاستبداد مفسد للدين. و ذلك فى أهم قسميه – أى الأخلاق – وإما العبادات فانه لا يمسها، لأنها تلائمه فى الأكثر . ولهذا تبقى الأديان فى الأمم المأسورة عبارة عن عبادات مجردة صارت عادات. فلا تفيد فى تطهير النفوس شيئا، لا تنهى عن فحشاء ولا عن منكر . وذلك لفقد الإخلاص فيها تبعا لفقدها فى النفوس.

« والإستبداد مفسد للتربية والأخلاق . لأنه يضطر الناس إلى استباحة الكذب والتخيل والخداع والنفاق والتذلل و مراغمة الحس وإماتة النفس الخ وفى الحقيقة أن الأولاد فى عهد الإستبداد سلاسل من حديد يرتبط بهما الآباء على أوتاد الظلم والهوان والخوف والتضييق، فالتوالد زمن الإستبداد حمق . والإعتناء بالتربية حمق مضاعف . . وغالب الاسراء لا يدفعهم للتوالد قصد الاخصاب . إنما يدفعهم اليه الجهل المظلم ، وأنهم محرومون من كل الملذات الحقيقية كلذة العلم ، ولذة المجد ، ولذة الإثراء ، ولذة البذل »

« والإستبداد يفسد الميول الطبيعية ، والأخلاق الحسنة، ويقلب الحقائق فى الأذهان ، وينزل بالإنسان إلى مستوى البهائم »

ثم قال :

« والإستبداد مفسد لدولاب العمل نفسه فى الحكومة . فالحكومة المستبدة تكون مستبدة فى كل فروعها، من المستبد الأعظم إلى الشرطى ، إلى

---

(١) طبائع الأستبداد ص ٩٣

الفراش ، إلى كناس الشوارع . ولا يكون كل صنف إلا من أسفل أهل طبقته أخلاقا . لأن الأسافل لا يهمهم جلب محبة الناس . إنما غاية مسعاهم اكتساب ثقة المستبد فيهم بأنهم على شاكلته ، وأنصار دولته ..

« إن العقل والتاريخ والعيان : كل يشهد بأن الوزير الأعظم للمستبد هو اللئيم الأعظم فى الأمة . ثم من دونه من الوزراء يكونون دونه لؤما . وهكذا تكون مراتب لؤمهم حسب مراتبهم فى التشريفات ... والنتيجة أن وزير المستبد هو وزير المستبد ، لا وزير الدوله ، كما هو الحال فى الحكومات الدستورية »

ثم يقول الكواكبى بعد هذا كله :

« ومن طبائع الإستبداد أن الأغنياء أعداؤه فكرا ، وأوتاده عملا . فهم رباط المستبد : يذلهم فيئنون ،ويستدرهم فيحنون . ولهذا يكثر الذل بين الامم التى يكثر أغنياؤها . أما الفقراء فيخافهم المستبد خوف النعجة من الذئاب ، ويتحبب اليهم ببعض الاعمال التى ظاهرها الرأفة . يقصد بذلك أن يغتصب قلوبهم التى لا يملكون غيرها . والفقراء كذلك يخافونه خوف دناءة ونذالة . فهم لا يجسرون على الافتكار فضلا عن الإنكار.وكأنهم يتوهمون أن فى داخل رءوسهم جواسيس عليهم » .

هكذا تحدث الكواكبى عن الإستبداد فوضح كيف أنه مفسد لكل شىء فى الامة ، وأن أول مايفسده هو (الحرية) « لانه لاضامن للحكام أن يجعلوا الشعرة من التقييد سلسلة من حديد ، يخنقون بها عدوتهم الطبيعية ـ أى الحرية»

ولكن ما السبيل إلى التخلص من الإستبداد فى الامة .

« إن الوسيلة الوحيدة لقطع دابر الإستبداد هى ترقية الامـــة فى الإدراك والإحساس . وهذا لا يتأتى إلا بالتعليم » [1]

---

(١) بين كلام الكواكبى فى كتاب طلائع الاستبداد ومقالات الأستاذ احمد لطفى السيد فى (الجريدة) حول موضوع التربية والتعليم ، وموضوع أخلاق الموظفين شبه كبير . ومن الأمثلة على ذلك مقال لهذا الأخير عنوانه (عبادة البسالة) . أدب المقالة الصحفية فى مصر : الجزء السادس : قسم النماذج

قاسم امين

بقيت الاشارة الموجزة الى أمير المصلحين الاجتماعيين – وهو هنا (قاسم أمين). وآراؤه معروفة لدى كل قارىء عربى فى أيامنا هذه. وقد ضمن هذه الآراء كتابيه المعروفين، وهما (تحرير المرأة) و(المرأة الجديدة). فى الاول دعا الى السفور ومساواة المرأة بالرجل.

«وليس فى الشريعة الاسلامية نص يوجب الحجاب بالطريقة المعروفة. وانما هى عادة عرضت للشرقيين من مخالطة بعض الأمم، واستحسنوها وأخذوا بها، وألبسوها ثوب الدين».

ومضى قاسم أمين يفسر سور القرآن الكريم بما يتفق وهذه الفكرة. وأستأنس ببعض أخبار الرعيل الأول من المسلمين. فنقل عن الطبرى قصة عمر بن الخطاب حين وفد عليه ضيف، فأمر له بالغداء، ودعا زوجته (أم كلثوم) فأتت لتأكل معهما.

وعالج المؤلف فى هذا الكتاب مشكلات عدة. منها حق المرأة فى التعاقد الشرعى مع الرجل. ومنها حق الرجل فى أن يرى خطيبته قبل الشروع فى الزواج. ومنها اشتغال المرأة بالشئون العامة فى المجتمع. ومنها حق المرأة فى العمل بيدها لكسب العيش. ومنها تعدد الزوجات، ولماذا شرعه الاسلام عند الضرورة القصوى؟ ومنها مشكلة الطلاق، ولماذا أبيح فى الاسلام؟ ومتى يكون ذلك؟

وأثار الكتاب ضجة كبرى فى المجتمع المصرى الذى لم يستعد بعد لتقبل هذه الدعوة. وزاد فى عوامل الضجة يومئذ اشتمال الكتاب على طائفة من العبارات التى سخر فيها المؤلف من رجال الدين، ومن الجهلة المتعصبين من المسلمين، ومن الداعين الى عدم الأخذ من العلوم الاوروبية الحديثة.

وفى الكتاب (الثانى) دعا قاسم أمين جميع المصريين الى رفض الفكرة القائلة بأن العادات المصرية أفضل العادات، وأن ماسواها لايستحق العناية والالتفات. لأن هذه الفكرة تسد الباب سدا امام المصلحين الذين يريدون

ان ينقلوا المصريين الى حاله أحسن من حالتهم، ومجتمع أفضل من مجتمعهم.
ثم من هذه المقدمة انتقل الكاتب الى النتيجة التى دعا اليها ، وهى جواز الأخذ من الحضارة الاوروبية بأحسن مافيها . قائلا :

« ولاخوف علينا من ذلك بدعوى ان الاعتراف بفضل الاجنبى مما يزيد طمعه فينا . اذا الواقع أن السبب فى طمع الاجانب فينا ليس هو الاعتراف بانحطاطنا ، وأنما هو ذلك الانحطاط نفسه »[١] .

وينتقل الكاتب من ذلك الى مناقشة الفكر المصرى الحديث فى مسائل أخرى بزعم هذا الفكر الحديث أنها صحيحة وليست بصحيحه. ومن ذلك زعم بعضهم أن المرأة مخلوق ناقص العقل والتفكير ، وأنها أضعف من الرجل، وأقل منه قدرة على مقاومة المغريات التى تثير الشهوات . فيرد الكاتب على ذلك :

« بأن علم التشريح ينبىء بغير ذلك . فهو يدل دلالة قاطعة على المساواه التامة بين الرجل والمرأة فيما يسمى (بالملكات) ».

« وكيف نحكم على المرأه بنقصها فى الملكات، ونحن لم نتح لها الفرصة الكاملة التى تظهرنا فيها على هذه الملكات » ؟

« بل كيف نحكم على المرأة بضعفها أمام المغريات والشهوات ونحن لم نسمح لها بعد بالسفور الذى يظهرنا على قدرتها أو عزيمتها من هذه الناحية؟

« ان العفة انما تكسب بمنح الحرية للمرأة » . ولو أدرك المتزمتون ذلك لعدلوا عن كثير من آرائهم السخيفه فى هذا الموضوع .

« ان السبب الحقيقى فى ضعف المرأة الشرقيه انما هو سجنها والتضييق عليها ، وحرمانها من لذة الرياضة من اى نوع ، وزيادة الحجر عليها كلما تقدمت بها السن ، والحيلولة بينها وبين مخالطة الرجال . مع ان الحرية هى منبع الخير للانسان ، وأصل ترقيته ، وأساس كماله الادبى »

« وقد عاشت الأمه المصرية اجيالا فى الأستعباد السياسى. فكانت نتيجة ذلك انحطاطا عاما فى جميع مظاهر حياتها : انحطاط فى العقول ، وانحطاط فى

---

(١) المرأة الجديدة ص ١٩٤

الاخلاق وانحطاط فى الأعمال . وما زالت تهبط من درجة الى أسفل منها ، حتى انتهى بها الحال الى ان تكون جسما ضعيفا عليلا ساكنا ، يعيش عيشة النبات اكثر من عيشة الحيوان . فلما تخلصت من الاستعباد رأت نفسها فى أول الأمر فى حيرة لا تدرى معها ماذا تصنع بحريتها الجديدة ؟

« وهكذا يكون الحال بالنسبه لحرية النساء : أول جيل تظهر فيه حرية المرأة تكثر فيه الشكوى منها . ويظن الناس أن بلاء عظيما قد حل بهم . لأن المرأه تكون فى دور التمرين على الحريه . ومع مرور الزمن تتعود المرأة على استعمال حريتها ، وتشعر بواجباتها شيئا فشيئا ، وترقى ملكاتها العقلية والأدبيه . وكلما ظهر عيب فى أخلاقها يداوى بالتربيه حتى تصير انسانا شاعرا بنفسه » (١)

ثم عاد الكاتب فناقش موضوع اشتغال المرأة بالاعمال العامة . وبنى ذلك على شعورها بالمسؤليات الثلاث الملقاة على عاتقها : مسؤوليتها نحو نفسها ، ومسؤليتها نحو اسرتها ، ومسؤوليتها نحو المجتمع .

فاما من حيث المسؤلية الاولى فلا ينبغى للوطن الذى يحترم نفسه أن يقصر المرأة على الاعمال الحقيرة الممتهنة ، كالخدمة فى البيوت ، وبيع السلع الزهيدة فى الطرقات ونحو ذلك . فمن حقهـــا اذن أن تعد نفسها – متى ارادت – لتكـــون معلمة ، أوطبيبة ، ، أو مهندسة . وليس فى الشريعة الاسلامية ما يحرمها كل ذلك .

واما من حيث المسؤليتين الثانية والثالثة فقد عول الكاتب فى شرحهما . على أن السبب الأول والأخير فى تأخر الامم الاسلامية فى وقتنا الحاضر انما هو (إهمال الاسرة) . وقد رد ذلك الى شىء واحد فقط هو جهل المرأة .

* * *

والخلاصة فى أثر الحضارة الأوروبية التى التقت على أرض مصر بالحضارة الاسلامية أنها – بغض النظر – عن سوآتها ، قدمت للمسلمين هذه الافكار :

---

(١) المصدر المتقدم ص ٧٠ – ٧١

أولا — فكرة الحرية الشخصية ، وفكرة الوطن والوطنية وفكرة الأخوة الإنسانية . وقد روج الأوروبيون المستعمرون لهذه الفكرة الأخيرة علما منهم بأنها فكرة تقبلها الشعوب الضعيفة المظلومة . وبالفعل تقبلها الناس فى هـذه الشعوب ، وأفادوا منها — بالرغم من سوء نية الأوروبيين ، وبالرغم من أنها الفكرة التى أتى بها الدين الاسلامى نفسه قبل ذلك بأكثر من ألف سنة !

ثانيا — فكرة الدستور والمطالبة بالحياة النيابية . نعم فى الإسلام دعوة إلى الشورى . ولكن هذه الدعوة — كغيرها مما فى القرآن الكريم — دعوة عامة ولا شك أن الغرب هو الذى أتى بهذه الصورة الجديدة للشورى إلى مصر . وقد استهوت الشرق نفسه هذه الصورة ، فطفق يدعو لها ، وكافح كفاحا طويلا من أجلها .

ثالثا — فكرة تحرير المرأة . وقد سبق القول بأن الإسلام آمن بحق المرأة من نواح شتى ، وأن الحجاب والقيود الكثيرة التى رسغت فيها المرأة المسلمة لم تكن من صنع الدين ، ولكن من صنع الأمم الكثيرة التى اعتقت هذا الدين . وقد تنبه الى هذا قاسم أمين فصحح الوضع بالقياس إلى المرأة المصرية ، وفك بيده قيدها ، ثم فتح أمامها أبواب العمل والعلم معا .

وإن كان من الحق هنا أن يقال إن رفاعة الطهطاوى فى النصف الأول من القرن الماضى سبق (قاسم أمين) إلى الدعوة إلى تعليم الفتاة المصرية واقنع بذلك (ديوان المدارس) .

رابعا — فكرة الأخذ من العلوم الحديثة ، ولم تصادف هذه الفكرة من العقبات ما صادفته الأفكار الأخرى . فانتشرت المطابع ، وانتشرت الصحف وعرفت المكتبات ، وعرفت المعامل ؛ ودرست علوم الطب ، والهندسة والكيمياء والفلك وغيرها . وأصبح لهذه العلوم على اختلافها مكان خاص من النهضة الحديثة .

خامسا — فكرة الفصل بين السلطة الدينية والسلطة الدنيوية ؛ وهى الفكرة التى أغرت باعتناقها الكثيرين من المصريين عقب فراغهم من قراءة التاريخ الأوروبى . ونحن نعرف أن من أروع صفحات هذا التاريخ صفحة النزاع

المرير بين الدولة والكنيسة .

وهل ينسى التاريخ (محاكم التفتيش) ، و (صكوك الغفران) ، ووقوف الملوك أذلاء بين أيدى البابوات ونحو ذلك ؟

قرأ الشرقيون هذا التاريخ ، وذكروا معه طغيان السلطان عبد الحميد ومن حوله من رجال الدين ، وهم يسيطرون على عقله ، ويدخلون فى روعه أن الاسلام دعا إلى كيت وكيت ، وأن المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها راضون منه بكيت وكيت . وبالغ وزراء السلطان محمود من قبل فى تعظيمه حتى خلعوا عليه لقب (خليفـــة المسلمين) . فأمعن السلاطين فى ظلمهم ، وأخذ الدجالون الدينيون يزينون لهم كثيرا من عملهم . وكان من نتائج ذلك كله فى الميدانين الأدبى والصحفى ظهور كتاب « ما هنالك »(١) لابرهيم المويلحى ، وكتاب « ذكرى وعبرة »(٢) لسليمان البستانى . وموضوع الكتابين معا هو الحكم العثمانى على يد عبد الحميد ، وما آل إليه من فساد خطير وكلا الكتابين عبارة عن مقالات نشرت تباعا فى صحف مصر وسوريا .

فى تلك المجـــالات الاجتماعية السابقه كلها سبح كتابنا المصريون والشرقيون ، واتخذوا من الصحافة ميداناً لهم ، ومكاناً فسيحاً لآرائهم . ومنبراً عالياً لنشر هذه الآراء فى الإصلاح ؟

---

(١) ادب المقالة الصحفية فى مصر ج ٣ ص ١٢٠ ـ ١٥٠

(٢) الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر للدكتور محمد حسين ص ٢٦٨ ـ ٢٧٣

١١

المقالة فى الاتجاه السياسى

فى أفق السياسة المصرية ظهرت طائفة من المسائل السياسيه شغلت بال الرأى العام المصرى . وتقدمت الصحف للتعبير عن هـذا الرأى ، وسنرى أنه كان لهذا الاتجاه السياسى - فى جملته - تيارات أربعة : هى التيار التركى ، والتيار الفرنسى ، والتيار الانجليزى . والتيار القومى . وبقيت هذه التيارات السياسية تصطرع فى خضم الحياة المصرية حتى كتبت الغلبة للأخير منها — وهو التيار القومى .

ولـكن كم كان الطريق وعراً ، والجهد شاقا . والظلمه حالـكة أمام الذين جاهدوا فى سبيل الوصول إلى هذه الغاية الأخيرة . وإذا ذهبنا نحصى المسائل السياسيه التى ناقشتها الصحف المصرية منذ نشأتها وجدنا أن أهم هذه المسائل ما يلى :

حفر قناة السويس

وقد بدأ التفكير فى حفر القناة منذ أيام محمد على . ولـكن شخصية هذا الرجل وصلابة عوده كانت حائلا دون الفرنسيين الذين لم يستطيعوا اقناعه بالسهولة التى اقتنع بها خلفاؤه من بعده .

ثم جاء سعيد — وكان من سياسته أولا ألا يتيح للأوروبيين فرصة التدخل فى شؤون مصر . ولـكن سياسته تغيرت فى أيامه الأخيرة ؛ وذلك منذ عرض عليه (دلسبس) فـكرة المشروع ؛ فوافق عليها مبدئياً دون دراسة من جانبه ، أو من جانب الرأى العام المصرى لهذه الفـكرة .

وفى عهد اسمعيل ظهر التدخل الأجنبى فى مصر بصورة سافرة . واستطاعت كل دولة من الدول الأوروبية صاحبة المصالح الحقيقية فى الديار المصرية أن تعبر عن رأيها حيال هذه المسألة :

فأما بريطانيا فكانت تعارض المشروع مادام القائمون به ، وأكثر المكتتبين فيه من الفرنسيين وحدهم .

وأما فرنسا فهى التى ترى الخير كل الخير فى حفر القناة ، والوصول إلى المحيط الهندى ، رغبة منها فى تدعيم التجارة — لا أكثر ولا أقل .

ودارت المقالات الصحفية مدة ما على هذا المحور السياسى والاقتصادى : فالصحف البريطانية فى مصر — ومنها (البروجريه) — وهى صحيفة انجليزية تصدر باللغة الفرنسية — كانت تؤيد وجهة النظر الإنجليزية ، وتدعو السلطان العثمانى إلى عدم الموافقة على المشروع ، وتحرضه على الامتناع عن منح امتياز القناة للشركة الفرنسية .

والصحف الفرنسية — ومنها صحيفة النيل ، ومنار الإسكندريه وغيرهما — كانت تشيد بالفوائد الجليلة التى ستجنيها مصر والعالم والانسانيه كلها من وراء هذه الفكرة .

وفى عهد اسمعيل انقسمت الصحف منذ البداية إلى قسمين : أحدهما يؤيد الفرنسيين ، والآخر يؤيد الإنجليز . وإن كانت الصحف المؤيدة للانجليز عبارة عن صحافة هزيلة ينفق عليها القنصل البريطانى فى مصر .

ثم فى عهد توفيق ظهرت الصحافة الوطنية بالمعنى الصحيح ، وبرز فى الميدان الصحفى أمثال عبد الله النديم ، ومحمد عبده ، فدعا الجميع يومئذ إلى ردم القناة ما دامت تجر على مصر كل هذا الويل ، وتدعو الدول الاوروبيه إلى التدخل المستمر فى شؤون مصر .

ثم فى عهد عباس حلمى الثانى أضيف إلى التيارين المتقدمين — وهما التيار الفرنسى والتيار الانجليزى — تياران آخران ، أحدهما يدعو إلى السياده التركية ، والآخر يدعو إلى القومية المصريه .

أما السيادة التركية فدعت اليها صحف كان يعاونها السفير التركى أحمد مختار باشا الفازى قبل سحبه من مصر : وكانت هذه الصحف قليلة الأهمية وأما صحيفة المؤيد للسيد على يوسف فكانت تدعو للخديو عباس وحده وأما اللواء لمصطفى كامل فكانت تدعو الى الولاء للسلطان العثمانى . وهما معا

يبغيان التخلص من الاستعمار البريطانى . ولو أنه لم يرد فى جريدة اللواء بنوع خاص ، ما يتعارض والنفوذ الفرنسى الذى أخذ يقوى فى مصر ، ويصبح له تأثير فى الميدان الاقتصادى يتفوق تفوقا ظاهراً على التأثير الانجليزى فى هذا الميدان .

وأما (الجريدة) لمحررها أحمد لطفى السيد فكانت تدعو إلى القومية المصرية ، وترى فى هذه الدعوه الأخيره السبيل الوحيد إلى الاستقلال الذى تنشره الأمه ، والتخلص النهائى من التدخل الأجنبى .

مسألة الدستور

كانت مسألة الدستور من أهم المسائل السياسية التى اشتغلت بها الصحافة المصرية .

وللحياة الدستورية فى مصر ثلاثه أطوار :

أولها — الطور الذى يمثله مجلس شورى النواب من سنة ١٨٦٨ — إلى قرب الاحتلال البريطانى سنة ١٨٨٢

وثانيها — الطور الذى تمثله الجمعية العمومية ومجلس شورى القوانين ابتداء من سنه ١٨٨٢ إلى قرب قيام الحرب العظمى .

وثالثها — الطور الذى يمثله برلمان سنة ١٩٢٤

على أن من الخطأ أن ننظر إلى الطورين الأولين كأنهما يمثلان حياة نيابية سليمه . إذ الواقع أن المصريين كانوا يتوقون إلى حياة دستوريه صحيحة كتلك التى تنعم بها البلاد الاوروبية الكثيرة . ولكن الحاكم المصرى الشرعى من جهة . والحاكم الأجنبى من جهة ثانية لم يتيحا لهم هذه الفرصة الطيبة . فبقيت مصر محرومة من نعمة الدستور على الوجه الصحيح . وذلك رغما من الجهاد الطويل الذى بذلوه فى هذا السبيل .(١)

نعم — طالب المصريون بالدستور تشبها منهم بالأوربيين ، وبالشعب

---

(١) راجع مقالا للمؤلف بعنوان أجواء فكرية وسياسية عاش فيها الأدب والصحافه المصرية : المجلد السادس عشر من مجلة كلية الآداب : جامعة القاهرة الجزء الأول ١٩٥٤

العثمانى الذى منحه السلطان عبد الحميد هذا الدستور . وكان من نتيجة ذلك دخول المصريين فى الطور الأول من حياتهم الدستورية ، وهو الطور الذى يمثله مجلس شورى النواب .

غير أن المصريين - حين تبين لهم سوء قصد الخديو وأعوانه ، وأنه لم يمنح مصر دستوراً بالمعنى الصحيح أخذوا يلجأون إلى طريقة أخرى ؛ هى طريقة الجمعيات السرية التى طفقت تطالب بين الحين والحين بطائفة من المطالب الدستورية ، كانت تصدر بها بيانات مثالية يقرؤها الشعب المصرى وينفعل بها انفعالا ظاهرا .

ومن هذه الجمعيات على سبيل التمثيل :

(جمعية الضباط الفلاحين) الذين شعروا بشعور واحد يومئذ - هو شعور التذمر من سوء المعاملة التى كانوا يعاملون بها فى داخل الجيش المصرى. فقد كان ولاة هذا الجيش يفضلون عليهم الضباط الشراكسة . لذلك اجتمع رأيهم على إنشاء هذه الجمعية . وكان رئيسها واحدا منهم اسمه (على الروبى) . وجذبت الجمعية اليها (الأمير حليم) وركزت حوله آمالها . ووصلت أنباء هذه الجمعية إلى مسامع الخديو اسمعيل ،وفكر فى البطش بها . ولكن الجمعيه استطاعت فيما بعد أن تضم اليها كلا من أحمد عرابى وعبد العال وفهمى ، وهم - فيما بعد - زعماء الثورة العرابية .

ومنها (جمعية مصر الفتاة) - وهى الجمعية التى كان من أعضائها أديب اسحق وعبد الله النديم وغيرهما . وهى الجمعية التى استطاع النديم - فيما سبق لنا من حديث - أن ينتقل بها من السر إلى العلن فتحولت على يديه إلى (الجمعيه الخيريه الاسلامية) .

ويصح أن يكون من هذا النشاط السرى كذلك ما عرف فى مصر باسم (المحفل الماسونى) وهو المحفل الذى انضم اليه كل من الأمير حليم ، والأمير توفيق، والسيد جمال الدين الأفغانى . وعن طريق هذا الأخير تمهد الطريق لظهور (الحزب الوطنى) والثورة العرابية (١) .

---

(١) راجع فى ذلك فصلا بعنوان الجمعيات السرية ص ٧٥ من كتاب
Parliaments & Parties in Egypt : Landon

والحق ان الثورة العرابيه - وهى رمز للمقاومه الفعلية التى بدت من جانب المصريين - كانت تهدف الى المطالبة بالدستور ، وكانت ترمى الى وقف النفوذ الاجنبى الذى تمثل - يومئذ - فى الضباط الشراكسه . ولعل أهمية الثورة العرابية فى تاريخنا الحديث ترجع الى هذه الأمور ، والى أمر آخر له دلالته وخطورته ، وهو هنا شعور المصرى بشخصيته ، ورغبته فى مقاومة حاكمه ، والحد من سلطته .

ولو قد نجحت الثورة العرابيه لكانت لها من النتائج الخطيرة ما يدل عليه خطاب (عرابى) الى المستر (بلنت) . وفيه يقول

« ثم خلع اسماعيل فزال عنا عبء ثقيل . ولكنا لو كنا نحن قد فعلنا ذلك بأنفسنا لكنا تخلصنا من أسرة محمد على بأجمعها ، ولكنا عندئذ أعلنا الجمهورية »(١)

غير أن الثورة العرابية منيت بالفشل ، وجاءت بالاحتلال البريطانى الذى هو السبب الحقيقى فى قيام :

الحركة الوطنية

وقد تولد عن هذه الحركة كثير من المشكلات :

ومنها مشكلة عباس - وقد رأينا كيف كان هذا الأمير الشاب يتحمس للحركه أولا ، ثم ينسحب منها بعد ذلك .

ومنها مشكلة النزاع بين السلطة الشرعية ممثله فى كرومر ، والسلطه الإسميه ممثلة فى عباس . بل أن هذه المشكلة الأخيرة كانت من أقوى أسباب الحركة الوطنيه فى الحقيقة . كما كانت سببا من أسباب ذلك الاتجاه الوطنى الذى اتجهت اليه الامة المصرية نحو انشاء الاحزاب السياسية . فظهر منها أولا (حزب الامه) . وبلسانه تتحدث (الجريدة) ، فحزب الاصلاح على المبادىء الدستورية بلسانه تتحدث (المؤيد) ، فالحزب الوطنى ، وبلسانه تتحدث (اللواء)

---

(١) محمد حسين الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ص ١٤١ نقلا عن رسالة مخطوطة موضوعها (البارودى) كتبتها السيدة نفوسة زكريا للحصول على ورقة الماجستير - راجع الرساله ص ٣٨ .

وأحب الانجليز أن يقتلوا الحركه الوطنيه فى مهدها ، فلم يجدوا امامهم أمضى من سلاح (التفرقه). فنفثوا سمومها فى جسم الأمه ، وظهرت أعراض المرض عليها بظهور (المسألة القبطية) . وانقسم الشعب المصرى نفسه قسمين : مسلمين وأقباطا . هؤلاء يزعمون أنهم مظلومون فى المجتمع المصرى الحديث . وأولئك يرون انهم هم المظلمون بسبب الاحتلال البريطانى الذى فضل الاقباط عليهم وآثرهم بوظائف الدولة . وبلغت الفتنة اقصاها عندما عقد الاقباط مؤتمراً لهم بمدينة أسيوط . ورد عليهم المسلمون بمؤتمر لهم بمصر الجديدة . وكان ذلك سنة ١٩١١ فى وزارة رياض .

وماكادت الحركه الوطنية تفيق من هذه النكسة القوميه حتى ظهرت حادثة دنشواى .فانتهزها الزعيم الشاب مصطفى كامل فرصة للتشنيع بالاحتلال فى داخل البلاد وخارجها ، ونجح نجاحا منقطع النظير فى هذه الحملة . وربحت الحركة الوطنيه ربحا عظيما من وراء ذلك .

والحق أن لهذه الحادثه المشؤمة — التى هى حادثة دنشواى المشهورة الفضل كل الفضل فيما بدا على الحركه الوطنيه من مظاهر القوة ، وما ظفرت به من النجاح ،

وإن من يتصور حالة البلاد منذ الاتفاق الودى سنة ١٩٠٤ ، ويتمثل اليأس الذى خيم عليها منذ ذلك التاريخ ليعجب كيف ان الله تعالى يخلق من الشر خيراً ، ويجعل المحنة سببا للفرج فى بعض الاحيان .

فلولا هذه الحادثه لما خرج اللورد كرومر من مصر .

ولولا هذه الحادثه لم بدت الصحه والعافيه على الصحافه المصريه فى ذلك الوقت .

ولولا هذه الحادثه لما خرج السيد على يوسف فى (المؤيد) بمقالاته المشهورة (قصر الدوبارة بعد يوم الاربعاء) .

ولولا هذه الحادثه لما ارتفع صوت مصطفى كامل فى خطبه وصحفه التى أصدرها باللغتين الفرنسية والانجليزية

وكتب، فيها مقالات قوية ، من أهمها مقال بعنوان : (الى الامه الانجليزيه والعالم المتمدن) .

وباختصار شديد — لولا هذه الحادثه — لاستفحل داء اليأس فى نفوس المصريين ، وفقدوا الأمل نهائيا من التخلص من الأنجليز .

لهذا ينظر التاريخ الى حادثة دنشواى على أنها نقطة التحول الحقيقى فى الحركه الوطنيه ، والنشاط المصرى من حيث هو .

ولا شك أن كان من أجل المطالب الوطنية التى اجمعت عليها الأمه :

* * *

مطلب الجلاء

وصحيفة المؤيد من أولى الصحف التى طالبت بجلاء الانجليز عن الديار المصريه ، وسجلت على الحكومة البريطانية نحوا من ثلاثين وعدا بالجلاء عنها . وكان الأنجليز لايفتأون ينتحلون الأعذار الواهيه لبقائهم فى مصر . ولعل من اقوى هـذه الاعذار فى نظر العالم المتمدن يومئذ حجة الدفاع عن العرش المصرى ، وحجة اصلاح البلاد من جميع النواحى الإقتصاديه والثقافيه فى ذلك الوقت . وهنا انبرى لهم السيد على يوسف فى المؤيد ، وناقشهم هذه الدعوى منافشة منطقيه قوية ، أشعرهم فيها بكذبهم . وأحرجهم أمام الدول الأجنبية المعادية لهم . وطفق يقول لهم :

« أحق ماتقولون من أنكم ستتركون مصر عند تمام اصلاحها ؟ وما هو هذا الأصلاح الذى تعلقون عليه أمر انجلائكم ؟ وهل بدأتم فيه ؟ أم تم شىء منه ؟ . (١)

وكان من سياسة روزفلت الأمريكى فى ذلك الوقت مساندة الأحتلال البريطانى فى مصر . وجاء هذا الرجل فى زيارة الى مصر ، وخطب بالجامعة

---

(١) راجع فى ذلك منتخبات المؤيد :—

مقال بعنوان . متى تصلح مصر ص ٣٠

وآخر بعنوان يابنى مصر ص ٤٧ .

المصرية خطبة فى هذا المعنى. فرد عليه السيد على يوسف ردودا مقنعة سمعت بها الصحف الأمريكيه التى يعنيها الأمر . واستكتبت صاحب المؤيد مقالا طويلا فى موضوع هذه الزيارة ، وفى رأى المصريين فى الأحتلال والجلاء فاجابها السيد على يوسف الى ذلك (١) .

وبعد ظهور المؤيد بثلاث سنوات - أعنى فى سنة ١٨٩٢ ظهرت جريدة (الأستاذ) . أصدرها النديم ، وحارب فيها الاستعمار الأوربى محاربة لا هوادة فيها . وطالب فيها بجلاء القوات البريطانيه عن مصر .

ولعل من أقوى ماكتب النديم فى ذلك مقالا له بعنوان :

« لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا » (٢)

وفى هذا المقال الأخير دفاع عن عباس بوصفه صاحب السلطة الشرعيه فى البلاد ، وهجوم على كرومر — وقد آثار ضجة كبرى ضد عباس منذ أمر باقالة الوزارة الفهميه ، وهى الوزارة التى كانت تدين بالولاء التام للاحتلال البريطانى .

وقد جاء فى بعض هذا المقال الخطير نداء للنديم من قوله :

« فيابنى مصر : ليعد المسلم منكم إلى أخيه المسلم تأليفا للعصبية الدينية . وليرجع الاثنان معا الى القبطى والإسرائيلى تأييدا للجامعة الوطنية . وليكن المجموع رجلا واحدا يسعى خلف شىء واحد ، هو حفظ مصر للمصريين »

وفى عام ١٩٠٠ ظهرت فى الميدان جريدة (اللواء) ، وكانت قضية الجلاء ، ومكافحة الانجليز تشغل جزءا كبيرا منها . وطغى هذا الجزء على بقية الأجزاء الأخرى . وذلك منذ انتصر مصطفى كامل على الانجليز انتصاره المعروف عقب حادثة دنشواى . وكان ذلك فى السنه السابعة من حياة هذه الجريدة الوطنية الكبرى .

ومن المقالات المشهورة فى هذا المعنى مقال بعنوان (ماذا تريد الأمة)

---

(١) ادب المقاله الصحفية فى مصر جـ ٤ ص ١٢٤ .

(٢) نفس المصدر جـ ٢ ص ١٨٧ ـ ٢٥٠

وآخر بعنوان (لينصروا الاحتلال ويؤيدوه) . وثالث بعنوان (اللورد كرومر والحركة الوطنية المصرية) . ورابع بعنوان (ذكرى دنشواى) . وقد استمر هذا العنوان الأخير احدى عشر مرة .

ذلك كله عدا المقالات التى نشرها مصطفى كامل فى جريدة الأهرام ، أعنى قبل ظهور اللواء بمدة . ومن أشهرها مقال له بعنوان (صواعق الاحتلال) ، وآخر بعنوان (من أين يأتى الخطر) وهكذا !

* * *

الجامعة الاسلامية

وقد سبق لنا أن أشرنا إلى هذه المسألة فى المحاضره التى تحدثنا فيها عن بيئة الأدب والصحافة . وإلى هذه الجامعة كان يصبو السيد جمال الدين الأفغانى . وعنه يقول جورجى زيدان فى كتابه « أشهر مشاهير الشرق » :

« إن الغرض الذى كان يصوب نحوه أعماله . والمحور الذى كانت تدور عليه آماله هو توحيد الاسلام ، وجمع شتات المسلمين فى صورة جامعة اسلامية فى ظل الخلافة العظمى » (١)

أجل - كانت الجامعة الاسلامية حلما لذيذا من أحلام المسلمين ، وأملا من الآمال التى اشتاقت نفوسهم إلى تحقيقها يومئذ .

ولكن بعض المفكرين الاوروبيين نظروا على أنها نذير بحرب صليبيه . وغلا بعض هؤلاء فى عصبيتهم الدينية أو السياسية ولم يجدوا حلا لهذه القضية إلا القضاء على المسلمين فى جميع أنحاء العالم ، وإبادتهم من هذه الحياة ، ونبش قبر الرسول صلوات الله عليه وسلم بالمدينه ، ونقل رفاته إلى متحف اللوفر بفرنسا . (٢)

وشاءت الأقدار أن تكون (أرض البلقان) مسرحا للصراع العنيف بين الدولة العلية والدول المسيحية ، وأن تتغذى من ذلك فكرة الجامعة

---

(١) جورجى زيدان . أشهر مشاهير الشرق ج ٢ ص ٦١

(٢) تاريخ الاستاذ الامام ج ١ ص ٨٠١

الاسلامية . وعن ذلك عبرت (مجلة العروة الوثقى) التى تولى تحريرها الشيخ محمد عبده وهو فى باريس ، وإلى جانبه قطب الوحى من هذه الحركة كلها منذ ظهورها . ونعنى به السيد جمال الدين الأفغانى . (١)

ثم يأتى النديم فيتابع الدفاع عن الدوله العلية ، ويقول فى مجلة (الأستاذ) وذلك فى المقال الذى أشرنا اليه من قبل بعنوان « لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا »

« لو كانت الدولة العثمانية مسيحية الدين لبقيت بقاء الدهر بين تلك الدول الكبيرة والصغيرة التى هى جزء منها فى الحقيقة .

« ولكن المغايرة وسعى أوروبا فى تلاشى الدين الاسلامى أوجب هذا التحامل الذى أخرج كثيرا من ممالك الدولة بالاستقلال أو بالابتلاع . وأننا نرى كثيراً من المغفلين الذين حنكتهم قوابلهم باسم أوروبا يذمون الدوله العلية ، ويرمونها بالعجز وعدم التبصر وسوء الإدارة وقسوة الاحكام . ولو أنصفوها لقالوا إنها أعظم الدول ثباتا، وأحسنها تبصرا ، وأقواها عزيمة . فانها فى نقطة ينصب اليها تيار أوروبا العدوانى ، لأنها دوله واحدة إسلامية بين ثمانى عشرة دولة مسيحية ، عدا دول أمريكا » الخ

أما صحيفة (المؤيد) فقد سبق أن اشرنا إلى رأيها فى الجامعة الاسلامية . وهو الرأى الذى اتفقت فيه مع الصحافة الفرنسية .

وقد كانت هذه الصحافه ترى أن الجامعة الاسلاميه لا وجود لها إلا فى أذهان المسلمين وقلوبهم فقط ، وان المسلمين لا يجدون السبيل إلى إخراجها إلى حيز العمل ، وأن المعنى الحقيقى للجامعة الاسلامية إنما هو رغبة المسلمين فى النهوض الخ .

وأما (اللواء) فقد عنيت بفضل مصطفى كامل عناية كبرى بالمسأله الشرقية . ومن قبل كتب الزعيم الشاب كتابا صغيرا فى تاريخ هذه المسألة ذاتها . وجاء فى الكتاب قوله :

« والحقيقة أن بقاء الدوله العليه ضرورى للنوع البشرى ، فان فى بقائها

---

(١) راجع فى ذلك مقالا مشهورا بالعروة الوثقى بعنوان (الجنسية والديانة الاسلامية)

سلامة أمم الغرب وأمم الشرق ... ولقد أحس الكثيرون فى أوربا من رجال السياسه ، ومن رجال الأقلام أن بقاء الدولة العلية أمر لازم للتوازن التام،وأن زوالها ـــ لاقدر الله ـ يكون مجلبة للأخطار أكبر الأخطار»(١)

ومن هنا كانت عناية مصطفى كامل بمسائل الإسلام فى (اللواء) غالبة على غيرها من المسائل الأخرى كلها ، وذلك منذ السنه الاولى من إنشائها أعنى سنة ١٩٠٠ إلى السنة السابعة من حياتها ، وهى السنة التى شهدت حادثة دنشواى ، وكانت هذه الحادثه الاخيره نقطة التحول أيضا فى هذه الصحيفه من الناحيه الإسلاميه الخالصه إلى الناحيه الوطنيه الخالصة أيضا .

وللقارىء أن يعود إلى مقالات :

(اتحاد كلمة المسلمين) ، (أوربا والاسلام) ، (العلم والاســلام) ، (مستقبل الاسلام) وغيرها . (٢)

وأخيراً كان من الافكار السياسيه التى شغلت حيزا كبيراً فى الصحف المصريه فكرة :

* * *

الجامعه القوميه :

وهنا ينبغى للباحث أولا أن يفرق بين الشعور بالمصرية ، والشعور بالقوميه ، أما الشعور بالمصرية ؛ فهو نتيجة للتدخل الاجنبى ـ أوربيا كان هذا التدخل أم تركيا ـ وقد غدى هذا الشعور فى نفوس المصريين عوامل عدة أشرنا اليها فى مواضع كثيره من هذه المحاضرات .

وجاء الكتاب والصحفيون فزادوا هذا الشعور نفسه قوة على قوة . وسمعنا كلمه « مصر للمصريين » تدور على ألسنه الصحفيين السوريين مثل أديب اسحق وسليم النقاش ، ثم تدور على ألسنة الصحفيين المصريين مثل النديم . وجرى السيد على يوسف ومصطفى كامل على هذه النغمه أيضا .

---

(١) مصطفى كامل المسألة الشرقية ص ١٦

(٢) نفس المصدر المتقدم ج ٥ ص ١٤١ ـــ ١٥٢

وانظر الى صاحب (المؤيد) كيف يعبر عن الشعور بالمصريه ، ويضرب الامثال بالامم الاجنبيه التى يشعر بعضها بالشعور العربى ، وبعضها بالشعور الانجليزى ، وبعضها بالشعور الفرنسى وهكذا :

« من كان يظن أن عرب البوادى تقوم منها أمه يتحرك فيها سبعون ألف فارس لامرأة صاحت : وامعتصماه ؟ أو أن الانكليز يصبحون شعبا يقوم منه اثنا عشر ألف مقاتل للأخذ بثأر رجل منهم قتله بعض المتوحشين ؟ ويقوم منهم رجال يجعلون لفظة (بريطانيا) لا تذكر الا وعلى أثرها (العظمى) ؟ وتحرق فئة منهم ثلاثين ألف مجلد من كتاب فرنساوى ذكر فيه غلادسون بغير ما يليق به من التعظيم ؟ بل من كان يظن أن الأمه الفرنساوية التى كانت بيوت أهلها مبنيه من قبل على هيئة الحصون والقلاع - لما كان متسلطا عليهم من الفشل والانحلال - تدرج منهـــا أمة تطير أفئدتها عند ذكر الالزاس واللورين (وهما مديريتان أخذتهما منها الألمان فى الحرب الاخيرة) ويأبى الواحد من أفرادها أن يدخل خانا ألمانيا ، أو يشترى بضاعة من ألمانى ، متى أمكنه أن يشتريها من فرنساوى ؟

« ولقد قال بعض الحكماء : إنك إذا رأيت الغلام فى المكتب يسمع سب أبيه ، ولا يتميز غيظاً ، فبشر الأمة التى سيكون عنصرا منها بالانحلال والدمار .

« ولقد رأينا مصداق ذلك فى بلادنا هذه فقد نقلت الينا بعض التواريخ أنه كان يسب المصرى بلفظة (فلاح) فيقال (يقطع الفلاح ونهاره) . وإذ ذاك كانت مصر على ما لا تخفى من الانحلال والبوار » (١)

وهذه المقالات وأمثالها إنما تعبر عن الشعور بالمصرية ، وهو شعور نما فى المصريين منذ انتقل اليهم معنى من معانى الوطنية ، وذلك على يد رفاعه الطهطاوى الذى كان من رواد النهضه فى هذه الفكرة . ثم تبعه آخرون فى ذلك ، حتى كان العهد بأديب اسحق فنقل إلى المصريين شيئا من بذور الثورة

---

(١) منتخبات المؤيد — ص ٨١ — مقالا بعنوان (حياة الأمم)

الفرنسيه ، ونقل اليهم كذلك تفسيرا لكلمات الوطن والوطنية الخ . وكذلك فعل على مبارك فى كثير من كتبه المعروفة ، ومنها (الخطط التوفيقية) ،

أما (القومية المصرية) فيقصد بها الى تلك الحركة التى جاءت لمناهضة (الجامعة الاسلامية) بعد اذ تبين للمصريين أن عليهم أن يتركوا فرنسا وانجلترا والدولة العليه ، وأن يعتمدوا على أنفسهم فقط فى الحصول على حقهم فى الاستقلال ، وحقهم فى الحريه .

« ولقد صادفت هذه الفكرة هوى من نفوس الانجليز الذين كان يعنيهم انفصال المصريين عن تركيا ، كيما تتاح لهم فرصة الانفراد بالسيطرة التامة على مصر . وحمل ذلك بعضهم على الظن بأن فكرة الجامعة المصرية — كفكرة الغاء الامتيازات الاجنبيه — هما معاً من وحى الانجليز لمصلحتهم الذاتيه فى مصر ، وهى المصلحه التى تحقق لهم جزء كبير منها بالاتفاق الودى سنة ١٩٠٤ » (١)

واشتهر بهذه الدعوة الأخيرة — وهى الدعوة الى (الجامعة القومية) بدل (الجامعه الاسلاميه) — أحمد لطفى السيد محرر (الجريدة) . فنادى بها وكان من أشهر مقالاته فى هذا الباب : مقال له بعنوان « عليكم أنفسكم » :

جاء فيه « أن من غير الصواب أن يعمل بعضنا لفناء شخصية المصرى فى شخصية العثمانى . لأن هذا الرأى مع بعده عن الصواب لا يتفق مطلقا مع مصلحة مصر ، ولا يتفق كذلك مع اعتبار مصر اقليما ممتازا مستقلا ... فمتى نصرف عنايتنا كلها إلى بلدنا ؟ ومتى نقتنع بأننا مصريون قبل كل شىء ؟ » (٢)

ومنها مقال بعنوان (غرض الامه هو الاستقلال) (٣)

جاء فيه ،

« إن أول معنى للقومية المصرية هو تحديد الوطنية المصريه (نريد الوطن

---

(١) أدب المقالة الصحفية فى مصر ج ٦ ص ١٥

(٢) الجريدة بتاريخ ٧ سبتمبر ١٩٠٩

(٣) الجريدة بتاريخ ٢ سبتمبر ١٩١٢ — واقرأ المقال فى أدب المقاله الصحفيه ج ٦ ص ٢١٨

المصرى) والاحتفاظ بها والغيرة عليها غيرة التركى على وطنه ، والانكليزى على قوميته ، لا أن نجعل أنفسنا وبلادنا على المشاع وسط ما يسمى (بالجامعه الاسلاميه) - تلك الجامعه التى يوسع بعضهم معناها ، فيدخل فيه أن مصر وطن لكل مسلم » الخ

كانت هذه الكلمات وأمثالها سببا فى تغيير السياسة المصرية ، والتفكير المصرى ، والشخصية المصرية . ومنذ ذلك الوقت والعناية بادية من جانب الكتاب والأدباء ورجال الصحف بهذه « المصرية » حتى أصبحت عنصرا لا غنى عنه فى المثالية الجديدة التى آمن بها الجيل المصرى الجديد . ثم سرعان ما اختفت من الوجود المصرى فكرة (الجامعه الاسلاميه) وتحلل الناس من قيود هذه النظريه ، وأحسوا منذ يومئذ بنعمة الحريه . وشعروا بأن الطريق انفسح أمامهم لكى يسيروا فيه بهدى جديد ، هو مصباح الجامعه القوميه . فكان هو الطريق الوحيد لتنمية عقيدة الاستقلال . فى نفوس المصريين .

* * *

تلك هى المجالات التى سبح فيها المقال السياسى منذ ظهوره على مسرح الصحافة المصريه إلى وقت نشوب الحرب الكبرى .

ولا تتسع المحاضرة الواحده - كما رأيتم - للوصول بالأفكار السياسية فى أفق الحياة المصرية الى الوقت الحاضر . فليكن ذلك - ان شاء الله - فى فرصة أخرى غير فرصة هذه المحاضرات التى نلقيها الآن ؟

١٣

مستقبل الأدب فى ظل الصحافة

نحن نعرف أن الأدب الذى وجد قبل ظهور الصحافة كان أدباً قبلياً فى جملته ، وارستقراطيا فى صبغته . وكان هذا الادب يمتاز بطابعه الحماسى فى الحالتين . ونقصد بالطابع الحماسى هنا ذلك الطابع العاطفى الذى يهدف دائماً الى تمجيد البطوله ، أو عبادة البساله - على حد تعبير الاستاذ احمد لطفى السيد فى الجريدة .

فالادب الجاهلى عند العرب والادب الاموى ، وكثير من الادب العباسى عندهم ، والادب اليونانى القديم . والادب الرومانى القديم — كلها آداب حماسية تمجد الابطال ، وتخلق منهم أنصاف آلهة . أما الادب الاوروبى فى العصور الوسطى فأدب (رومانسى) أو خيالى يدور حول موضوعات خيالية ، ويعبر عن عواطف مصنوعة ، ويتحدث أحيانا عن السحر ، ويبنى على كثير من الوهم . وانما ذلك كله نتيجة للحكم المطلق ، ولنظم الإقطاع ، ولسيطرة الاقوياء على الضعفاء ، ولتملق الناس للطبقة الحاكمة ، ورفعهم إياها إلى مستوى أعلى من مستوى البشر ، واعتمادهم فى ذلك على اللغة المملوءة بالمبالغات والاستحالات ، يصوغون منها مدائح للحكام ، لا يقبلها العقل مطلقا ولكن تقبلها العواطف الكاذبة والأذواق المريضة التى هيأها الأدباء لقبول الأساليب الحادة ، والتهويل فى العبارة ، والغموض فيها أحياناً إلى حد السحر ، والجنوح بهذه العبارة صوب الرصانة والجزالة والضخامة والانطلاق والقوة ؛ وما شابه ذلك من الصفات التى تلائم الممدوح !

أما الأدب الحديث فقد استطاع أن يخلع عن نفسه رداء (الرومانسية) الخيالية ، وأن يتخذ لنفسه رداء (الواقعية) .

وهذا أول الفروق الواضحة بين الأدبين . وإذا ذهبت تبحث عن الأسباب الرئيسية التى جعلت الأدب الحديث يعدل عن (الرومانسيه)

ويصبو إلى الواقعية لم نجد لذلك الا سببا واحدا فقط ؛ هو ظهور الصحافة. والصحافة مدرسة كبرى جذبت اليها الأدباء. فتدرب فيها هؤلاء تدريبا أكسبهم كثيراً من الخبرات الخاصة ، والتجارب النفسية والفكريه واللغويه التى غيرت من وجه الأدب ، ورسمت للأدباء طريق الزعامة الادبية التى يطمحون اليها فى المجتمع . والصحافة فى ذاتها تجربة أدبية لها خطرها من هذه الناحية ، لانها أول تطبيق عملى للتحول من (الرومانسية) إلى (الواقعية) . ثم جاء الادب نفسه بعد ذلك فشارك فى هذه التجربة وكان عليه إذذاك أن يضحى بالفن فى سبيل الفكره ، ويهمل القيم الجماليه من أجل القيم الاجتماعية أو التطبيقية الجديدة .

ذلك بالضبط ما فعله الكاتب الانجليزى (ديفو) وأغضب به رجال الادب فى زمانه، وأثار سخطهم عليه ، حتى وجدنا كاتباً آخر هو (سويفت) يشير دائما الى ديفو بقوله : (هذا الكاتب الأمى الذى أنسى اسمه دائماً) !

وفرق آخر من الفروق الواضحة بين الادب القديم والادب الحديث ؛ هو هذه النزعة (الديموقراطية) التى اتصف بها الأخير. وحلت فيه محل النزعة (الارستقراطية) التى كان يتصف بها الاول .

فبعد أن كان موضوع الأدب هو الحديث عن الملوك والأمراء والسادة أصبح موضوع الأدب هو التحدث عن هؤلاء ، وعن السوقه ، وعن اللصوص والخادمات ، والساقطات ، والأشخاص المجهولين كل الجهل من المجتمع فى العادة . ومن هنا كان رأينا فى (الجاحظ) دائماً أنه صحفى عصره بالمعنى المراد بهذه الكلمة عند إطلاقها . . ولست أدرى لم لم ينجح هذا الإتجاه الصحفى فى الأدب العباسى ، ويصبح له تلاميذ ومريدين ؟

إن مرد ذلك عندى هو الصبغة العامة لذلك العصر ، وهى الصبغة الارستقراطية لا الصبغة الشعبية .

والحق أنه ليس فى نزوع الأدب الحديث نحو الديموقراطية وجه من وجوه الغرابة ما دامت الشعوب الحديثة أصبحت موضع رعاية الحكومة

— أيا كان مذهبها السياسى — وما دامت شخصية الفرد فى المجتمعات الحديثة قد نمت ، وجاءت الصحافة نتيجة لنمائها فى الحقيقة . ثم جاء الأدب فكان عليه أن يجارى الصحافة فى عنايتها بالأفراد — أو بعبارة أخرى — بالطبقة الوسطى من طبقات المجتمع .

وهذا الذى يقال فى الأشخاص يقال مثله فى الأحداث . فبعد أن كان الأدب لا يعنى إلا بالأخبار الضخمة ، أصبحت له عناية بالأخبار الصغيرة التى لا ترقى إلى خبر زلزال ، أو بركان ، أو معركة فاصلة فى ميدان قتال ، ونحو ذلك . وكذلك اتسعت الصحف للاخبار جميعها ، لا فرق بين كبيرها وصغيرها . وكذلك تخلصت الصحافة أيضا من المبالغة فى إيراد الخبر أياً كان .

وهذا الذى قيل فى الأشخاص والأحداث يقال مثله أيضا فى الأسلوب أو اللغة . فبعد أن كانت الأساليب القديمة تمتاز بالصنعة وبالزخرف ، وبالجلال ، وبالحكمة أصبحت تمتاز باللطف وبالخفة ، وبالإيناس ، وبالرقة وبتلك الصفات التى تجذب الجماهير إلى قراءتها .

على أن تطور الأساليب الحديثة لم يقف عند هذه الحدود بل تعداها الى الموضوع . فأصبح الكتاب المحدثون يعالجون موضوعات جديدة ، كان ينظر القدماء اليها على أنها موضوعات تافهة وحقيرة . فهذا هو (ديفو) يكتب فى مثل هذه الموضوعات :

هل يبعث الزنوج يوم القيمة ؟

هل من حق الزوج أن يضرب زوجته ؟

هل يمكن أن تقوم صداقة بريئة بين الرجل والمرأة ؟

وذلك بعد أن كان القدماء يكتبون فى موضوعات الموت والحياة ، وموضوع الجبر والاختيار ، وموضوع الدين والإلحاد . وغيرها من الموضوعات الجادة القيمة .

وكلكم تذكرون تلك الموضوعات الصغيرة ، والعنوانات التى تبدو كأنها حقيرة ، وهى عنوانات المقالات التى كتبها صحفى معروف ، هو (المازنى) وخاصة فى كتابه « صندوق الدنيا »

ومن هذا القبيل مقال كتبه الأستاذ أحمد أمين فى مجلة الثقافه بعنوان « صندوق الكتاكيت ».

وإذن فكما حلت البساطة فى الأخبار محل التهويل فيها ، فكذلك حلت البساطه فى المقال محل الجديه والجزالة ، وأصبح كل موضوع فى الحياة — مهما قل شأنه — صالحا لأن يكون مادة صحفية ، متى صادف هذا الموضوع كاتباً ماهراً يحيله إلى مادة أدبية أو صحفيه لها حظ من الجذب أو الطرافه .

وذلك كله أثر من آثار المقال الصحفى والخبر الصحفى فى كتابة الأدب .

أما التحقيق الصحفى — والمعروف أن ديفو هو أول من ابتكر هذا الفن من فنون الصحافة — فانه يمتاز بالدقة ، والواقعية ، والإهتمام بالحقائق الملموسة والعناية بالشواهد المأخوذه من الحوادث الجاريه ، وبالصياغة التى لا حظ لها من الجمال فى أكثر الأحيان . وجميع هذه الخصال من شأنها أن تنحو بالأساليب الكتابية ناحية واقعية موضوعية .

ويؤكد النقاد الانجليز أن فن التحقيق الصحفى هو السبب الأول فى ظهور الروايات الواقعية التى كتبها أمثال : ديفو ، وديكنز ، وثاكارى ، وإميل زولا ومن اليهم من كتاب الروايه الواقعية فى كل من انجلتره وفرنسا وروسيا .

وأما الحديث الصحفى — ويقال كذلك إن ديفو يرجع اليه فضل السبق فى هذا الفن — فكثيرون من النقاد يرون فيه بذور الرواية التى تعنى باللصوص والخدم ، والساقطين من الرجال ، والساقطات من النساء ، وهؤلاء الاشخاص الذين كان الادب القديم يأنف من التحدث عنهم أو التحدث اليهم .

تلك أهم الفروق الواضحة بين الادب القديم والادب الحديث . وهى فروق مرجعها إلى هذا الحدث الجديد فى تاريخ الآداب فى العالم ، وهو ظهور الصحافه .

* * *

وقد سبق لى أن حدثتكم عن السمات العامة التى سرت من الصحافة الى القصة المصرية أولا ، والقصيدة الشعرية ثانيا ، والمقال الصحفى فى اتجاهاته الثلاثة : الاتجاه الثقافى ، والاتجاه الاجتماعى ، والاتجاه السياسى :

ففى (الشعر) رأينا كيف كانت القصيدة الشعريه - فضل الصحف - أشبه شىء بالمقالة المقفاة . وكيف كانت الالفاظ الشعرية أدنى الى السهولة التى لا تعهد الا فى النثر . وكيف كان شعر المناسبات عبارة عن مقالات يتطلبها هذا الظرف أو ذاك الخ .

وأكثر من هذا وذاك أن الشعر الحديث — مجاراة منه للصحافة — اتجه الى القصة الشعريه القصيرة — فضلا عن المسرحيه الكبيرة — حتى يمكن أن تجد هذه القصه الشعريه مكاناً لها فى الصحف والمجلات . ومن الشعراء المجيدين فى هذا الميدان شاعر كخليل مطران ، وذلك فى كثير من قصصه الشعريه المعروفة . ومنها (فتاة الجبل الأسود) و (مقتل بزرجمهر) و (الجنين الشهيد) وغيرها .

وفى (القصة) رأينا أن الاتجاه الأول الذى أتجهت اليه للقصص العربية كلها كان اتجاها اجتماعياً صرفا . وأوضحنا أسباب ذلك بتفصيل تام . ومثل ذلك حدث فى الادب الاوروبى ، وذلك منذ ظهر أمثال : ديكنز ، وثاكارى وويلز ، وغيرهم .

ولكن الامر لم يقف هنا عند هذا الحد . بل وجدنا القصه الاوروبية تتخذ أشكالا اخرى . منها شكل القصة التى تكتب على هيئة رسائل يتبادلها بطلان من أبطالها أو شخصان من أشخاصها .

ولا ريب أن هذا الشكل من أشكال القصة فى الأدب الاوروبى مأخوذ من نظام الرسائل التى يبعث بها القراء الى رئيس التحرير فى الجريدة حول فكرة من الافكار أو مسألة من المسائل .

على أن القصه القصيرة فى الآداب الحديثة تعتبر كذلك أثرا من آثار الصحافة ونحن نعلم أن الصحيفة تفضل غالباً أن تكون القصة من القصر بحيث تنشر كلها فى عدد واحد من أعدادها دفعة واحده .

ومنذ التفت الأدباء المحدثون الى هذه الظاهرة الأخيرة أوجبوا على أنفسهم أن يكتبوا قصصهم على هذا النمط .

وفى ميدان القصة أيضا يلاحظ الباحث عناية الأديب القاص بخلق الجو الإجتماعى للقصة دائماً . وهو أثر من آثار المقال الصحفى ، والتقرير الصحفى ، والتحقيق الصحفى ، على النحو الذى أشرنا اليه .

ومع هذا وذاك فقد عرفت القصة الطويلة طريقها كذلك إلى الصحف . فنشرت فيها مسلسلة ، ولكن بأسلوب صحفى توفرت فيه جميع الشروط السابقة ، من حيوية دافقة ، الى رشاقة ظاهرة ، الى عناية بتصوير الشخصيات ، الى تحليل نفسى لهم ، ووصف للظروف المحيطة بهم الخ

ولقد اجمع النقاد كذلك على أن أهم تأثير للصحافة فى الأدب هو خلق هذا الفن الجميل من فنونه ، وهو فن الرواية أو القصة بمعناها الحديث .

ولا غرابة فى هذا ، فمنذ ظهرت الصحافة تهيأت العناصر والوسائل اللازمة لتكوين الروايه الواقعية الجديدة . ومن هذه الوسائل أو العناصر تصوير الشخصيات الإجتماعيه ، كما ظهرت فى صحف ستيل ، وأديسون ، وسويفت ، وفيلدنج ، وجولدسمث . ومنها ـ أى من هذه الوسائل ـ خلق الجو الإجتماعى اللازم لإنشاء القصه الواقعية ومنها العنايه بالأفراد كأفراد ، وشرح نواحى الانحراف النفسى عند هؤلاء جميعا . ولو كانوا لصوصا أو جناة ، أو كانوا خدما وسوقه وأخيراً . من هذه الوسائل الحوار الإجتماعى الفكه : ونحو ذلك .

وإذا كانت الصحافه هى التى خلقت فن الروايه الواقعية بأحداثها وأشخاصها وموضوعاتها وأجوائها فقد كانت ذات أثر كبير فى قوالبها الفنيه كذلك .

وتأملوا معى رواية كرواية (روبنس كروزو) تجدوا أنها كتبت بأسلوب المتكلم . وهى فى ذلك أقرب شبها بأسلوب المخبر الصحفى ، أو مراسل الجريده ونحوهما .

وفى الرواية السابقه تنويه بمقدرة الفرد على مكافحة الطبيعه . ووصف لشجاعته وحسن تصرفه فى مواجهة كل موقف من مواقف الإنسان الذى

هو (إبن الطبيعه) . ومن أجل ذلك رأينا (روسو) يدعو فى كتابه (أميل) إلى دراسه هذه الرواية وهى عندنا شبيهة بقصة (حى بن يقظان) المعروفة فى الأدب المصرى . وفى ذلك ما فيه من العناية (بالفردية) التى ظهرت بوضوح تام فى المجتمعات الحديثه .

* * *

(أما فى المسرح) فقد وجدنا ظاهره خليقـــة بالتسجيل فى الأدب الأوروبى ، وهى أن المسرحيات التى ظهرت تدور كلها حول (المذاهب السياسيه) و (المذاهب الإجتماعيه) و (العلاقه بين العلم والدين) و (الآراء الحديثه فى علم النفس) ونحو ذلك .

والذى لا شك فيه أن هذا الإتجاه أثر من آثار المقال الصحفى الذى عالج هذه الموضوعات الفكريه على إختلافها .

خذ لذلك مثلا (برنارد شو) - ونحن نعرف من سيرته أنه كان صحفياً ، وناقداً اجتماعياً وفنياً ، وهو يعترف صراحه بأثر هذه الحقيقه فى فنه وأسلوبه - قد علمته الصحافه كيف يكتب بالأسلوب الصحفى ، وعلمته الصحافة كيف تدور الواحدة من رواياته المسرحيه غالباً حول مشكلة من المشكلات الإجتماعية أو النفسية .

فمن هذه الروايات التى كتبها (شو) روايته المعروفة بأسم (كانديدا) Candida ، وروايته المشهورة بأسم (الاسلحة والانسان) ورواية (الانسان العادى والانسان العالى) Man and Snperman . فى الأولى يتحدث عن حقوق المرأة ، وفى الثانية يهاجم الرومانسية ويدافع عن الواقعية . وفى الثالثة يعبر عن تفاؤله وايمانه بتقدم البشرية . وهذه كلها موضوعات اجتماعية ، بل هى مما يشغل بال الرأى العام فى انجلترا الى اليوم . حتى ان الباحث ليحار حقا فى فن (برنارد شو) ، أهو صحافة أم أدب مسرحى ؟

وآية ذلك أنك ترى هذا الكاتب العبقرى يتوخى دائما ان يكتب لكل رواية مسرحية من رواياته مقدمة طويلة ، لا نستطيع ان نفرق بينها وبين المقال الصحفى بحال ما .

والعجب فوق ذلك أن (شو) فى روايته « جزيرة جون بول الثانية » يتحدث عن حادثة دنشواى بوجه أخص ، ويأتى فى حديثه بأسماء الفلاحين المظلومين الذين اعتدت عليهم (المحكمة المخصوصة) فى ذلك الحين . ويصف وقائع دنشواى وصفاً مؤيداً بالاحصاءات والأقوال ، ويتم له بذلك خلق الجو الاجتماعى اللازم لفهم الحادثة (١) .

ولا ننس أن (شو) يمتاز بالنزعه العقلية فى الكتابة ، وبالحريه ، وبالذكاء وسرعة الخاطر وحضور البديهة ، وبالميل الظاهر الى التهكم واللذع والسخرية الخ . وتلك كلها صفات الأسلوب الصحفى الذى يحمل فى طياته عناصر القوة والحيوية والشهرة والذيوع ، والاستهواء لأكبر عدد ممكن من القراء فى العالم .

وهذا الذى قيل فى مسرحيات (شو) وتأثرها بالاجواء التى خلقتها الصحافة هو بعينه ما يمكن ان يقال بالقياس الى استاذه (إبسن) النرويجى الذى كان هو الآخر صاحب صحيفة أصدرها بنفسه ، فضلا عن اشتراكه فى كثير من الصحف الاخرى . ومن ثم اقترب (ابسن) فى أسلوبه كثيراً من اسلوب الصحافة ، وظهر عليه كثير من خصائصها . وقد عالج (ابسن) فى مسرحياته بعض المشاكل الاجتماعية ، كمشكلة المرأة ، ومشكلة الفرد فى المجتمع ، ومشكلة العامه بين المثال والواقع الخ

وهكذا لم يعد الأدب الحديث أدبا يراد به التسلية وحدها بل غدا أدبا حيا لصيقا بالمجتمع ، تهتم بالواقع ، ويزيد الأفراد علما بنفوسهم ، وطباعهم وحياتهم ، وحكوماتهم ، ويزيدهم علماً بالنظريات والآراء التى تصدر عنها هذه الحكومات فى قيادة الجماهير . ومن ذا الذى يمارى فى أن هذه الأفكار كلها ثمرة من ثمرات الصحافة ؟ .

معنى ذلك أن الصحافة كانت ولا تزال نعمة على الأدب وعلى الفكر معاً

* * *

ولكن هل صحيح أن الصحافه نعمة على الادب أو على الفكر ؟

---

(١) لفت نظرى الى هذه الرواية الهامة من روايات شو صديق الاستاذ ابراهيم امام المدرس بكلية الآداب جامعة القاهرة . فله الشكر .

كلا — فان الناظر الى الادب والفكر فى أمة من الامم يرى الغبن الذى وقع عليهما بسبب الصحافة . وقد أشرنا الى هذا الغبن من ناحية الأدب، وقلنا ان الصحافة افقدته كثيراً من القيم الجمالية التى كان يفخر بها فى العصور المتقدمة. شأن الادب فى ذلك بالضبط شأن الصناعه التى كانت تدار بالأيدى فى الازمنة الاولى، فاصبحت تدار بالآلات فى الازمنة الاخيره . كان الصانع القديم يقضى فى إخراج القطعه الواحده من نتاجه أوقاتا طويله يبذل فى أثنائها كل ماوهبته الطبيعة من فن ومهارة . فاذاتم له ذلك واستوت القطعة الفنية امامه نظر اليها وتأمل فيها، وأحدثت له هذه النظرةوهذا التأمل لذة نفسية كبيرة ؛ هى كل ما تلقاه من أجر على مابذل من جهد، وأضاع من وقت .

أما الآن فان المصانع التى تدار بالآلات البخارية والكهربائية تخرج مئات آلاف القطع فى أقل من دقيقة، وتجعل من الصانع أوالعامل آلة صماء، أو زرا من أزرار الكهرباء، لايحس لذة من اللذائذ القديمة عدا لذة الكسب والحصول على لقمة الخبز .

ذلك كله فى الأدب البحت . وأما الفكر فقد خسر هو الآخر خسارة هى فى نظرى اكبر من خسارة الادب .

ولقد نظرت وتأملت فى جميع النهضات الفكريةوالمذهبيةالتى قامت فى بلاد الغرب فوجدت الكثير منها كان نتيجة لازمة لدراسات عميقة، وجهود كبيرة من جانب الكتاب والمفكرين، لا اصحاب الصحف خاصة.

إن (الكتاب) — لا (الجريدة) — هو الذى يستطيع أنه يؤثر فى عقول الشيوخ وعقول الشبيبة . وفى مدى جيل واحد أو جيلين على اكثر تقدير تظهر نتيجة هذا الاثر الذى أحدثه الكتاب . وهذا هو الفرق بينه وبين الجريدة . للأخيرة التأثير القوى السريع، وللأول التأثير النافع البطىء . الاخيرة أداة الحكومات والجماهير . والاولى أداة الفلاسفة والمفكرين . وعلى هؤلاء فى الواقع يقع العبء الاكبر فى بناء الامة، أو فى تحويلها من طور الى طور، والانتقال بها من حال الى حال، والارتفاع بها الى المنزلة التى ينبغى أن تكون لها بين الامم الاخرى .

فأين الكتاب الذى كتبه مصرى أو شرقى فى فلسفه الحكم ؟ واين الكتاب الذى كتبه مصرى أو شرقى فى فلسفه الدين ؟ ان صح هذا التعبير ؟ واين الكتاب الذى كتبه مصرى أو شرقى فى مشكلة الحضارة الاوربيه الحديثة ، بعد أن عشنا معها كل هذا العمر الطويل ؟

وانتم ترون الحياة المصرية أو الشرقية مملوءة بالمشكلات الاجتماعية والدينية والفكرية، وترون المصرى أوالشرقى صريعا لشتى الرواسب النفسية، وانتم حين تطوون السنين القهقرى أمامكم لاتجدون واحدا من الكتاب أو المفكرين شغل نفسه جديا بمشكلة من تلك المشكلات ، وتوفر جديا على بحثها . لا اكاد أستثنى من هؤلاء غير أشخاص يعدون على أصابع اليد الواحده . منهم جمال الدين الافغانى، ومحمد عبده ، وعبدالرحمن الكواكبى ، وقاسم أمين . وأكثر هؤلاء إنما أتاحت لهم الصحف أن يكتبوا كتبهم على شكل فصول نشرت تباعا ، ثم جمعت بعد ذلك على شكل كتب ، وقرأها الناس جيلا بعد جيل وتأثروا بها . وهذا ما لا تسمح به الصحف فى وقتنا الحاضر .

وأنتم تعلمون أن الثورات المجيدة فى التاريخ إنما خرجت من دائرة الادب الاصيل ، وميدان الفكر الانسانى العميق .

فالثورة الفرنسية نفسها اثر من كتابات روسو وفولتير ومنتسكيو .

ونزعة السلام والديمقراطية خرجت من أدب تولوستوى .

ودوله الباكستان لم تكن سوى حلم للشاعر إقبال .

وبلزاك بشخصياته الفنية المتكررة كان يسبق الحياة الاوروبيه فى القرن التاسع عشر .

وهيجل — بدون شك — كان وراء الفاشية والنازية .

ووراء تحرير العبيد فى أمريكا قصة (كوخ العم توم) .

وروايات بول سارتر الأديب تلهب خيال الوجوديين ، وتجعلهم يسيرون فى الشوارع بشعورهم الطويلة ، ولحاهم المرسلة ، وملابسهم المزركشة ، ومظهرهم الغريب !

ان كل حركة من حركات الغرب إنما هى ثمرة جهود عنيفة بذلها أهله فى فى سبيل الوصول اليها . وحين وصلوا اليها كان من السهل عليهم أن يهضموها ويتمثلوها جيدا ، ويدخلوها فى كيانهم الاجتماعى . فاذا انتقلت الينا هذه الحركات بسرعة البرق بدون أن يكون لها من تاريخنا الثقافى أو الاجتماعى رصيد ما ، أو بدون أن تسبقها عندنا جهود تمهد لها تمهيدا ما — لم نجن من ورائها الا الحيرة والإرتباك !

ولعل قادتنا ومفكرينا أن يدركوا هذه الحقيقة ، ولعلهم يبذلون من ذوات نفوسهم جهودا عنيفه ، ويتحررون أولا من اغراء صاحبة الجلالة الصحافة !

لقد كان تأثر الأدب المصرى بالصحافة سببا فى بعد الأدب المصرى عن صفة العمق ، كما ابتعد من قبل عن صفة الفن . ولينظر الباحث هنا فيما عمدت اليه بعض الصحف والمجلات فى أيامنا هذه . فقد رأى أصحابها أن العلم اصبح مقصورا على طائفة معينة . هى تلك الطائفه التى تقوم بتدريسه فى داخل المدارس والجامعة . أما سواد الشعب فأنهم لا ينالون من العلم الا قشورا بسيطه . هى كل ما تستطع الصحيفه أن تجود به عليهم فى شكل مقالات علمية أو أدبيه . وهنا فكر هؤلاء الصحفيون فى طريقة عملية لتبسيط العلم . فأخرجت كل صحيفه مشهوره سلسلة من الكتب فى الادب والاجتماع والتاريخ وعلم النفس والفلسفه والصحة والطب ونحو ذلك .

ومن الأمثلة عليها فى وقتنا هذا :

سلسلة (اقرأ) وتخرجها مجلة الهلال كل شهر . وسلسلة (كتاب اليوم) وتخرجها جريدة أخبار اليوم كل شهر . وسلسلة (كتاب الشهر) وسلسلة « كتابى » الخ .

أجل — لقد طال خضوع الأدب للصحافة . ومن الخير أن يسترد هذا الادب بعض حريته واستقلاله عن الصحافة ، ولن يكون ذلك إلا اذا أصبح الأدباء والعلماء من القوة بحيث لا يأخذهم بريق الصحف ، فيتهافتون عليها رغبة فى الحصول على الشهرة لا أكثر ولا أقل !

ويوم يستطيع (الكتاب) أن يزاحم (الجريدة) على هذا النحو تقول إن الادب فى طريقه إلى الحصول على استقلاله الصحيح عن الصحافه .

وعلى هذا فمستقبل الادب الحديث فى يده هو . إن أراد الادباء لانفسهم الشهرة وحدها ، فعليهم أن يتعلقوا بالصحف . وإن أراد الادباء والعلماء لانفسهم التأثير البعيد المدى فى الاجيال المقبلة كلها ، وأرادوا المشاركة الحقيقية فى بناء الامم التى أنجبتهم ورفعتهم إلى هذه المنزلة ، فعليهم أن يفرغوا بعض الشيء للعلم والادب ، ويستغلوا مواهبهم استغلالا صحيحا من هذه الناحية .

ان الناس بحاجة فى هذه الأزمنه الحاضرة الى الأدب العاطفى ، أو الأدب (الرومانسى) الذى يكون برداً وسلاما على أفئدتهم ، وغذاء صحيحا لعواطفهم وأحاسيسهم ، وعونا لهم على احتمال مكاره الحياة ، وراحة لهم من عنائها الذى لا ينقطع !

وقد أحس أديب كبير وصحفى مشهور فى أيامنا هذه — وهو هنا الدكتور طه حسين — بالخطر الذى يتهدد الادب . فنشر فى صحيفة الجمهوريه (بتاريخ ٥ فبراير سنة ١٩٥٤) مقالا جاء فيه :

« ولا بد للأديب من أن يروض نفسه ، ويسوسها حتى تألف الجهد والعناء والمشقة ، وترى أنها أيسر ما يجب لإنتاج الادب الرفيع الذى يستحق أن يسمى أدباً ... ولا على الأديب أن يغضب أصحاب المطبعة إن أبطأ به الإنتاج عما ضربوا له من موعد . فذلك كله خير له من أن يتعجل ، فيرضى الصحيفة والمطبعة ، ويسخط الفن ويفسد الأدب ، وقد يفسد معه ذوق كثير من القراء . وهنا تنكر الصحف وتثور . فهى لا تستطيع أن تنتظر الأديب حتى يتقن إنتاجه ، ويصبح نشره شيئا لا حرج فيه .

« فمن أراد أن يكتب لها على شرطها فليفعل . ومن أبى الا أن يكتب على شرط الأدب فليلتمس لنفسه مذهباً آخر من مذاهب النشر » اه .

واكثر من هذا وذاك أن من المفكرين والنقاد من حذروا الشباب

أخطار الصحافة من الناحية الخلقية الخالصه . وصرح بعضهم « بأن قراءة المجلات الإستعراضية لمجرد التسليه — لا للعلم ، أو تغذية العقل وتنمية الوجدان — كان لها اكبر الأثر فى انحطاط الأخلاق فى امريكا

* * *

(والخلاصة) إن المستقبل الحقيقى للأدب هو فى العودة الى الحالة الأولى قبل نشوء الصحافه — اعنى حالة الحُريه والانطلاق ، أو الحالة التى وصفها بعضهم بقوله « الفن للفن » .

ولقد بذر البذور الأولى للعودة إلى الطبيعة فى الأدب الأوروبى روسو فى فرنسا ، وجوته فى ألمانيا ، وبليك فى انجلتره ، ولقد كانت الحركة الرومانسية فى ذاتها تحطيما لأغلال العقل ، وانطلاقا مع دواعى الروح ، والنفس ، والعاطفة ، والقلب .

* * *

لا تنسوا أبدا أيها الشباب أن الأدب الحقيقى هو الذى تقرأونه فى مثل الشعر الجاهلى ، والغزل الأموى ، وكليلة ودمنة لابن المقفع ، ورسالة الغفران للمعرى ، وحى بن يقظان لابن الطفيل ، وقصائد دانتى ، ومسرحيات شكسبير ، والفردوس المفقود لملتون ، وثورة الإسلام لشيلى . ففى هذا الأدب نشعر دائماً بالانطلاق من مشاغل النفس ، ومطالب البدن ، وهموم الحياة . والانسان فى حاجة دائماً إلى ما يصرفه عن نفسه وشواغله . وتلك هى الوظيفة الأولى للادب ، والواجب الأول على الأدباء . وهذا هو معنى قولنا إن مستقبل الأدب هو فى العودة به إلى الحالة الأولى . ولست أريد بالحالة الاولى هنا العودة بالادب إلى نزعته القبلية الاستقراطية التى أشرت اليها فى أول هذا الحديث ، فقد قلت عنها إنها أفسدت الادب من كل ناحية .

ولا تنسوا أبدا أيها الشباب أن الكتاب — لا الجريدة - هو الأقدر على

تهيئة الامم للتقدم الذى تنشده ، وإعداد الأجيال المستقبلة للنهوض بها الى المستوى الذى تتطلبه .

فاذا أرادت الامم بأبنائها خيراً فلتتح الفرصة كاملة للادباء المفكرين من ناحية ، والعلماء المخترعين من ناحية ثانية . أولئك يقدمون لها أدباً خصباً قوياً حياً يغذى فيها الشعور ، وينمى فيها العواطف ويكون فيه النعيم المقيم للعقول المجهدة ، والنفوس الحائرة ، والقلوب المعذبة . وهؤلاء – أى العلماء – يقدمون لها المخترعات الحديثة التى تشارك بها الامه فى ركب الحضارة . وهذا وذاك لا يكون دائماً عن طريق الكتب .. وتلك هى الوظيفة الثانية من وظائف الادب . ونعنى بها تقديم الافكار التقدمية للمجتمع .

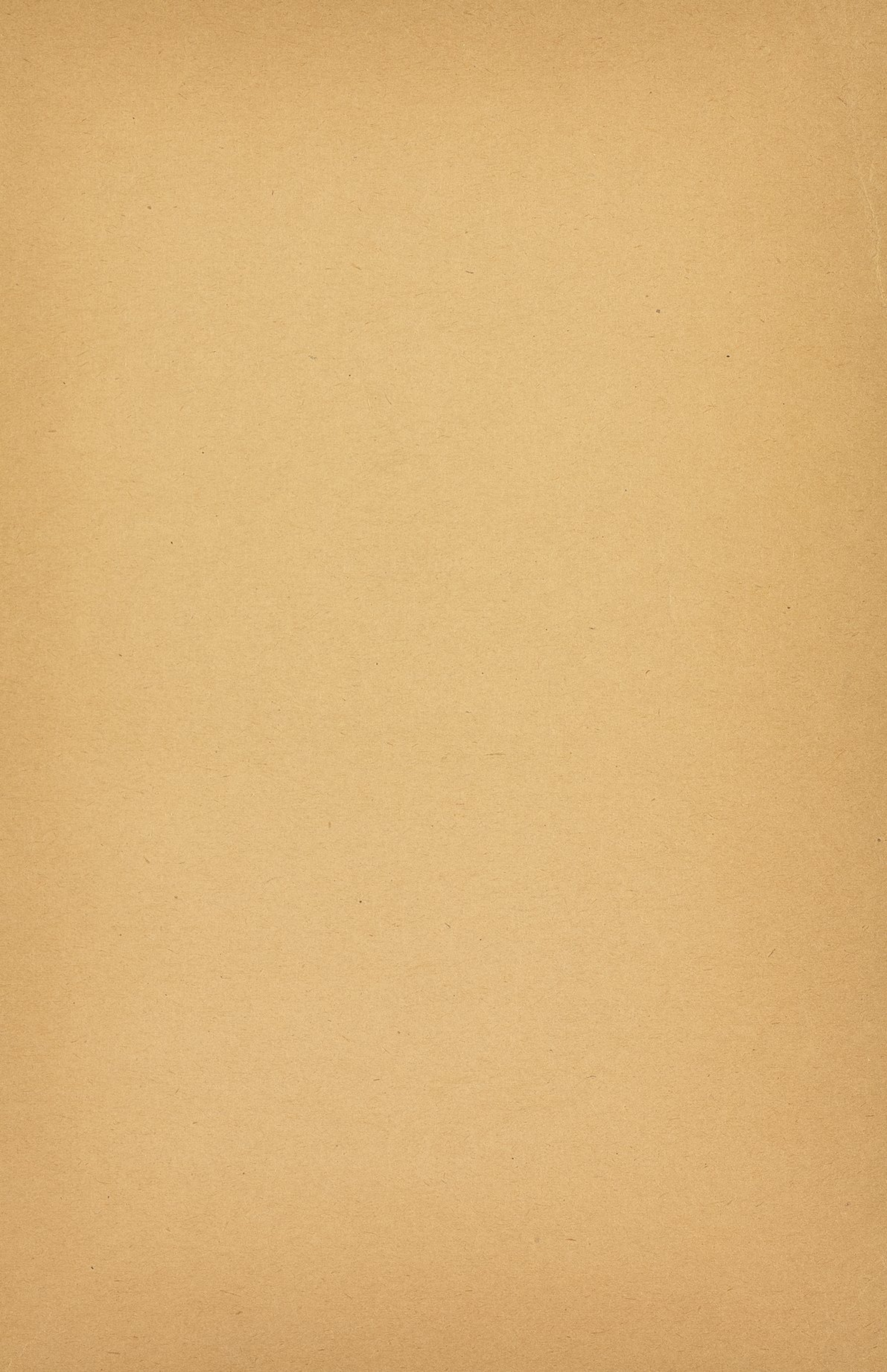
إن النزول إلى مستوى القراء معناه دائماً تدهور الذوق أولا ، وإرضاء الجماهير على حساب الفن ثانياً ، والفكر ثالثاً ، والمجتمع فى نهاية الامر ؟

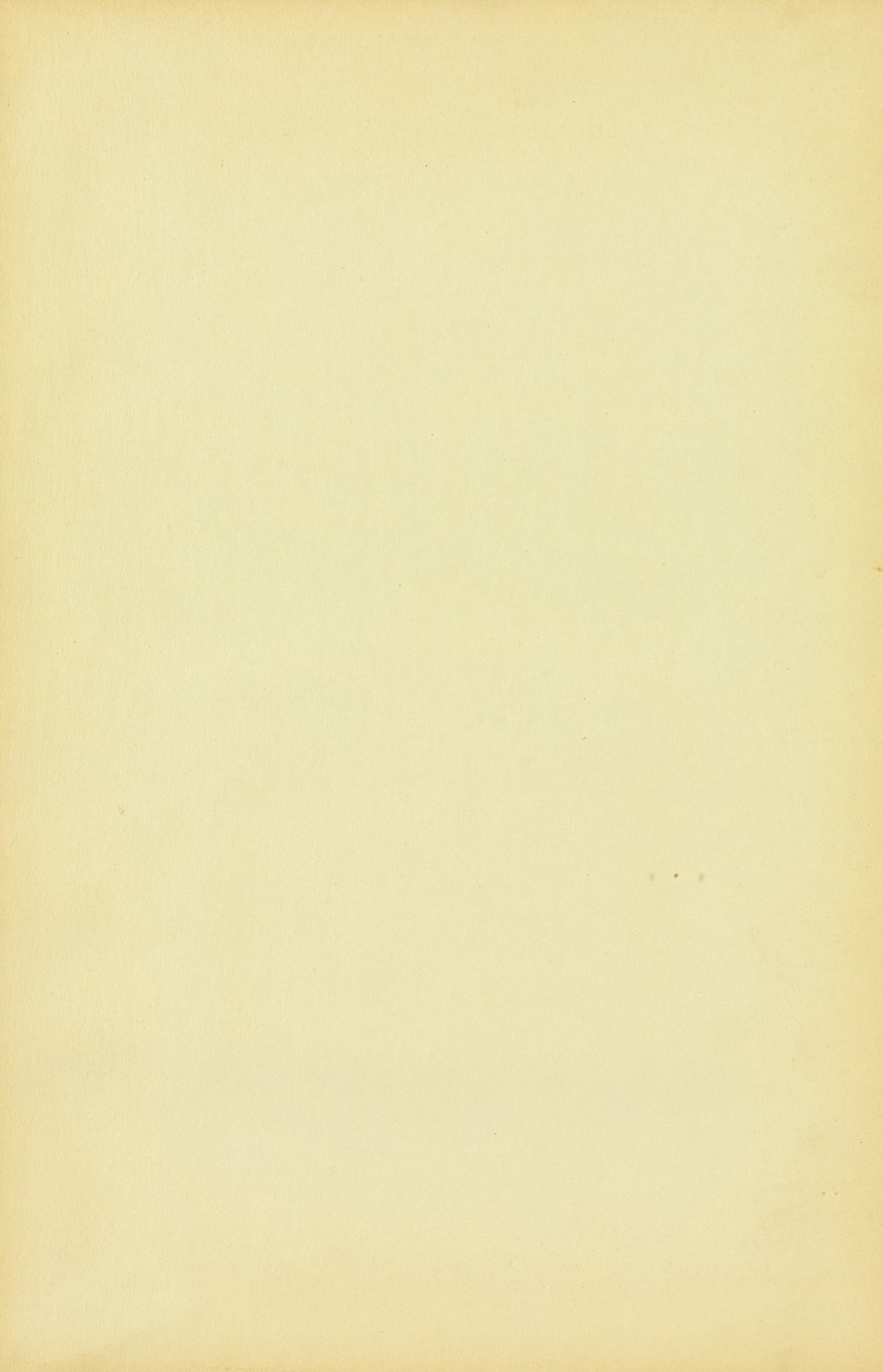
عبد اللطيف حمزه

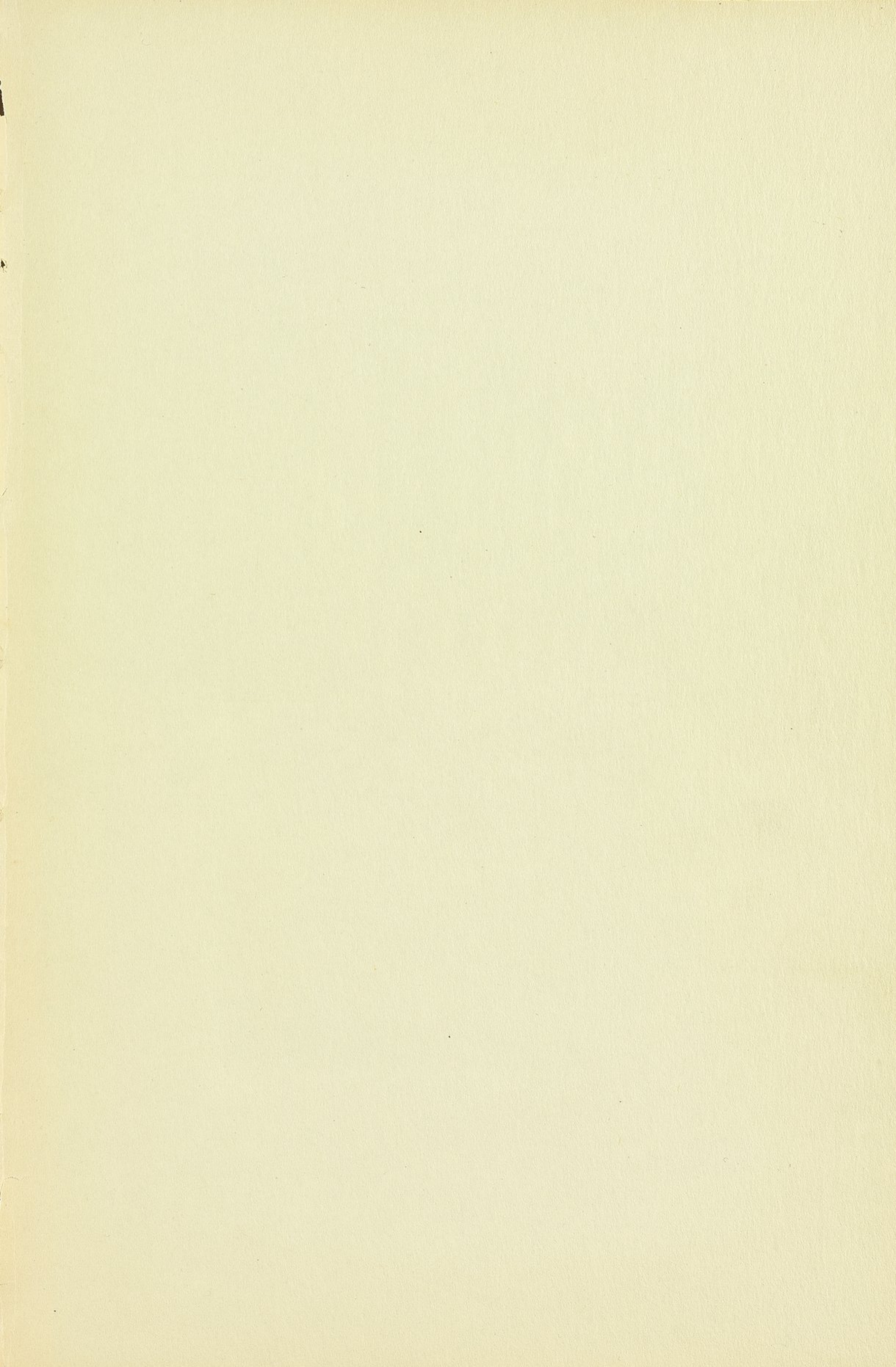
الفهرس

مطبعـــة البرلمان
٧ شارع الترجمان (بالعتبة)
تليفون : ٧٩٣٩٢ ـ مصـــر

مطبعة البرلمان (بالعتبة) تليفون ٧٩٣٩٢ مصر








COLUMBIA UNIVERSITY
0026812045

